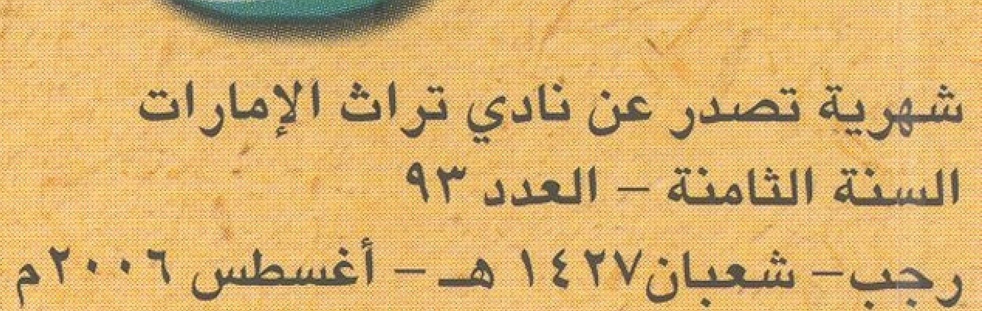
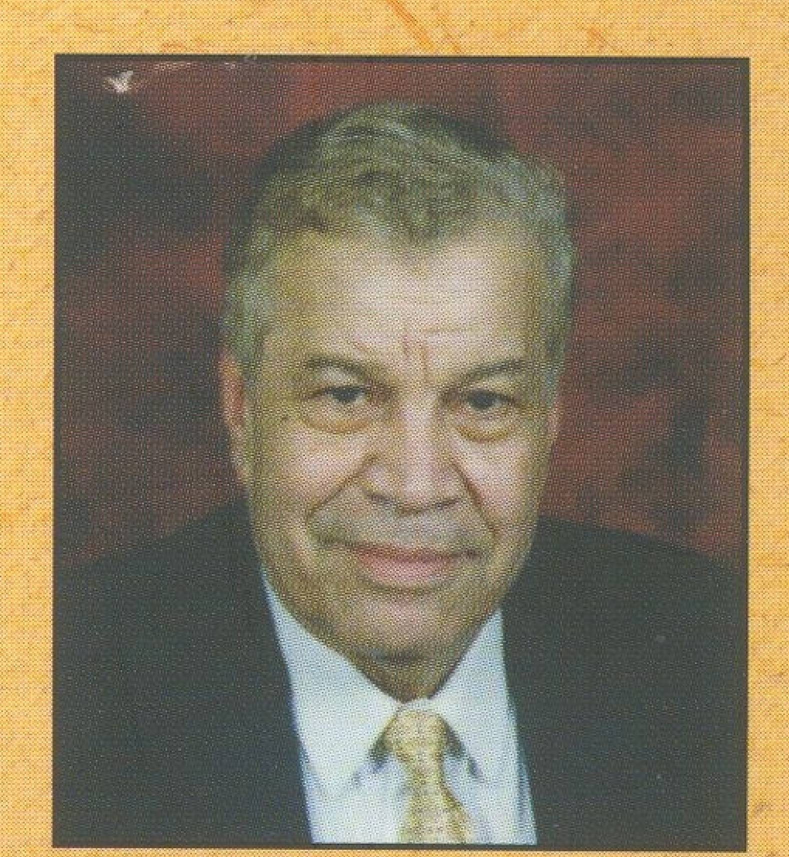
تراث



شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات
السنة الثامنة - العدد ٩٣
رجب- شعبان١٤٢٧ هـ- أغسطس ٢٠٠٦م



■ حوار مع:
د. جمال زكريا قاسم
■ المعابد من خلال الآثار
■ اللغة المهرية..
جذور تاريخية
■ الطيب والعطور
في التراث العربي.
■ تدبير المياه
في المغرب العربي.
■ من نسيج التاريخ
في سويتو.
■ انطباعات الرحالة
العرب عن روسيا.

حتى لا ننسى:

حريق الأقصى مازال مستمراً

أول القرطاس

يوماً بعد يوم تزداد الحاجة إلى الباحثين والمؤرخين المواطنين الذين يتوجب عليهم إعادة قراءة تاريخ وطنهم، وإعادة كتابته، وما ذلك إلا لأن هذا التاريخ يستحق أن تستجلى صفحاته، وأن تنقى سطوره، وأن توضع كل كلمة من كلماته في موضعها الصحيح، ولا أقدر على فعل ذلك من أبناء الوطن الذين هم أعلم بطبيعته التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، بل والإنسانية.

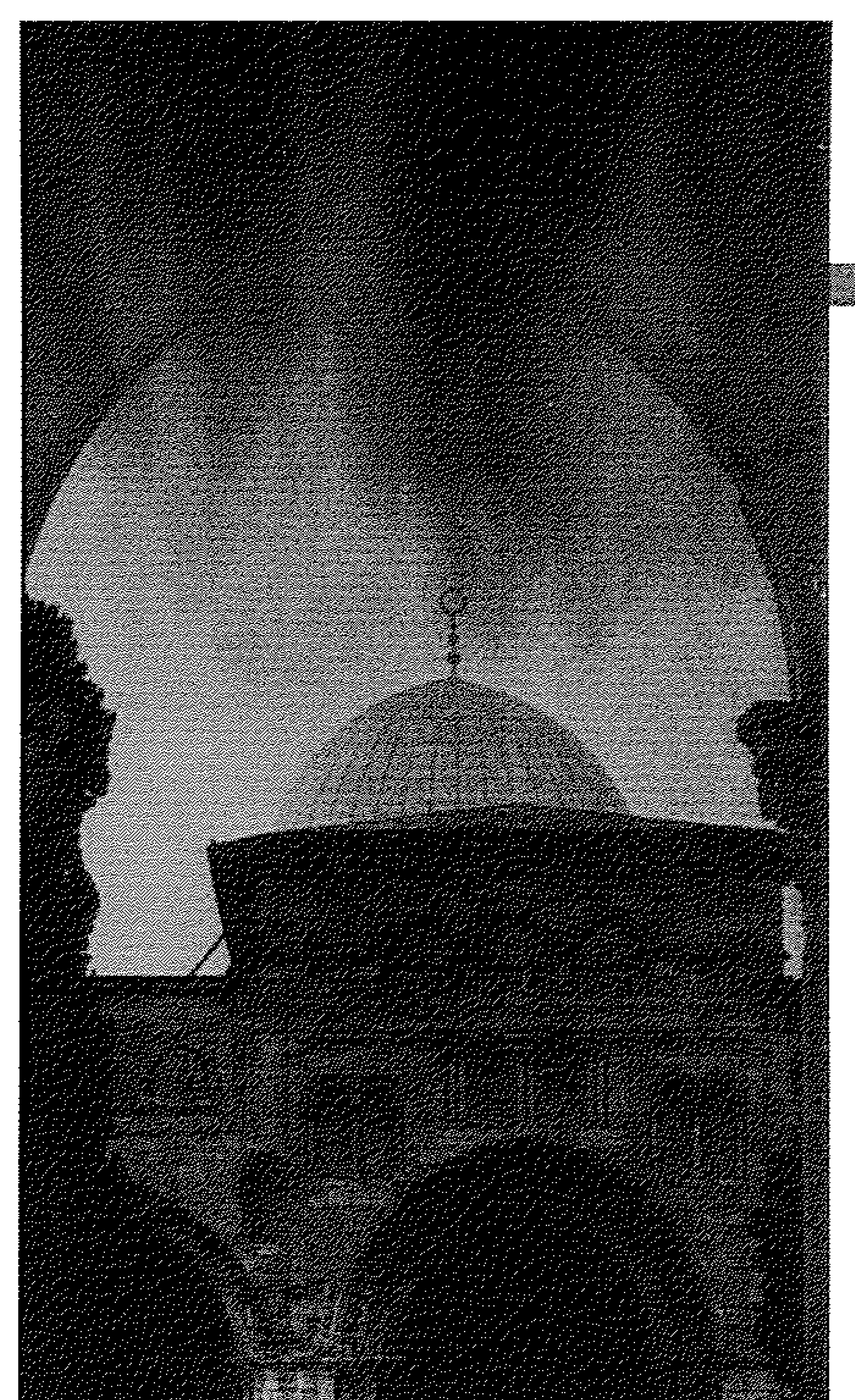
غير أن هذه المعرفة وحدها لا تكفي لهكذا مهمة، فلابد لهم من التسلح بأدوات خاصة واتباع مناهج معينة، والاستفادة من كل ما يتاح لهم من مصادر، سواء كانت مكتوبة أو شفاهية. أما الأدوات والمناهج فإن أقسام التاريخ في المؤسسات التعليمية المختصة بالدولة، وفي مقدمتها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات، لا تألو جهداً في تزويد طلبتها بها، وأما المصادر التاريخية فإن هناك أيضاً العديد من المؤسسات الوثائقية والبحثية توفرها للباحثين وبدرجات متفاوتة، حسب المتاح من هذه المصادر لدى كل مؤسسة ووفق السياسة الخاصة بكل منها، وتبقى مسألة غاية في الأهمية، وهي اقتناع أبناء البلد بعظم المهمة وأهميتها من جهة، وبخطورتها وحساسيتها من جهة أخرى، والنظر إليها من زاوية الواجب الوطني المقدس، فالدفاع عن تاريخ وماضي الوطن ليس أقل قدسية من الدفاع عن حاضره ومستقبله.

إن هذه القناعة لو توفرت، وهذه النظرة لو ترسخت، قادرتان على تقاطر أبناء الدولة من الباحثين والمختصين لأدائها، والانخراط في جيش المدافعين عن تاريخ وطنهم المنافحين عن مستقبله، وهم كثر. ونزعم أنهما بالفعل متوافرتان لدى الكثيرين إن لم يكن لدى الجميع، ولكن المطلوب هو الإعلاء من شأن من يتفرغ لهذه المهمة، وتوفير كل ما يلزمهم من دعم مادي ومعنوي، ونحسب أن الإبتعاث إلى دول ذات شأن في هذا الصدد، والتخصص الدقيق في تاريخ الدولة والمنطقة، وإخضاع المبتعثين بعد عودتهم لدورات تخصصية في مجالات ابتعاثهم، ثم التفرغ الكامل لهؤلاء، وفتح كل خزائن الأرشيفات أمامهم، هي خطوات لازمة لبداية صحيحة للتغلب على مشكلة عدم وجود باحثين ومن ثم مؤرخين مواطنين يتعهدون تاريخ وطنهم بالبحث والتنقيب ويعملون فيه التصحيح التنقيح، بوحي صادق من ضمائرهم، وبحس عال من وطنيتهم.

وقد اعترفنا بأن مؤسساتنا العلمية والعملية لا تألو بالفعل جهداً في اتجاه وضع اللبنات الأولى للباحثين وتخريج أعداد مناسبة منهم، لكن ينبغي الاعتراف كذلك بأن الكثيرين من هؤلاء الخريجين يجدون طريقهم إلى العمل في غير المؤسسات البحثية، وبعض من يلجون هذه المؤسسات ينتهي بهم المطاف إلى وظائف إدارية هي بلا شك أقل جهداً ومشقة من مهمة البحث والتأريخ، والبعض يتوقف عن الدراسة والبحث مكتفياً بما حصله، غير من يتسرب من هؤلاء إلى أعمال بعيدة كل البعد عن مجالات تخصصاتهم. ولذلك فإنه ما لم تتم معالجة هذا الأمر فسنظل ندور في حلقة مفرغة، وسيظل تاريخنا يكتبه غيرنا.■



محتويات العدد



■■ الغلاف:

- ومازال حريق الأقصى مستمراً ٣٠

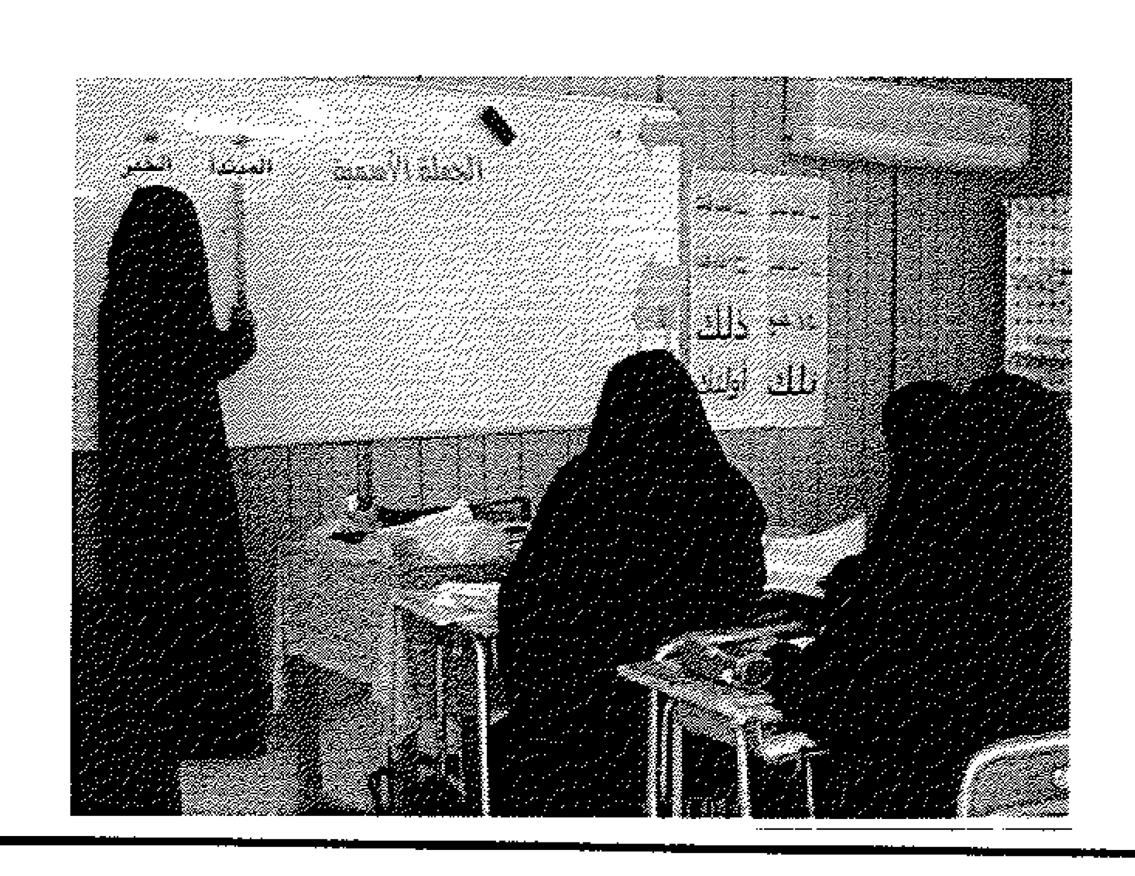
حوار

- حول معاناة الإمارات اقتصادياً في ثلاثينيات القرن الماضي
- حنفي جايل ١٢

تاريخ وآثار

- المعابد من خلال الآثار
د. امتثال النقيب ٢٠

- من نسيج التاريخ في سويتو
- حنفي جايل ٨٤



لغة وأدب

- حول مصير اللغة العربية
د. محمد أحمد عبد الهادي ٣٤

شخصيات

- القلصادي
أ.د. بركات محمد مراد ٤٤

دراسات وبحوث

- اللغة المهرية.. جذور تاريخية
- محمد السيد ٤٠
- تدبير الماء في المدن المغربية أوائل الفتح الإسلامي
- نجاة أحمد عروة ٦٤
- القيم العلمية والأخلاقية في الحضارة الإسلامية
أ.د. عبد الرحمن علي الحجي ٧٥

تراث

- الطيب والعطور في التراث العربي
أ. د. بركات محمد مراد ٤٨
- انطباعات الرحالة عن روسيا في التراث العربي
أ.د. خليل حسن الزركاني ٩١

■■ فيض المشاعر:

- النبطي الفصيح
- سالم الزمر ١٠٠
- روائع الشعر الفصيح
- أ.د محمد رضوان الداية ١٠٤

زوايا ثابتة

■ أول القرطاس — تراث — ٣
■ متابعات — ٦
■ مسكوكات (دينار اسماعيل السمين) — عبد الله جاسم المطيري — ٢٩
■ الأندلس رسوم وصور — أ.د. عبد الرحمن الحجي — ٦٣
■ أحداث صنعت تأريخاً (سنة البطاقة) — محمد السيد — ٨٠
■ مواقع ووقائع (الصالحية) — أ.د. محمد رضوان الداية — ١٠٦
■ من خزانة التاريخ — أ.د. عبد الرحمن الحجي — ١٠٩
■ صدى الأيام — محمد رجب السامرائي — ١١٠
■ إصدارات حديثة — محمد رجب السامرائي — ١١٢
■ سوالف بوراشد (زيد.. وبازيد) — خميس بن زعل الرميثي — ١١٤

تراث

مجلة شهرية ثقافية منوعة تصدر عن
نادي تراث الإمارات - العدد (٩٣) - السنة الثامنة
رجب- شعبان ١٤٢٧هـ - أغسطس ٢٠٠٦م

المراسلات:
نادي تراث الإمارات، ص.ب: ٢٧٧٦٥ أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٤٤٦٦١١٦
فاكس: ٤٤٣٠٨٨١ (٠٢)
بريد الكتروني
email: turathmag@yahoo.com

ثمن النسخة
الإمارات ٥ دراهم، قطر والسعودية ٥ ريالات
البحرين والكويت ٥٠٠ فلس، عُمان: ٥٠٠ بيسة
مصر: ٥ جنيهات، اليمن: ١٥٠ ريالاً
الأردن: دينار ونصف
الدول العربية دولار أمريكي واحد
أوروبا وأمريكا والدول الأجنبية ٢ دولار

مندوبو تراث:
- القاهرة: عبد العال الباقوري
محمول: ٠٠٢-٠١٠-١٦١٠٢٠٩
- الأردن: د. ثابت ملكاوي
محمول: ٠٠٩٦٢-٧٩-٥١١٨٨١٢
- اليمن: محمد السيد
محمول: ٠٠٩٦٧-٧-٣٦٦-٤٦٩٦

الاشتراك السنوي (درهم)

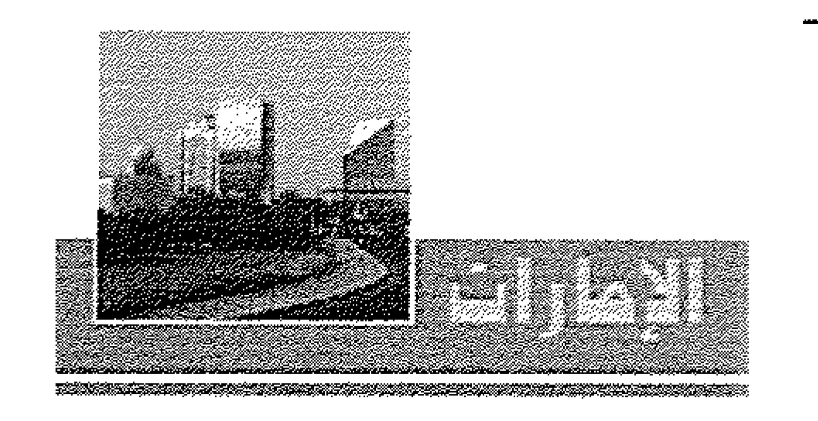
	محلياً	خليجياً	عربياً
أفراد	٨٥	٢٠٧	٢٧٩
مؤسسات	١٥٠	٢٦٧	٣٣٩

التجهيز الطباعي
قسم الإعلام - نادي تراث الإمارات

أهلاً بكم

ترحب مجلة «تراث» بمساهمات الكتاب والقراء والتي تتعلق بالتراث والتاريخ باعتبارهما الخط الأساسي للمجلة، موضحة أن المقالات التي يتم نشرها تعبّر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.. ونحن نرحب بالمقالات والمساهمات وفق المعايير التالية:

- أن تكون المقالات جديدة.. ومخصصة لمجلة تراث فقط.. ولم يسبق نشرها.. ومرفقة بصور حديثة وملونة للموضوع.
- أن تكون المساهمات مطبوعة على الحاسب الآلي أو الآلة الطابعة على وجه واحد من الورقة.. مذيلة بالمراجع التي تم استقاء البحث منها، مع تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.
- زاوية «خزانة الكتب» التي يتم فيها استعراض الكتب القديمة أو الحديثة هي من اختصاص هيئة التحرير فقط.. ونعتذر عن عدم قبول أي مساهمات في هذا المجال.
- التحقيقات والاستطلاعات واللقاءات مع كبار المفكرين والشخصيات هي من اختصاص هيئة التحرير، أو بطلب مباشر منها.
- المقالات التي يتم الاعتذار عن عدم نشرها ليس بالضرورة لعدم جودتها، وإنما قد تكون المجلة سبق لها أن نشرت موضوعاً أو عدة موضوعات حول الفكرة نفسها ولا ترغب في المزيد أو منعاً للتكرار.
- المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات أو المساهمات - التي لم تنشر - إلى أصحابها.
- قد يتأخر نشر بعض المساهمات نظراً لارتباطها بمناسبة معينة، أو لكثرة المساهمات التي تصل من السادة الكتّاب.
- المساهمات أو المكاتبات التي تنشر في زاوية «رسائلكم وصلت» لا تخصص لأصحابها مكافآت مالية.
- عند استلام المساهمة.. يتم إخطار الكاتب بوصولها موضحاً إن كانت تحت الدراسة أو الاعتذار عن عدم النشر، وفي حال النشر يتم إرسال نسخة من العدد المنشورة فيه للكاتب.
- ترجو المجلة من السادة الكتّاب أن يوضحوا في ورقة منفصلة اسم الكاتب ثلاثياً على الأقل، وأرقام الهواتف أو الفاكسات أو البريد الإلكتروني والعنوان البريدي الذي يمكن الاتصال به عن طريقه، ورقم حسابه في البنك الذي يتعامل معه حتى يمكن إرسال المكافآت المالية بطريقة أسرع وأكثر سهولة. وفق النظام المالي المعمول به في المجلة.



إدارة للمتاحف في الشارقة

أصدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة قراراً بإنشاء إدارة المتاحف في الشارقة على أن تكون لها شخصية اعتبارية وميزانية مستقلة وتتبع مكتب سمو الحاكم.

وتختص الإدارة برعاية شؤون المتاحف والعمل على حمايتها وتستهدف بوجه خاص توفير المناخ المناسب في المتاحف لتكون منبر إشعاع ثقافي وتشجيع السياحة الثقافية وإبراز الوجه السياحي والثقافي للإمارة بوجه عام والارتقاء بها لتكون مركز جذب ثقافي وسياحي على مستوى الدولة والحفاظ على التراث كموروث قومي من المتاحف الأثرية والعمل على حماية هويتها ودعم التعاون المشترك مع متاحف العالم وتوأمتها مع المتاحف ذات الشهرة العالمية وتنمية الدراسات والأبحاث العلمية والتقنية ووضع الوسائل المناسبة للمحافظة على المتاحف والتنسيق مع المؤسسات الأكاديمية والهيئات الأخرى ذات الصلة في الإمارة.■



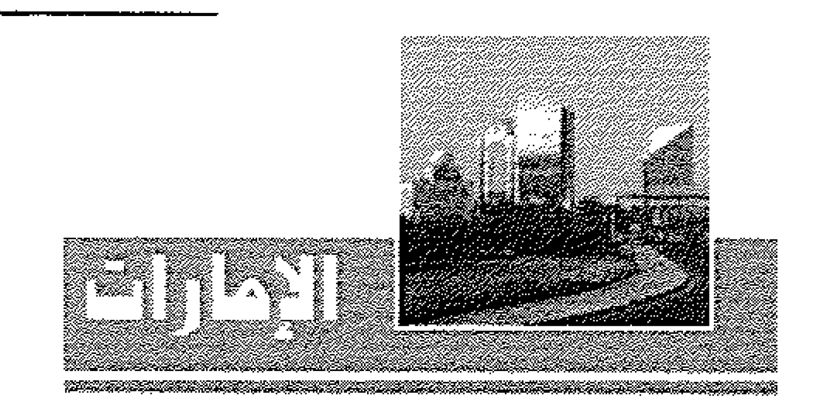
صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

منصور بن زايد يرعى المؤتمر الفلكي الأول

أشاد المهندس خلفان النعيمي رئيس جمعية الإمارات للفلك بالدعم والرعاية الكريمة لسمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان وزير شؤون الرئاسة لمؤتمر الإمارات الفلكي الأول بعنوان «تطبيقات الحسابات الفلكية» بالتعاون مع مركز الوثائق والبحوث والمشروع الإسلامي لرصد الأهلة والذي سيعقد خلال الفترة من ٦-٧ ديسمبر المقبل في أبوظبي

وقال: إن ذلك يمثل تشجيعاً وتحفيزاً كبيراً لجهود البحث العلمي، وأشار إلى أن المؤتمر يعد الأول من نوعه بالدولة، وشكر لمركز الوثائق والبحوث تعاونه المميز وما يمثله من خطوة في تنظيم هذا الحدث العالمي.

ومن جانبه تحدث المهندس محمد عودة رئيس المشروع الإسلامي لرصد الأهلة عن أهداف ومحاور المؤتمر وهي دراسة إنشاء مراصد فلكية في الدول العربية والإسلامية لدعم الأبحاث العلمية والدراسات الفلكية والمشاركة في تحري الأهلة والعوامل العلمية المحددة لموقع المرصد ومعداته، ورؤية الهلال وكيفية حسابها، وحساب مواقيت الصلاة والعوامل المؤثرة عليها وحساب اتجاه القبلة، ومناقشة التقاويم الهجرية الحالية واقتراح تقويم هجري يمكن اعتماده من قبل الدول الإسلامية، إحياء التراث الفلكي العربي الإسلامي وإسهامات العرب والمسلمين في علم الفلك.■



الإمارات عضواً في اللجنة الدولية لصون التراث

أكد معالي الشيخ سلطان بن طحنون آل نهيان رئيس هيئة أبوظبي للثقافة والتراث أن انتخاب دولة الإمارات العربية عضواً في اللجنة الدولية الحكومية لصون التراث الثقافي غير المادي لليونسكو، يعد إنجازاً كبيراً على المستوى الإقليمي والدولي، حيث أبرز مقدار التقدير الكبير الذي تحظى به الدولة في المحافل الدولية، ومدى الإعجاب بالجهود الرائدة التي تبذلها دولة الإمارات لحماية وصون تراثها الثقافي.

وشدد معاليه على أن صون التراث الثقافي المادي وغير المادي، هو من الأولويات التي تحرص عليها دولة الإمارات نظراً لما يمثله التراث من هوية إنسانية وحضارية للشعوب، وأضاف: إن اتفاقية اليونسكو لصون التراث غير المادي تشكل حافزاً لجميع الأمم والشعوب للبحث والتنقيب في مجال التراث غير المادي، والشفاهي خصوصاً.

وكانت دولة الإمارات العربية المتحدة شاركت في اجتماعات اللجنة التي عقدت الشهر الفائت في باريس بوفد برئاسة سعادة محمد خلف المزروعي مدير عام هيئة أبوظبي للثقافة والتراث. ■

هزاع بن سلطان.. وبطولتان جديدتان

أضاف سمو الشيخ هزاع بن سلطان بن زايد آل نهيان بطولتين جديدتين لرصيد بطولاته الدولية في سباقات القدرة، حيث فاز سموه بالبطولة الدولية الاسكندنافية المفتوحة لسباقات القدرة التي أقيمت في سويسرا لمسافة ١٦٠ كيلومتراً، كما أحرز سموه لقب بطولة كرويت الدولية للقدرة التي جرت منافساتها في ألمانيا، وذلك خلال شهر يوليو الفائت.

أجمل التهاني والتبريكات وإلى المزيد بإذن الله تعالى. ■



سمو الشيخ هزاع بن سلطان بن زايد آل نهيان

تواصل أعمال الملتقى الصيفي بجزيرة السمالية



تواصلت بنجاح، وبإقبال كبير من المشاركين أعمال الملتقى الصيفي الذي ينظمه نادي تراث الإمارات بجزيرة السمالية للعام الحالي ٢٠٠٦ حيث شهد الملتقى فعاليات جديدة منها تنظيم مهرجان المأكولات الشعبية في فرع الزعفرانة بمشاركة نحو ٢٥٠ طالباً، كما احتفل قسم الفروسية بالنادي بتخريج الفوج الخامس من طلاب فريق الفروسية وعددهم (٣٠ طالباً).

وقد شهد حفل التخرج مسابقات بين المتدربين في قفز الحواجز لفئتي الناشئين والشباب، ومسابقة لالتقاط الأوتاد من على ظهور الخيل ضمن زمن محدد، وعرضاً تقليدياً لـ «الركب الموسيقي» شارك فيه الفرسان بملابسهم الوطنية وعرضاً لتجليس الخيل وجلسة الأسد، بينما قدمت فرقة حربية فرع العين عرضاً رائعاً للفنون الشعبية.

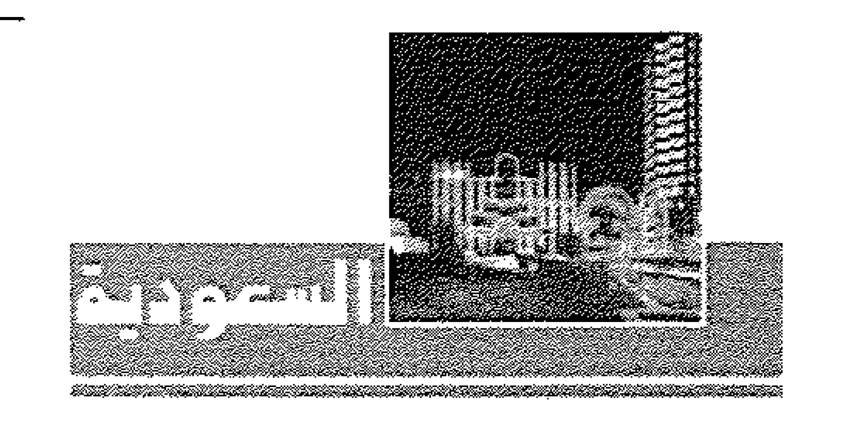
ومن جانب آخر وضمن فعاليات الملتقى نظم نادي تراث الإمارات بالتعاون مع اتحاد الإمارات للمبارزة، بطولة كأس السمالية المفتوحة لسيف المبارزة وذلك بالصالة المغلقة للأنشطة الرياضية التابعة للنادي وشارك فيها ٢٥ طالباً.

وواصل الفرع النسائي التابع للنادي مشاركته الفعالة في أنشطة وبرامج الملتقى الصيفي والتي تهدف إلى تعزيز القيم التراثية لدى الفتيات وربطهن بالعادات والتقاليد المميزة لمجتمع الإمارات، ويخصص يوم الأربعاء من كل أسبوع لمشاركة الفرع النسائي في الأنشطة العامة في جزيرة السماية وذلك طوال فترة الملتقى.■

بدء التسجيل للدورة الرابعة لجائزة البردة

أعلنت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع بدء التسجيل للدورة الرابعة لجائزة البردة والذي يستمر حتى الثالث والعشرين من شهر نوفمبر المقبل للجميع داخل وخارج دولة الإمارات. وتنقسم جائزة البردة إلى ثلاثة حقول تشمل المسابقة الدولية للشعر وتتضمن قصيدة الشعر الفصيح على أن يكون موضوع القصيدة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة وأن تكون القصيدة على نمط الشعر العربي التقليدي العمودي والالتزام باللغة العربية الفصحى.

وقصيدة الشعر النبطي يكون موضوعها مولد الرسول صلى الله عليه وسلم والالتزام بالأسس الفنية للشعر النبطي وألا يتجاوز عدد أبيات القصيدة ٥٠ بيتاً وألا يقل عن ١٥ بيتاً، والمسابقة الثانية الدولية للخط العربي وتنقسم إلى قسمين فئة الأسلوب التقليدي والأساليب الحديثة، والمشاركة مفتوحة للخطاطين من داخل الدولة وخارجها والمسابقة الثالثة المسابقة المحلية لتصميم الملصقات وهي مفتوحة فقط للطلبة والطالبات من جميع الكليات والجامعات بالدولة.■

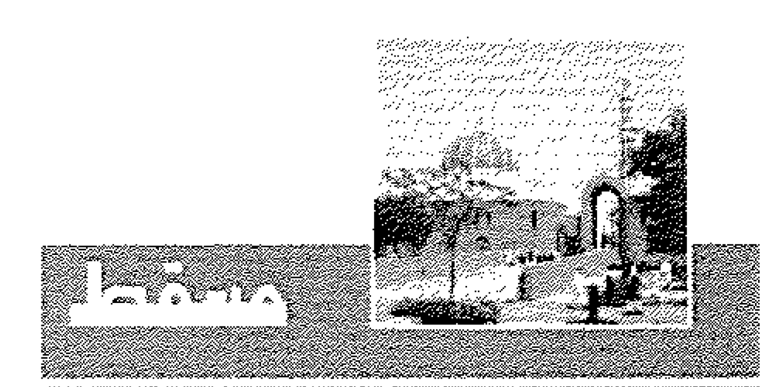


إعلان جوائز دورة "شوقي لامارتين" للبابطين

أعلنت مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري عن أسماء الفائزين بمسابقتها الشعرية والنقدية للدورة العاشرة، دورة «شوقي لامارتين».

وقد منحت جائزة نقد الشعر مناصفة بين الناقدين: الدكتور بسام قطوس والدكتور محمد ابراهيم حور، بينما ذهبت جائزة أفضل ديوان إلى الشاعر رضا رجب عن ديوانه «عناب» في حين أن جائزة أفضل قصيدة حصل عليها الشاعر جميل عبد الرحمن عن قصيدته «رسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وتقدم إلى مسابقة الدورة العاشرة أكثر من ٣٤٠ متسابقاً تنافسوا للحصول على جائزة الإبداع في مجال نقد الشعر وقدرها ٤٠ ألف دولار، بينما تبلغ قيمة جائزة أفضل ديوان ٢٠ ألف دولار، وتبلغ قيمة جائزة أفضل قصيدة ١٠ آلاف دولار.■



ندوة عن المخطوطات ضمن فعاليات «المنتدى الأدبي»

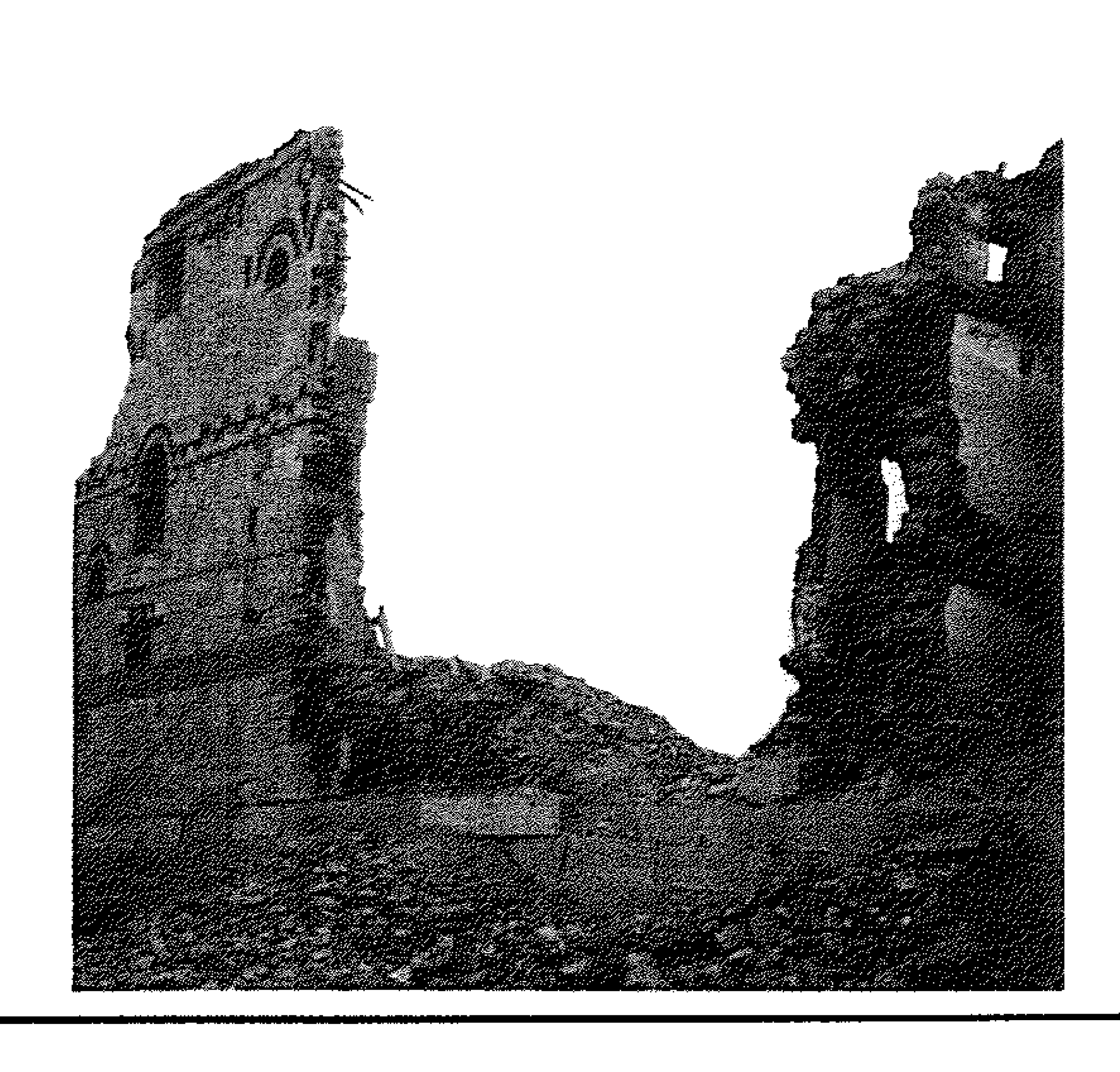
في إطار فعاليات «مسقط عاصمة للثقافة العربية» نظم المنتدى الأدبي ندوة فكرية حول المخطوطات العمانية، نوقشت فيها ثلاث ورقات عمل، الأولى منها عن أدوات كتابة المخطوط في البيئة العمانية، وقدمها كل من الدكتور محمد الرابحي، ونبهان الحراصي، وحملت الورقة الثانية عنوان «الطرق المستخدمة في كتابة المخطوط العربي وزخرفته وتجليده وقدمها زهران الحجي من جامعة السلطان قابوس، فيما كانت الورقة الثالثة عن الثقافة الشفهية العربية ودورها مع التدوين والكتابة في حفظ التراث الثقافي وقدمها راشد الشيادي مدير المنتدى الأدبي.■

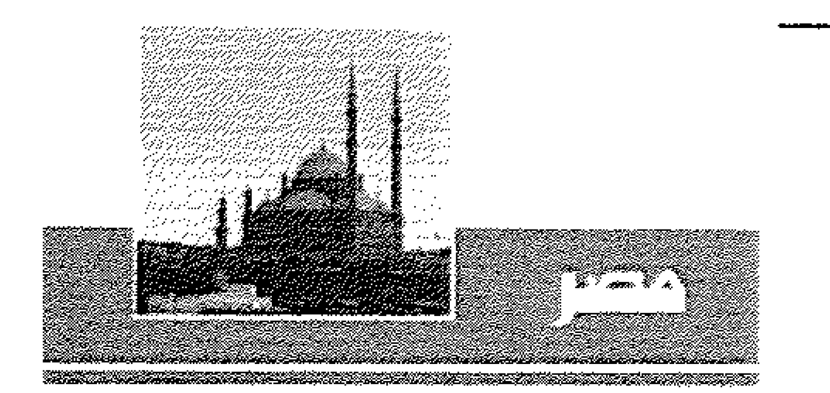
اليمن

بعثة آثارية الأمريكية البريطانية في ذمار

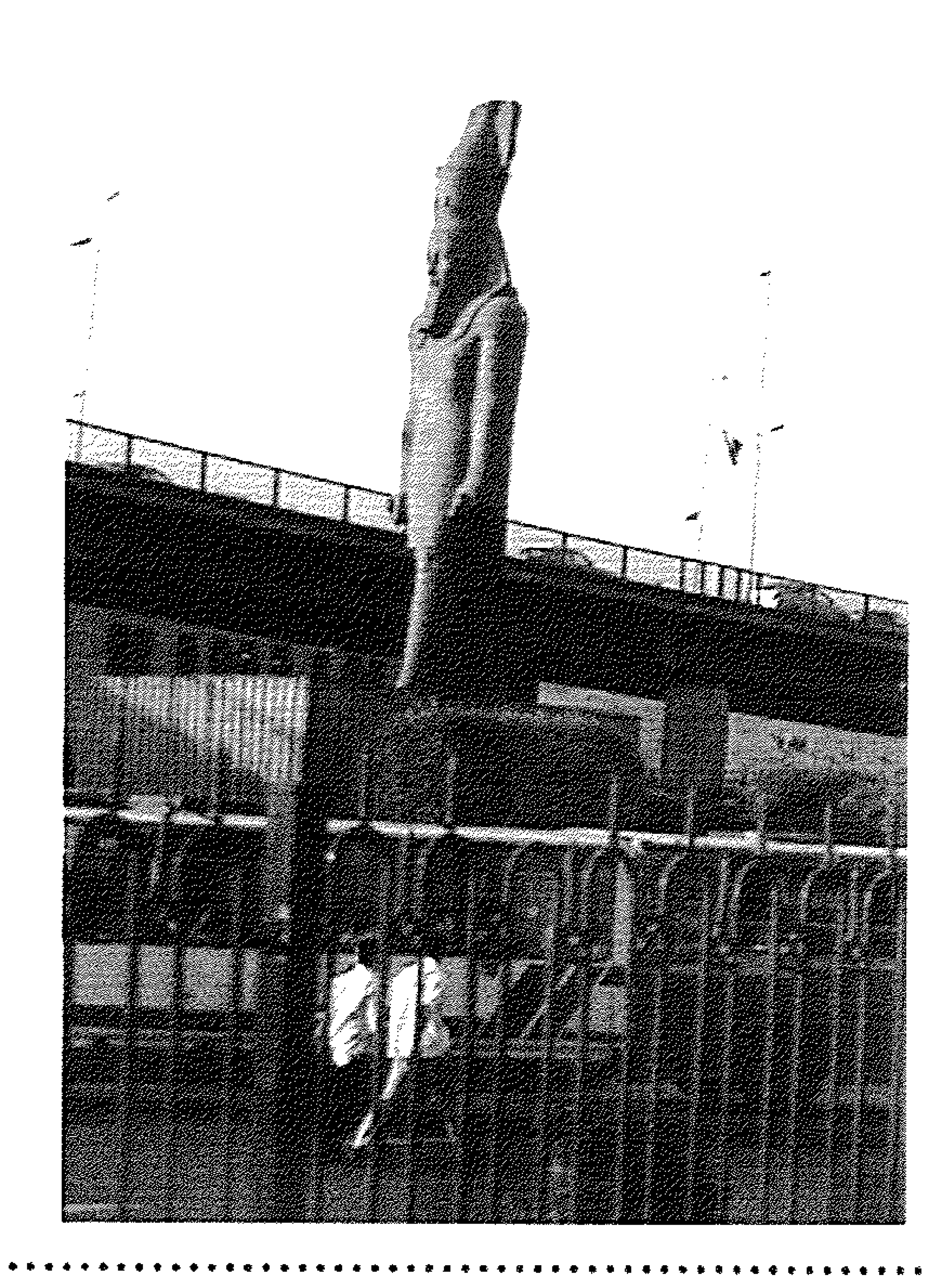
بدأت مطلع الشهر الماضي بمحافظة ذمار اليمنية أعمال الموسم الأول للبعثة الآثارية الأمريكية البريطانية التابعة لجامعة أركنساس الأمريكية وجامعة دو هام البريطانية الذي تنفذه البعثة بالتعاون مع الهيئة العامة للآثار والمتاحف اليمنية.

وسوف تعمل البعثة لمدة خمسة مواسم حيث يشتمل الموسم الأول على عملية المسح الميداني للمنطقة الآثرية في «مصنعة مارية».. ووضع خطة تفصيلية لعدد من المواقع المختارة في المنطقة من العصرين الحجري والحديدي، كذلك وضع مقاطع استراتيجية لقطع زراعية في منطقة وادي الشلالة وتتبع القنوات الزراعية في الوادي.■





بصمة ديناميكية لتأمين موكب «رمسيس الثاني»



قرر المجلس الأعلى للآثار في مصر إجراء «بصمة ديناميكية» على كوبري المنيب الذي سيمر عليه تمثال رمسيس الثاني المقرر نقله ٢٥ أغسطس الحالي من موقعه الحالي المعروف باسمه إلى أحد المخازن القريبة من المتحف الكبير لحين الانتهاء من إنشائه ووضع التمثال في مدخله بعد خمس سنوات، وذلك لتحديد مدى تحمل الكوبري لوزن التمثال الذي يصل إلى ١٤٠ طناً بجانب قاعدته.

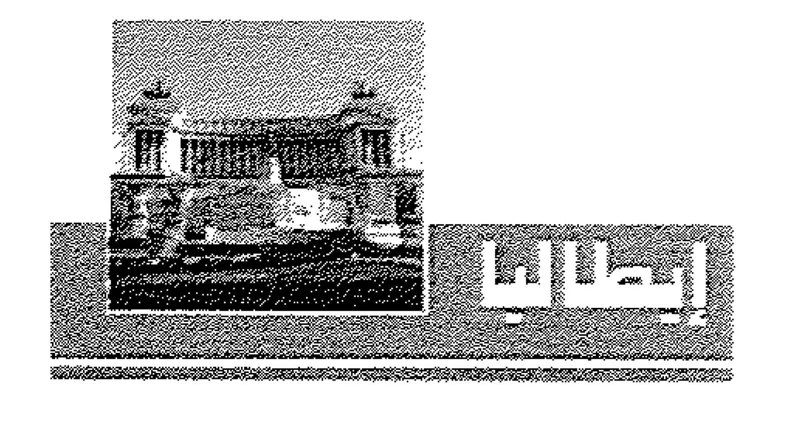
وتشمل بروفة النقل ثلاثة اختبارات رئيسية لتحديد الأحمال على الطريق الذي سيسلكه التمثال ومدى تأثيره على خطوط المياه والكهرباء والثاني تحديد كيفية تركيب ووضع التمثال على عربة النقل التي ستضم مقطورتين وكيفية الحركة وأسلوب تنزيل التمثال، فيما سيحدد الاختبار الأخير تحديد علاقة التمثال بالقميص الحديدي الذي سيوضع فيه التمثال لحمايته أثناء النقل.■

..ونقوش يونانية في الاسكندرية

ومن جهة أخري أعلن الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار المصرية زاهي حواس أن بعثة مصرية للتنقيب عن الآثار اكتشفت قطعة أثرية تحمل نقوشاً يونانية تعود لعصر الامبراطور ماركوس اريليوس (١٦١-١٨٠ ميلادية) طولها ٥٠ سم وعرضها ٣٦ سم وربما تكون قطعة من مذبح مقدس كان يستخدم في المعبد الموجود في المنطقة.

تتضمن هذه النقوش ستة أسطر مكتوبة باللغة اليونانية في العام التاسع لحكم الامبراطور ويمجد النقش الإله زيوس هليوس الاعظم والإله سرابيس وغيرهما من الألهة.

يشار إلى أن القطعة التي عثر عليها تقع في منطقة عمود السواري بالاسكندرية الذي يرتفع ٢٧ متراً وهو مشيد من الجرانيت الوردي في عهد الامبراطور دقلديانوس عام ٢٨٤ ميلادية.■



استعادة آثار مسروقة

وافقت إدارة متحف بول جيتي في لوس انجلوس بالولايات المتحدة الأمريكية على إعادة بعض الآثار الفنية التي يملكها والتي سرقت من إيطاليا سابقاً وتضم مجموعة من الأواني الفضية التي تعود إلى العهد الإغريقي وتمثالاً من البرونز من القرن الرابع الميلادي، كما استعادت ايطاليا مزهرية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد في وقت سابق من هذا العام.■

المؤرخ الكبير الدكتور جمال زكريا قاسم:

الإمارات عانت اقتصادياً في ثلاثينيات القرن الماضي

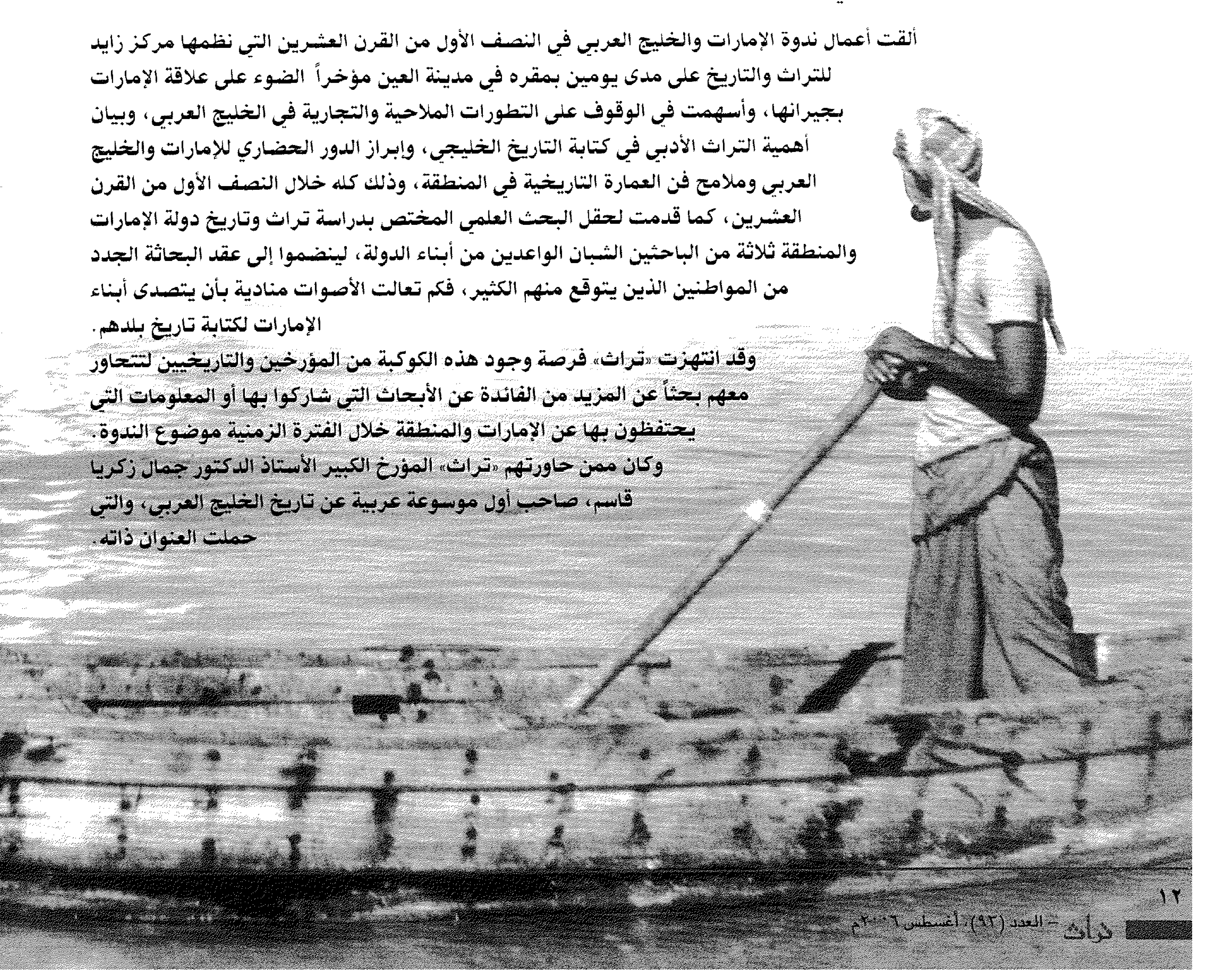
وبريطانيا لم تقدم شيئاً رغم الهيمنة الكاملة عليها

■ حنفي جايل:

ألقت أعمال ندوة الإمارات والخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين التي نظمها مركز زايد للتراث والتاريخ على مدى يومين بمقره في مدينة العين مؤخراً الضوء على علاقة الإمارات بجيرانها، وأسهمت في الوقوف على التطورات الملاحية والتجارية في الخليج العربي، وبيان أهمية التراث الأدبي في كتابة التاريخ الخليجي، وإبراز الدور الحضاري للإمارات والخليج العربي وملامح فن العمارة التاريخية في المنطقة، وذلك كله خلال النصف الأول من القرن العشرين، كما قدمت لحقل البحث العلمي المختص بدراسة تراث وتاريخ دولة الإمارات والمنطقة ثلاثة من الباحثين الشبان الواعدين من أبناء الدولة، لينضموا إلى عقد البحاثة الجدد من المواطنين الذين يتوقع منهم الكثير، فكم تعالت الأصوات منادية بأن يتصدى أبناء الإمارات لكتابة تاريخ بلدهم.

وقد انتهزت «تراث» فرصة وجود هذه الكوكبة من المؤرخين والتاريخيين لتتحاور معهم بحثاً عن المزيد من الفائدة عن الأبحاث التي شاركوا بها أو المعلومات التي يحتفظون بها عن الإمارات والمنطقة خلال الفترة الزمنية موضوع الندوة.

وكان ممن حاورتهم «تراث» المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، صاحب أول موسوعة عربية عن تاريخ الخليج العربي، والتي حملت العنوان ذاته.



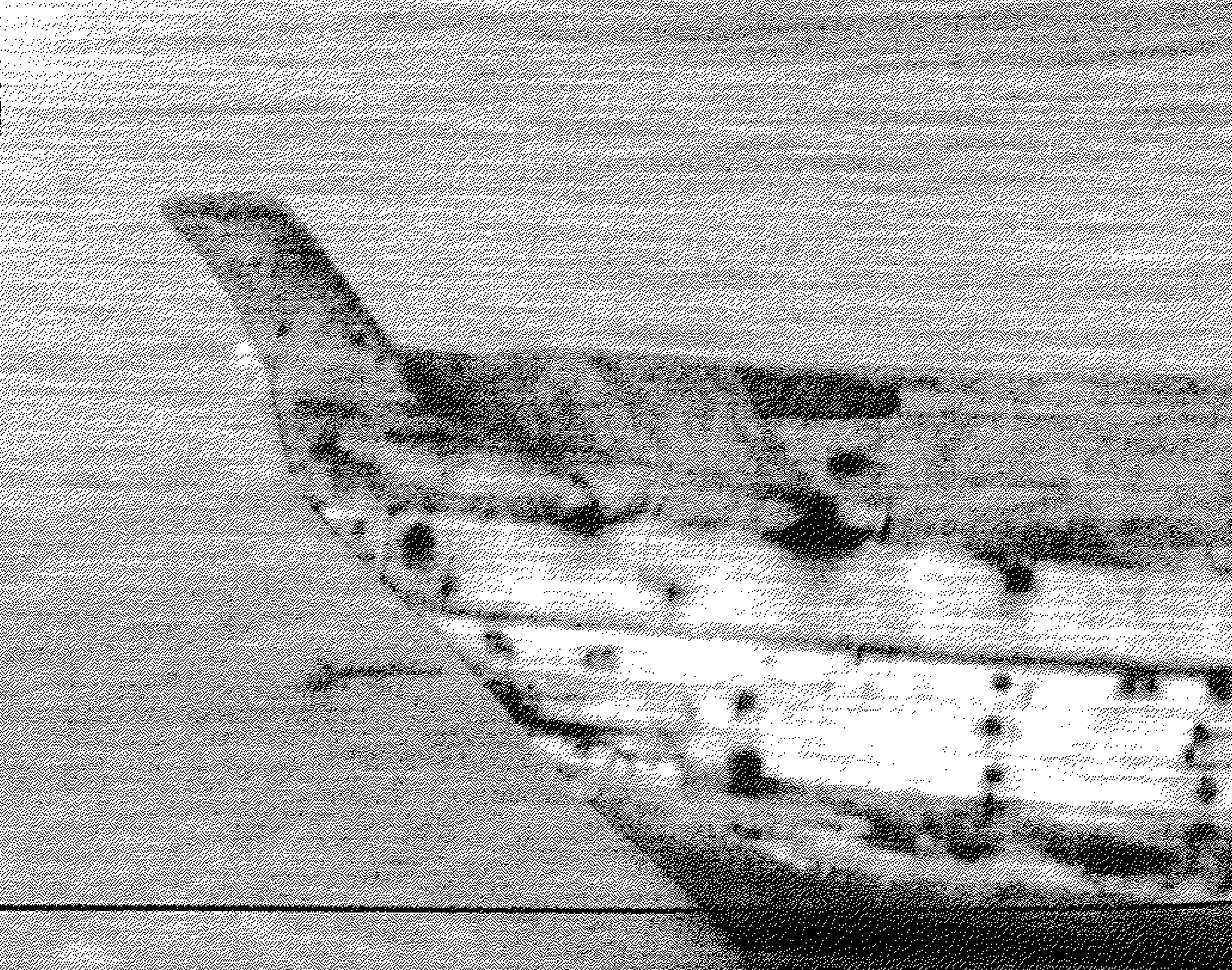
وقد بدأ الحوار معه بالسؤال عن المؤثرات الاقتصادية في الإمارات بصفة عامة خلال النصف الأول من القرن العشرين، فقال:

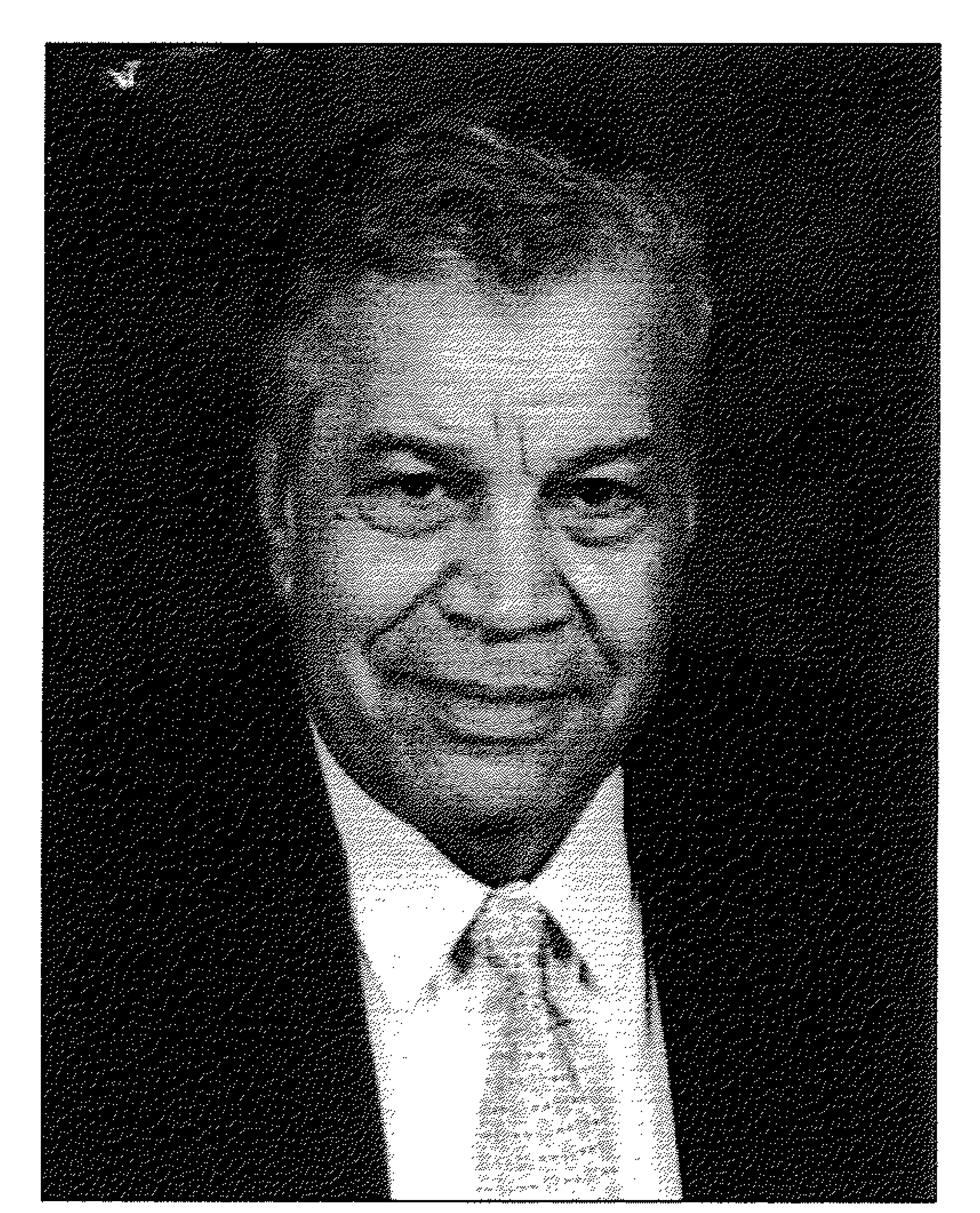
- كانت الإمارات العربية تفتقر إلى الأسس الحديثة للتنمية العصرية- وعلى الرغم من وجود بعض الشرائح الاجتماعية من كبار تجار اللؤلؤ، وما كانت تشكله تلك الشرائح من قوة اقتصادية يعتد بها- إلا أنها لم تسهم إسهاما إيجابيا في تطوير الإمارات التي ظلت تفتقر إلى البنية التحتية باستثناء إمارة دبي التي كانت تتمتع بمركز تجاري هام بفضل مينائها واستقبالها لخطوط الملاحة الهندية منذ عام ١٩٠٣م وكذلك إمارة أبوظبي التي تمتعت بمستويات اقتصادية لا بأس بها نتيجة امتلاكها لأكبر أسطول من الغوص وغناها بمغاصات اللؤلؤ التي كانت تدر موارد مالية لا بأس بها من الضرائب فضلاً عن امتلاكها لأكبر أسطول للغوص، ومن ثم كانت تجارة اللؤلؤ إلى جانب الزراعة هي مصادر الدخل الرئيسية في أبوظبي وكان الأهالي يعتمدون على مواردهم المحدودة لشراء ضرورات حياتهم. أما الإمارات الشمالية فقال إنها قد عانت من فقر بالغ ومستويات معيشية متدنية. وكان لإحكام بريطانيا سيطرتها على الإمارات وإسدال الستار الحديدي عليها أثرهما في عزل الإمارات اقتصاديا وثقافيا وحضاريا من أجل الرغبة في إطالة بقائها واستمرار سيطرتها إلى أطول فترة ممكنة.

ملامح السياسة البريطانية في الإمارات

■ لو تفضلتم بتفصيل بسيط حول ملامح السياسة البريطانية في الإمارات خلال تلك الفترة؟

- تتضح بجلاء ملامح السياسة البريطانية في





د. جمال زكريا قاسم

معاملتها للإمارات في المعاهدات الحصرية التي ألزمت فيها الحكام في عام ١٨٩٢ بعدم الدخول في أية اتفاقيات وعدم التراسل مع أية دولة أخرى خلاف بريطانيا فضلا عن عدم استقبال مبعوثين من دول أجنبية، وكذلك عدم التصرف في أي جزء من أراضيهم تنازلاً أو بيعاً أو رهناً بغير إذن الحكومة البريطانية. كما بادرت الحكومة البريطانية بعقد سلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية مع حكام الإمارات مع ظهور الاحتمالات النفطية في بداية عقد العشرينيات وكانت تلك الاتفاقيات تحظر على الحكام منح أية امتيازات للبحث والتنقيب عن المعادن إلا لمن توافق عليه الحكومة البريطانية، واستنادا إلى تلك الاتفاقيات والمعاهدات غير المتكافئة تم لبريطانيا إحكام سيطرتها السياسية والاقتصادية.

■ لماذا ركزتم في بحثكم إلى الندوة على عقد الثلاثينيات عند الحديث عن الأوضاع الاقتصادية في الإمارات؟

- لأن عقد الثلاثينيات من القرن العشرين كان -في رأيي- من أشد الفترات التي عانت منها الإمارات نتيجة انخفاض مستويات المعيشة وفقدان الرعاية الصحية وغياب المؤسسات التعليمية والاجتماعية مما طبع الإمارات جميعاً في تلك الفترة بطابع التخلف والافتقار إلى أبسط متطلبات الحياة الضرورية. وقد

أثرت الظروف الاقتصادية التي شهدها العالم في تلك الفترة على الوضع الاقتصادي في الإمارات وهناك عاملان رئيسيان كانا من أسباب ذلك الضيق الاقتصادي الذي عانت منه الإمارات وارتبط هذان العاملان بالأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٩م وامتدت آثارها إلى منطقة الخليج كما حدث في تلك الآونة أيضا انهيار صناعة الغوص وبالتالي فقدان تجارة اللؤلؤ الطبيعي أهميتها نتيجة نجاح اليابان في استنبات اللؤلؤ الصناعي ومنافسته للؤلؤ الطبيعي. وقد أثر هذان العاملان تأثيراً كبيراً على كبار التجار الذين عجزوا عن تسديد ديونهم للتجار البانيان الذين رفضوا من جانبهم تمويل سفن الغوص مما أدى إلى زيادة حدة الأزمة. كما أسهمت ظروف البيئة الطبيعية في زيادة معاناة الإمارات وأبنائها نتيجة ندرة المياه وقلة الزراعة سواء من ناحية عدم توفر المياه الصالحة أو من حيث قلة الأراضي الممكن زراعتها أو تهيئتها للزراعة والتي لم تتجاوز أكثر من أربعة في المائة من مساحتها الكلية وتركزت أغلبيتها في رأس الخيمة وفي منطقة العين في إمارة أبو ظبي. ولم يتعلق هذا فقط بالموارد الزراعية بل أيضاً في الثروات الطبيعية الأخرى التي لم تبذل أية محاولات للكشف عنها أو استغلالها نتيجة نقص القدرات والكفاءات البشرية.

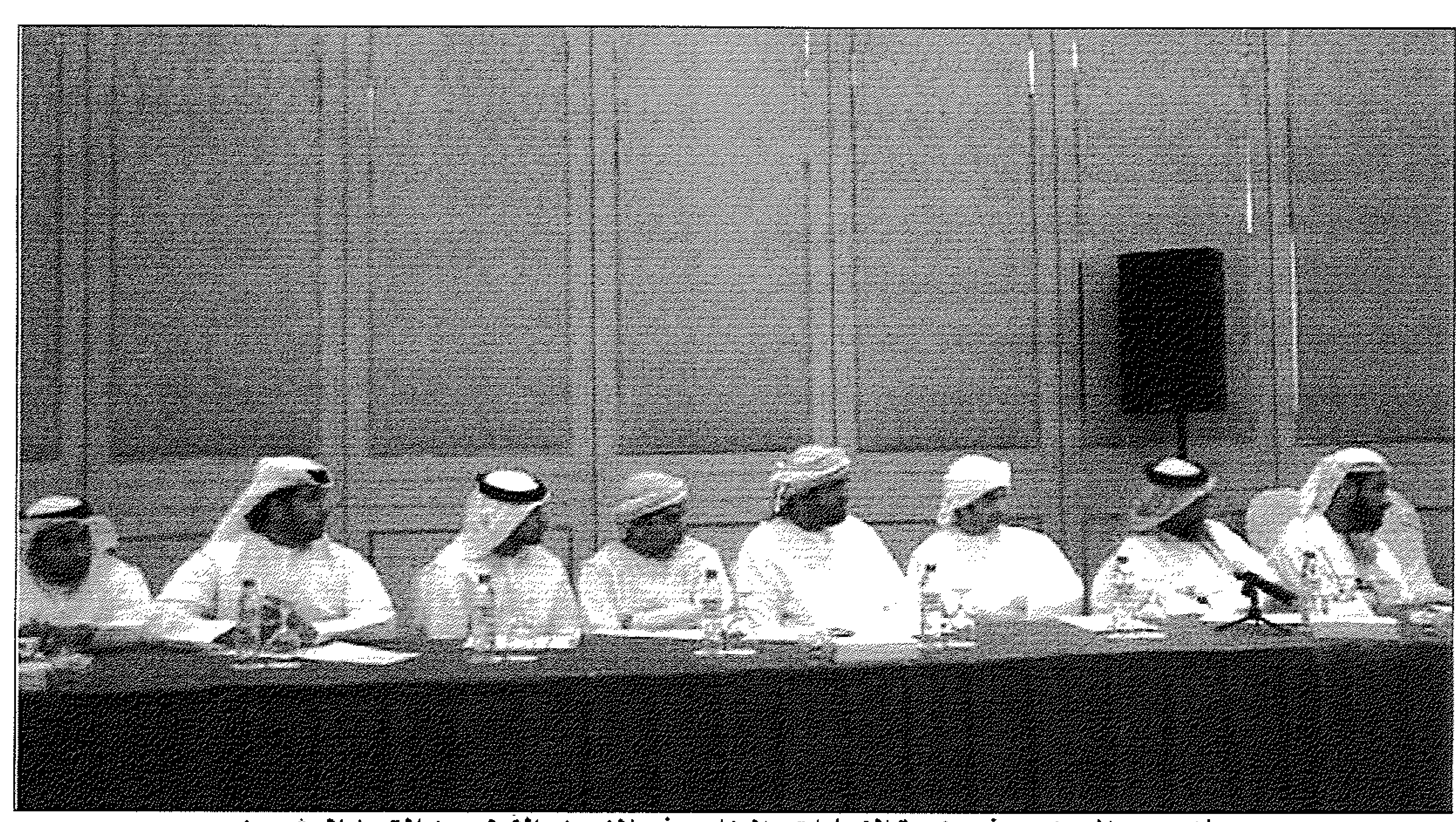
■ زادت الأهمية الاستراتيجية للإمارات بعد افتتاح الحكومة البريطانية خط الطيران عام ١٩٣٢ وحصولها على امتيازات التنقيب النفطية ■

■ وما هي أهم النتائج التي ترتبت على تلك الأزمة الاقتصادية؟

– كان من أهم النتائج التي ترتبت على الأزمة الاقتصادية أن فقد التجار مكانتهم لدى الحكام وتوقفت الكثير من المشروعات التي كانوا يقدمون الدعم المالي لها، فمن المعروف أن الكثيرين منهم وخاصة في إمارة الشارقة قد حرصوا على إنعاش النواحي الثقافية والتعليمية وذلك بإسهامهم في تمويل وإنشاء بعض المدارس غير النظامية أو في دعم طلاب العلم للسفر في بعثات دراسية خاصة إلى الجامع الأزهر. كما أدى الكساد العالمي وانهيار تجارة اللؤلؤ فضلا عما ترتب على اندلاع الحرب العالمية الثانية من آثار اقتصادية سيئة، كل ذلك أدى إلى توقف الكثير من المشروعات الحيوية رغم محدوديتها سواء تلك التي كان يقوم بها التجار أو الحكام.

■ وكيف انعكس ذلك على السياسة البريطانية في الإمارات؟

– بينما كانت الأوضاع الاقتصادية في الإمارات تسير على هذا الوضع السيئ أخذت الهيمنة البريطانية تتضح بجلاء وارتبطت تلك الهيمنة بازدياد الأهمية الدولية لإمارات الساحل نتيجة لبدء ظهور الاحتمالات النفطية، فضلا عن رغبة بريطانيا في تأمين شبكة خطوطها الجوية إلى الشرق الأقصى مستفيدة من موقع الإمارات الاستراتيجي لإقامة المطارات والاستراحات اللازمة لخطوطها الجوية المدنية والعسكرية خاصة على أثر انهيار مركزها في الساحل الإيراني نتيجة تدهور العلاقات بينها وبين رضا شاه بهلوي ومن ثم فشل شركة الخطوط الجوية البريطانية المحدودة في الحصول على تراخيص بالطيران فوق السواحل الإيرانية بعد أن وضعت الحكومة الإيرانية كثيراً من القيود مما اضطر كلا من شركة الخطوط الجوية ووزارة الطيران البريطانية إلى التركيز على الساحل العربي من الخليج كبديل عن نظيره الإيراني وإنشاء مطارات للهبوط في كل من أبوظبي ودبي والشارقة ورأس الخيمة وغيرها.



جانب من الحضور في ندوة الإمارات والخليج في النصف الأول من القرن العشرين

ازدياد الأهمية الاستراتيجية للإمارات

ويتابع الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم قائلاً:

الحقيقة إن خط الطيران الذي افتتحته الحكومة البريطانية في ساحل الإمارات في عام ١٩٣٢م إلى جانب حصولها على الامتيازات النفطية ترتب عليهما ازدياد الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للإمارات العربية؛ إذ أن سلامة الطائرات وضمان تزويدها بالوقود أصبحا أمرين هامين في السياسة البريطانية إزاء تعاملها مع منطقة الخليج بصفة عامة والإمارات العربية بصفة خاصة، وهو اتجاه جديد وضح بجلاء في فترة ما بين الحربين العالميتين وتمثل في تشديد بريطانيا قبضتها على الإمارات، وبدا ذلك في التنظيمات الإدارية التي أدخلتها في ساحل الإمارات في عام ١٩٣٧م حين قررت تعيين ضابط بريطاني إلى جانب الوكيل المحلي ولم تلبث أن أقدمت على إلغاء الوكلاء المحليين بحكم عدم صلاحيتهم وانغماسهم في المشكلات الداخلية ومن ثم أصبح الضابط السياسي البريطاني في مركز إقامته في الشارقة هو الممثل الوحيد للمصالح البريطانية في الإمارات العربية وحدث ذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

موقف حكام وأبناء الإمارات

■ **وماذا عن موقف الحكام وأبناء الإمارات من تلك التطورات؟**

- نعم .. يجب أن نسجل أن حكام الإمارات كانوا مدركين تمام الإدراك المزايا والمنافع التجارية من وراء منحهم بريطانيا لامتيازات التنقيب عن النفط، فضلا عن الحصول على مقابل مادي وتوفير دخول ثابتة لهم نظير موافقتهم على إنشاء المطارات والاستراحات في أراضيهم وخاصة في مرحلة كانت فيها الإمارات بل ومنطقة الخليج بأسرها تعاني من صعوبات اقتصادية، إلا أن كثيرا من شيوخ الإمارات وأبنائها أبدوا معارضة شديدة في منحهم لتلك الامتيازات. ومثلت تلك المعارضة صورة من صور المقاومة الوطنية ضد محاولات الهيمنة البريطانية وتصاعد النفوذ البريطاني في المنطقة. وفي الوقت الذي أبدى فيه كل من الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة والشيخ سعيد المكتوم حاكم دبي استعدادهما لمنح تسهيلات لإقامة قواعد جوية في أراضيهم، قامت معارضة محلية قوية في كلتا الإمارتين، كما كانت معارضة الشيخ شخبوط بن سلطان حاكم أبوظبي هي المعارضة الأكثر قوة حيث وقف موقفاً متصلباً تجاه منح أية تسهيلات لبريطانيا التي كانت ترغب في إنشاء مطار لهبوط طائراتها في جزيرة صير بني ياس بغية استخدامه بمثابة قاعدة للتزود بالوقود في حالة الوقوف الاضطراري. وحين وقع الاختيار على خور رأس الخيمة باعتباره أكثر الأماكن الملائمة لرسو حاملات الطائرات وإقامة

مركز لتخزين الوقود رفض الشيخ سلطان بن سالم حاكم رأس الخيمة وقتها بصورة قاطعة ما قدمته له الحكومة البريطانية من عروض مالية وأبدى تحفظه على مناقشة مثل تلك العروض بسبب المعارضة القوية التي سوف يلقاها من جانب رعاياه وشاركه في ذلك حاكم عجمان.

■ بالتأكيد لم يعجب ذلك بريطانيا وكان لها رد فعل معاكس، فما هو؟

- بالضبط.. فإزاء تصاعد المعارضة من قبل بعض الحكام ورعاياهم لجأت بريطانيا إلى أساليب الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى، وتمثلت أساليب الترغيب في استغلالها تدهور الأوضاع الاقتصادية في الإمارات واعتماد مبلغ ثلاثة آلاف جنيه لكل حاكم لتضمن رضاهم ولوقف معارضتهم، ومن أساليب التهديد التلويح باتخاذ إجراءات عسكرية ضد الحكام المناوئين أو تعريضهم لعقوبات اقتصادية متمثلة في منع سفن الغوص التابعة لهم أو التابعة لرعاياهم من الذهاب إلى مغاصات اللؤلؤ. وقد أسفرت تلك الأساليب الترغيبية أو التهديدية في النهاية عن نجاح بريطانيا في إنشاء ما كانت تتطلع إليه من بناء المطارات والاستراحات على ساحل الإمارات. وليس من شك أيضا في أن الأوضاع الاقتصادية المتأزمة قد اضطرت الشيوخ إلى الموافقة على إنشاء محطات جوية في أراضيهم على الرغم مما أظهره الكثيرون منهم من معارضة. ونظرا لما سبق أن أبداه حاكم الشارقة من تجاوب فقد أصبحت الشارقة هي الإمارة التي احتضنت القواعد الجوية البريطانية مما أعطاها ثقلا استراتيجيا وأهمية اقتصادية ومن ثم كانت إمارة دبي تحاول من جانبها وقف توقيع حاكم الشارقة لاتفاقية الطيران حيث كان التجار في دبي يخشون من انتقال حركة السفن من دبي إلى الشارقة غير أن الاتفاقية لم تلبث أن وقعت مع شركة الخطوط الجوية البريطانية في عام ١٩٣٢ ونصت على أن يتلقى حاكم الشارقة ثمانمائة روبية شهريا ابتداء من يوم هبوط أول طائرة في مطار الشارقة إضافة إلى ثلاثمائة روبية شهريا مقابل الاستراحة وخمس روبيات عن كل طائرة تهبط في أرض المطار على أن تعفى من أداء تلك الرسوم الطائرات التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني.

■ وهل توقف الأمر عند هذا الحد أم تتابعت الأحداث؟

- بل تتابعت الأحداث وتطورت الأمور على أثر توقيع تلك الاتفاقية، فتم افتتاح الخط الجوي البريطاني على ساحل الإمارات وهبطت أول طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية في طريقها إلى الهند. غير أنه لم تكد تمضي أكثر من أربع سنوات حتى تعرضت إمارة الشارقة إلى عوامل نالت من وحدتها حينما رأت الدوائر البريطانية المعنية ضرورة وجود ممر للهبوط في حالة الطوارئ ومن ثم وقع الاختيار على منطقة كلباء الواقعة على خليج عمان وعلى الرغم من تبعيتها للشارقة إلا أنه تم توقيع اتفاقية مع شيخها في أغسطس ١٩٣٦م مما أعطى كلباء استقلالاً عن الشارقة إلى أن أعيد دمجها في إمارة الشارقة من جديد في عام ١٩٥٢. وعلى الرغم من الآثار السلبية التي ترتبت على إنشاء المطارات والقواعد الجوية في الإمارات العربية إلا أن حصول الحكام على عوائد مالية مقابل بدل الإيجار لجزء من أراضيهم كان متنفساً للإمارات للتخلص بعض الشيء من الأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانت تمر بها ولم يلبث أن تدعم الموقف المالي للشيوخ على أثر موافقتهم على منح امتيازات للتنقيب عن النفط في الأراضي التابعة لهم حيث بدأت عمليات التفاوض على منح الامتيازات النفطية منذ عام ١٩٢٢م بعد أن نجح المقيم السياسي في الخليج في الحصول بين شهري

■■

شيوخ كثيرون من الإمارات وأبنائها عارضوا بشدة منح بريطانيا امتيازات التنقيب عن النفط

■■

فبراير ومايو من ذلك العام على تعهدات من الحكام تقضي بأنه إذا ما ظهر النفط في أراضيهم فإنهم لن يمنحوا امتيازات التنقيب أو الاستغلال لأي أجنبي عدا ما توافق عليه الحكومة البريطانية، مع الإشارة إلى أن الامتيازات النفطية لم يتم منحها إلا في منتصف الثلاثينيات وعلى وجه التحديد في أواخر عام ١٩٣٥م ومن ثم اعتبرت الإمارات آخر المناطق التي شهدت التنافس بين الشركات البريطانية والأمريكية في الخليج. وقد انتهت تلك المفاوضات بحصول شركة بترول الساحل -وهي إحدى الشركات المتفرعة عن شركة نفط العراق- على جميع تلك الامتيازات. ومن الملاحظ أن نجاح الشركات الأمريكية في الحصول على الامتياز الكامل لبترول البحرين والأحساء ونجاحها في مناصفة بترول الكويت مع الشركات البريطانية كان له رد فعل قوي لدى الدوائر البريطانية التي حرصت على الانفراد بالامتيازات الخاصة بمنطقة الإمارات وانتهجت لذلك سياسة رسمية إيجابية ضمنت لها الاستحواذ الكامل عليها. وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت التفاوض مع حكام الإمارات إلا أن عام ١٩٣٧م شهد التوقيع على مجموعة من الاتفاقيات وكانت أولى تلك الاتفاقيات مع إمارة دبي حيث منحت شركة بترول الساحل امتيازاً للبحث والتنقيب عن النفط لمدة خمسة وسبعين عاماً وفي مقابل ذلك منح الحاكم ستين ألف روبية مع التزام الشركة بدفع مائتي ألف روبية إذا ما تم العثور على النفط بكميات تجارية ونصت الاتفاقية الخاصة بعقد الامتياز على أن يكون سعر طن البترول الخام ثلاث روبيات وروبيتين لكل ألف متر مكعب من الغاز الطبيعي. ورغم أن الإيرادات النفطية لم تكن كبيرة في بدايتها إلا أنها كانت إرهاصا لفترة ازدهار مقبلة حدثت بعد ما يقرب من خمسة وعشرين عاما.

وماذا عن بقية الإمارات؟

على العكس من السهولة التي تم بها توقيع الاتفاقية مع حاكم دبي إلا أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة للشيوخ الآخرين، خاصة الشيخ شخبوط بن سلطان حاكم أبوظبي الذي أصر على أن تكون الاتفاقية مطابقة للاتفاقية التي وقعها الملك عبد العزيز بن سعود مع شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا في عام ١٩٣٣ غير أن الصعوبات المالية التي واجهتها شركة بترول الساحل لم تلبث أن ذُللت حيث تم خلال عامي ١٩٣٧- ١٩٣٨ توقيع اتفاقيات النفط مع حكام الإمارات العربية جميعهم وكان آخر الشيوخ الذين وقعوا على امتيازات النفط في إماراتهم شيخ أم القيوين وذلك في عام ١٩٤٥.

الدرعي يقدم بحثه

■ **ما هو تأثير تلك الاتفاقيات، وهل بدأ تأثير ظهور النفط على الإمارات وقتها؟**

- كان من الطبيعي أن يترتب على منح امتيازات التنقيب عن النفط أن تبرز إلى الوجود مشكلات لم تكن معروفة من قبل ونعني بها مشكلة تخطيط الحدود بين الإمارات بعضها البعض حيث أصبح لكل بوصة من الأرض أهميتها لاحتمال العثور على النفط بها وكان هذا شيئاً جديداً لم تعرفه الإمارات من قبل، فالحياة القبلية القائمة بالدرجة الأولى على رعي الماشية والتنقل أينما هطلت الأمطار كانت تحول دون قيام حدود فاصلة بين القبائل المرتبطة مع بعضها البعض إما عن طريق النسب والقربى أو عن طريق الجوار والمصالح المشتركة. ومن الواضح أن احتمالات العثور على النفط أعطت للأرض أهمية اقتصادية لم يكن معترفا بها من قبل، كما كان من الطبيعي أن ينتج عن تقسيم الحدود صراع حاد بين الإمارات كان أبرزها النزاع بين أبوظبي ودبي على خور غناضة

إضافة إلى النزاع الذي احتدم بين أبوظبي وسلطنة عُمان وبين المملكة العربية السعودية حول واحات البريمي.

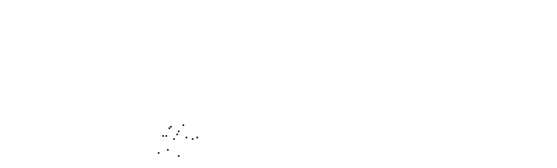
■ وماذا كان تأثير تلك التحولات على القوى الاجتماعية والسياسية؟

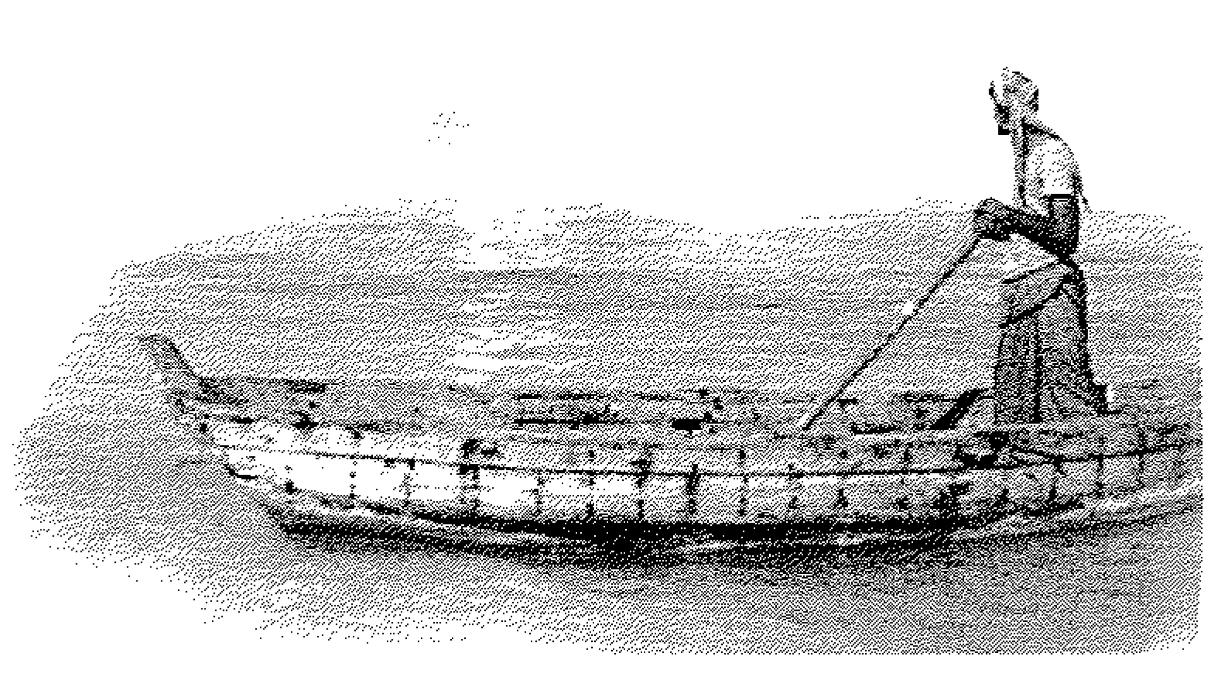
– ترتب على منح حكام الإمارات امتيازات القواعد الجوية والنفطية وضع قوة مالية في أيديهم شكلت دخولاً معقولة بالمقاييس المحلية ولا سيما في ضوء الكساد المالي الذي عانت منه الإمارات العربية في عقد الثلاثينيات، وقد أمنت تلك العوائد المالية استقلالا ماديا للحكام بحيث أصبحوا هم القوة المالية والاقتصادية في المجتمع. وتم هذا التحول على حساب التجار الذين تراجعت أهميتهم ومن ثم أتاحت العوائد المالية التي تحصل عليها الحكام إلى حدوث تغيير هام في الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي وأدى هذا التغيير إلى عزل الحكام عن كبار التجار إذ أتاحت لهم المكاسب المالية التي حصلوا عليها جراء عقد الاتفاقيات النفطية والجوية أن تكون لهم دخول. ومن النتائج التي ترتبت على منح الحكام امتيازات خاصة بالقواعد الجوية والنفطية تخطيط الحدود بين الإمارات وزيادة المصالح البريطانية لما كشفت عنه تلك الامتيازات من الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للإمارات وما ترتب على ذلك من ازدياد الوعي السياسي لدى أبنائها وظهور بعض الحركات المعارضة في إمارة دبي والانتفاضات الوطنية في البحرين، وقيام حركة المجلس التشريعي في الكويت في عام ١٩٣٨م وعلى الرغم من نجاح حركة المعارضة في دبي في إنجاز بعض الإصلاحات إلا أنه لم يكتب لها الاستمرار إذ لم تلبث أن أجهضت بعد أن فقدت الإمارات الموارد التي كانت تتحصل عليها من الامتيازات النفطية أو من تأجير القواعد الجوية إذ ترتب على تفاقم مشكلات الحدود السياسية فضلا عن اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف كافة عمليات الكشف والتنقيب عن النفط كما توقف أيضا استغلال المحطات الجوية بعد أن أوقفت بريطانيا نتيجة ظروف الحرب خطوطها الجوية إلى الشرق الأقصى. ومن ثم لم يتوافر للإمارات ما كان منتظراً أن يتحقق لها من دخول ثابتة سواء من العوائد النفطية أو من بدل إيجار المطارات والاستراحات الجوية.

ومن ناحية أخرى فقد ترتب على الإجراءات العسكرية والاقتصادية التي اتخذتها لجنة الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية وعممت على منطقة الخليج وامتدت آثارها إلى الإمارات العربية خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية ترتب على ذلك معاناة اقتصادية بعيدة المدى، إذ كان في تلك الأنظمة الدفاعية مساس باقتصاديات الإمارات، حيث زادت بواعث التذمر والاستياء ضد السيطرة البريطانية حتى أن كثيرا من حكام الإمارات وأبنائها أخذوا يعبرون عن ترحيبهم الزائد بما كانت تحققه ألمانيا هتلر من انتصارات عسكرية في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، ومن الوقائع الطريفة التي أذكرها أن الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة نظم قصيدة شعرية هنأ فيها ألمانيا بتحقيق انتصاراتها على الإنجليز في الوقت الذي اتهم فيه الإنجليز وحلفاؤهم دول المحور بإرسال عملائهم عن طريق العراق وإيران وشرق إفريقيا لإثارة الإمارات العربية ضدهم، وصفوة القول إن الأوضاع الاقتصادية في الإمارات العربية ظلت طيلة العقد الثالث من القرن العشرين في حالة من الضيق والجمود الشديدين على الرغم مما طرأ عليها من انتعاش نسبي نتيجة الامتيازات النفطية وإيرادات المطارات الجوية ولكن ذلك الانتعاش لم يلبث أن توقف بنشوب الحرب

■■

احتمالات العثور على النفط أعطت للأرض أهمية اقتصادية لم تكن معروفة من قبل في الإمارات





العالمية الثانية.

تحفظ في غير محله

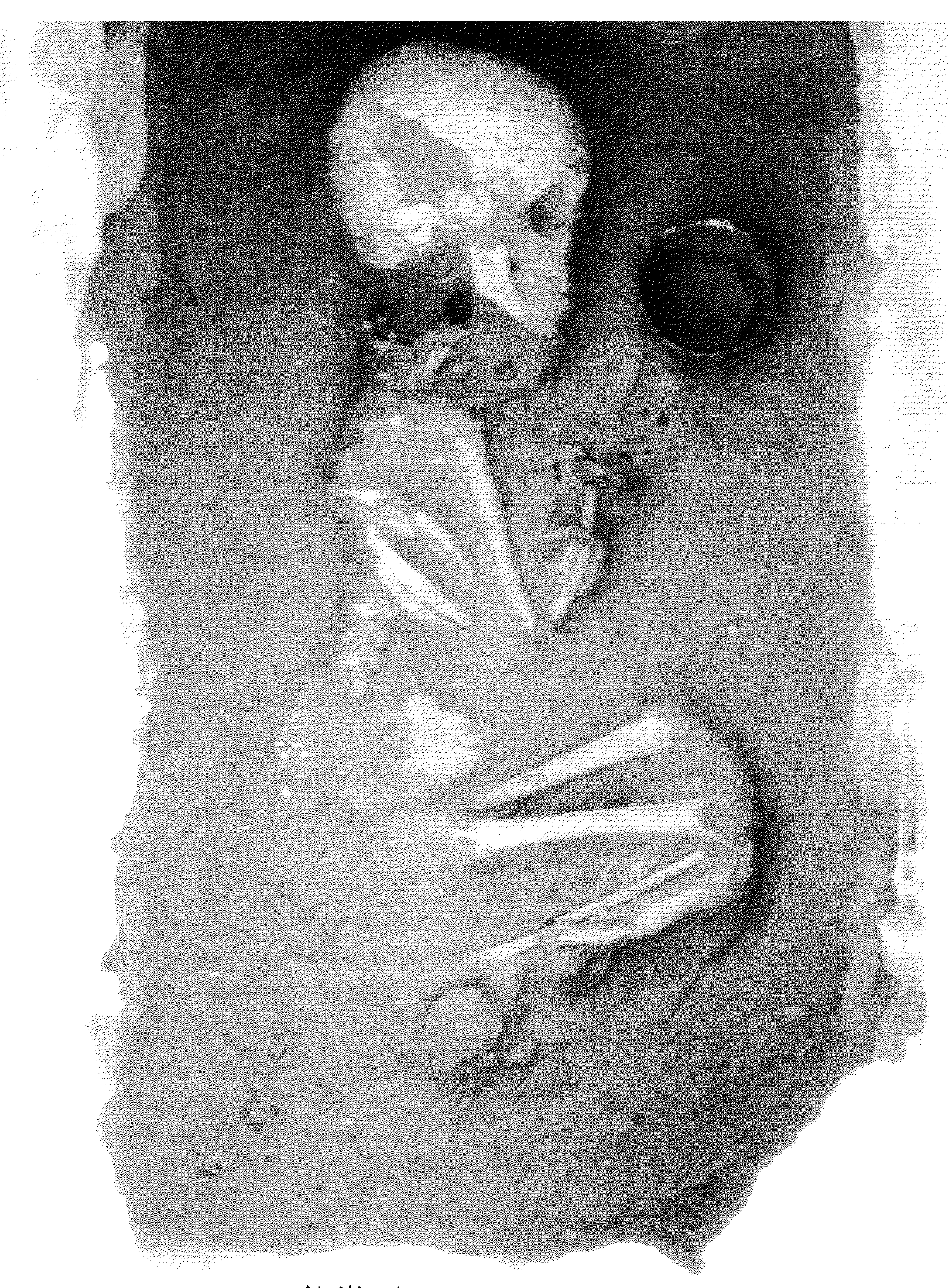
ويؤكد الدكتور قاسم على أن بريطانيا وعلى الرغم من استطاعتها الهيمنة على الإمارات والاستفادة استراتيجيا واقتصاديا من تلك الهيمنة إلا أنها لم تهتم بإدخال أي نوع من الإصلاحات خاصة في الوقت الذي كانت معظم الإمارات تعاني معاناة شديدة من غياب أسس البنية ومن ناحية أخرى فقد وقفت حائلا دون السماح للأقطار المجاورة والأكثر تطوراً لمد يد العون للإمارات تخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى تقليص سيطرتها على تلك الإمارات وكثيرا ما كانت بريطانيا تبدي من الوجهة النظرية تحفظها بأن مسؤوليتها إزاء الإمارات تنحصر فقط في شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية وبالتالي فهي ليست مسؤولة عن الشؤون الداخلية ولا تتحمل أية مسؤوليات فيما يتعلق بتطويرها أو نهضتها وكانت تبرر تقاعسها عن تنفيذ بعض المشروعات بأن الاضطرابات الداخلية كانت تحول دون قيام أية مشروعات خاصة بالإصلاح أو التطوير. وفضلا عن ذلك لم تكن الحكومة البريطانية تعتبر الإمارات محميات بريطانية وإنما تعتبرها إمارات مشمولة بالحماية، ومن ثم فإن السياسة البريطانية كانت تقتصر من وجهة نظرها على ممارسة العلاقات الخارجية والشؤون المتعلقة بالطيران والبريد والبرق دون الشؤون الداخلية.

■ **وهل كان ذلك حقيقة بالفعل؟**

– في تقديرنا إن ما كانت تدعيه الحكومة البريطانية من عدم مسؤوليتها عن الشؤون الداخلية للإمارات كان فقط من الوجهة النظرية البحتة لأن التعليمات البريطانية على الرغم من أنها لم تكن تأخذ طابعا رسميا، حيث كانت تقدم عادة على شكل نصائح واجبة التنفيذ في اجتماعات ودية مع الحكام بهدف تنظيم الإدارة وحفظ الأمن إضافة إلى ما كان يمارسه الوكلاء البريطانيون من سيادة قضائية على الرعايا البريطانيين والأجانب التابعين لدول أخرى كل ذلك يؤكد أن السياسة البريطانية لم تكن كما كانت تدعي بل لقد وضح التدخل البريطاني في الشؤون الداخلية بصورة أكثر جلاء في منازعات الحدود بين الإمارات ووصل الأمر إلى إقدام الحكومة البريطانية على ترسيم الحدود بينها تحقيقا لمصالحها الخاصة.

■ **لكن البعض ذكر أن تلك الفترة شهدت بعض المشروعات والتطوير، فماذا تقولون؟**

– قد يكون حقيقة أن السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية قد شهدت قيام بريطانيا بإدخال بعض المشروعات والتنظيمات الإدارية التي استهدفت إحداث تطوير في الإمارات لكن ذلك ارتبط بالتحول في السياسة البريطانية بعد انتقال إدارة الخليج إلى وزارة الخارجية البريطانية عقب استقلال الهند وباكستان في عام ١٩٤٧ إذ من الملاحظ أن الخارجية البريطانية في إدارتها لشؤون الخليج كانت أكثر تفتحاً وأكثر مرونة من حكومة الهند البريطانية التي استهدفت عزل الإمارات العربية وإشاعة حالة من التخلف والجمود فيها ومع ذلك فإن التحول في السياسة إنما كان نتيجة ما كشفت عنه التنقيبات من وجود كميات هائلة من النفط يضاف إلى ذلك اتجاه السياسة البريطانية إلى تمكين شركات النفط البريطانية من العمل في المنطقة ومايستلزمه ذلك من الحاجة إلى الاستقرار الداخلي وهو ما تمثل في إنشاء قوة ساحل عمان في عام ١٩٥١ وهي قوة أمن موحدة وضعت تحت القيادة البريطانية واستهدفت بها حماية مصالحها النفطية وحفظ الأمن ومرافقة البعثات الكشفية النفطية فضلا عن حماية الإمارات من أية اعتداءات خارجية، وكذلك في ما أقدمت عليه الحكومة البريطانية في العام التالي ١٩٥٢ من إنشاء مجلس شيوخ الإمارات المتصالحة التي ألحقت به في عام ١٩٦٥ مكتبا للتطوير أسهمت أبوظبي في الجانب الأكبر من ميزانيته. ومن الواضح أن نمو الوعي الوطني كان هو الدافع إلى القيام ببعض مشروعات التطوير خاصة بعد أن أقدمت إيران وبعض الدول العربية على القيام ببعض تلك المشروعات التي تميزت بالعشوائية والتضارب وافتقدت إلى التنسيق ومن ثم كان للوحدة السياسية التي تحققت للإمارات العربية عقب الانسحاب البريطاني من الخليج أثرها في وضع خطط التطوير الشاملة والمتكاملة كما أدت تلك الوحدة السياسية إلى انطلاق أبناء الإمارات إلى عهد جديد لم تعد فيه إماراتهم خاضعة لسلطان البيئة القاسية بفضل ما تحقق لها من ثروات نفطية هائلة كما لم تعد خاضعة للهيمنة البريطانية مما أتاح لدولة الإمارات العربية المتحدة الفرصة وبسرعة لا نظير لها في التاريخ أن تنفض عوامل التخلف والتجزئة وتواجه مشكلات الحاضر وتتطلع إلى المستقبل وتمضي في اللحاق بركب المدنية الحديثة.■



المعابد
من خلال الآثار

■ د. امتثال النقيب

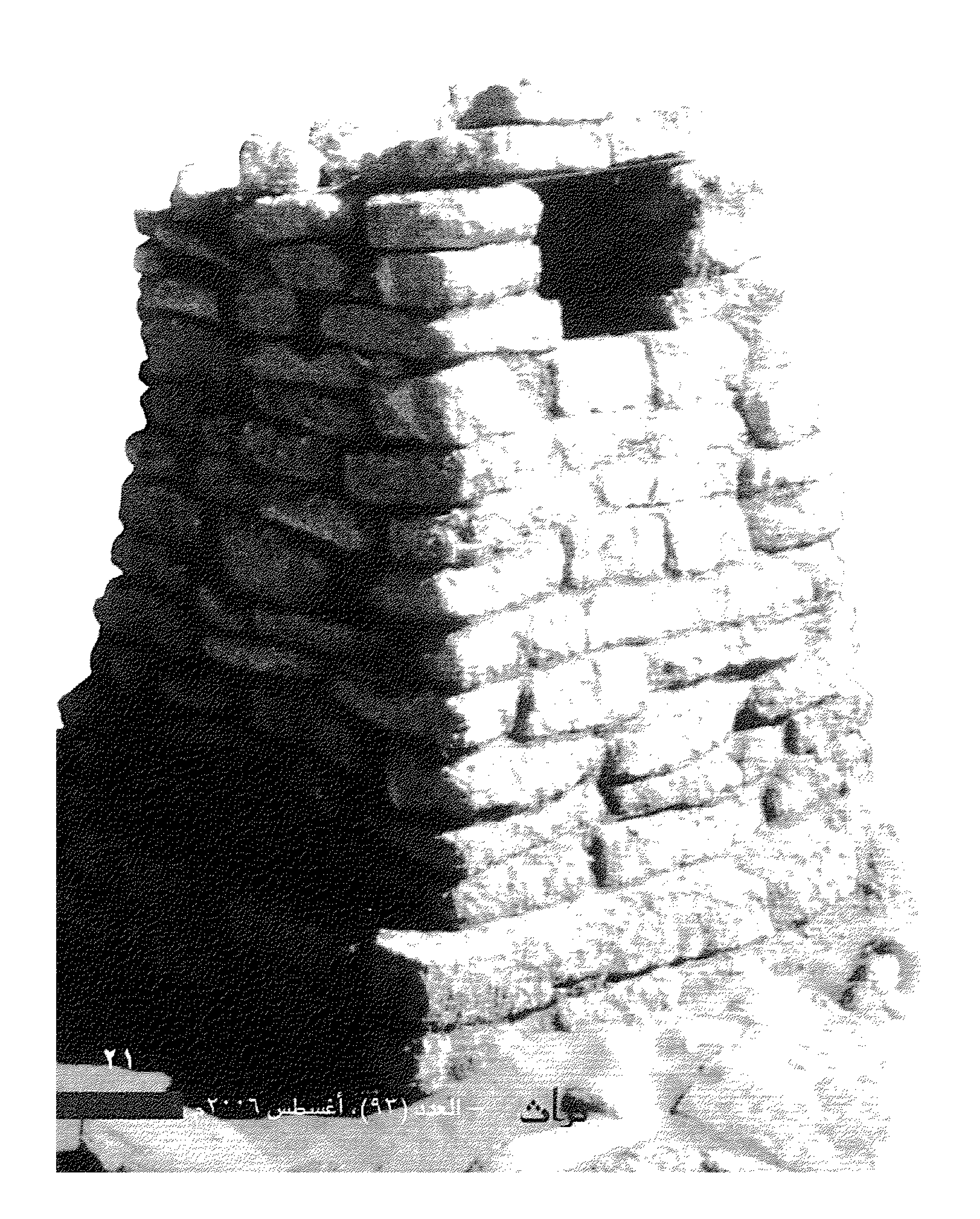
ارتبطت العقيدة ومنذ الخليقة بالإنسان حيث تمكنت العبادات والعقائد من أخذ موقعها الطبيعي من عملية التطور والتقدم التي مرت عبر التاريخ القديم وهكذا كانت العقيدة جزءاً لايتجزأ من الإنسان. والعبادات تطورت بتطور الإنسان وإحساسه بالعالم الخارجي، وتطورت معه أماكن عبادته والكيفية التي يعبد فيها معبود ته وكثرت القصص والأقاويل عن هذه العبادات والمعابد ولكن تبقى للآثار كلمتها الأخيرة من خلال التنقيبات والحفريات التي قامت بها بعثات التنقيب.

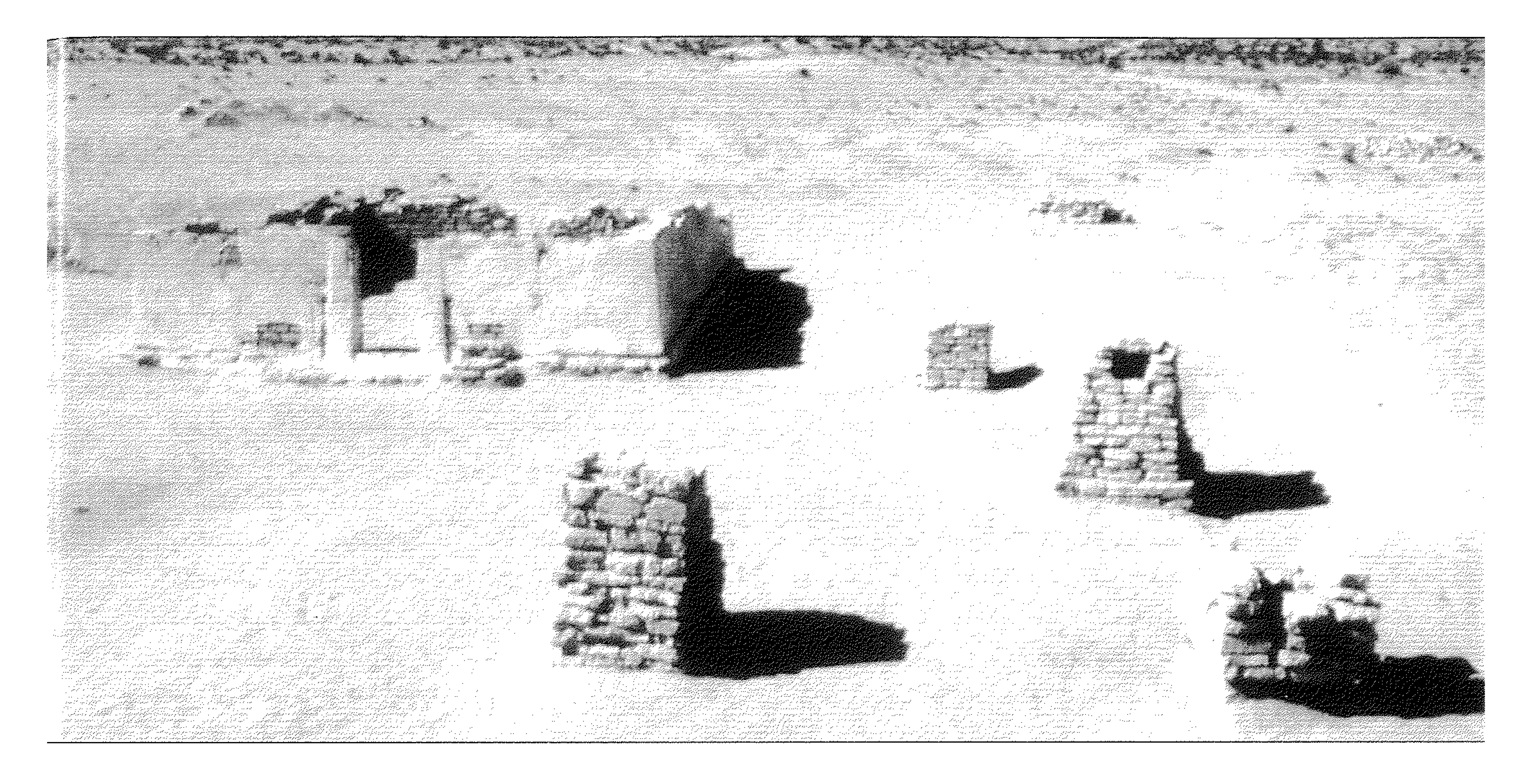
يعتبر المعبد أهم مرحلة في العقيدة الدينية لأنه المكان الطبيعي لتأدية فروض العبادة والمراسيم والطقوس والاحتفالات المتصلة بها ويستنتج من الدراسات الأثرية أن تأسيس المعبد بمفهومه الديني الكامل ظهر لأول مرة في الشرق الأدنى في عصر حلف ولكن المراحل الأولى لهذه الخطوة سبقت عصر حلف بزمن بعيد خدمت فيه الكهوف الغرض الذي بنيت من أجله المعابد فيما بعد، فالأسلحة والآلات، ومواد الزينة، وبقايا الطعام التي وجدت في مدافن تلك الكهوف مع الهياكل العظمية البشرية تعد دليلا على أن الإنسان البدائي الذي دفن موتاه بتلك الطريقة كان يعتقد بوجود الروح التي تبقى بعد فناء الجسم وربما كان يعتقد في حياة أخرى تمتد فيما وراء عالم القبور تظهر فيها الحاجة إلى المؤونة والسلاح كما أن الرسوم الجدارية والمنحوتات البارزة التي زينت بها جدران الكهوف بعناية فائقة وبمهارة فنية عالية لا يمكن تفسيرها بمجرد الرغبة في التعبير عن الهواية الفنية بل بارتباطها بالعقيدة الدينية أيضا، لاسيما أن بعض الكهوف المزينة بصور الحيوانات المرسومة أو المحفورة على الجدران استخدمت في العصور الحجرية القديمة لأغراض العبادة وممارسة الطقوس الدينية والسحرية لمضاعفة عدد الحيوانات وزيادة فرص صيدها وإيجاد علاقة نافعة مع القوى الخارقة التي تخلقها لأن الحيوانات كانت من أهم الموارد التي اعتمد عليها الإنسان في معيشته في هذه المرحلة واعتماده عليها كان أكثر من اعتماده على جمع الفواكه، والبذور، وصيد السمك، ويظهر أن الحيوانات تؤلف أربعة أخماس الموضوعات التي رسمها وزين بها جدران الكهوف وأهم تلك الحيوانات الثور البري، والإبل، والفيلة المنقرضة، والوعول، والغزلان، والماعز البري، والخيول البرية، ووحيد القرن، وجدير بالذكر أن هذه الصور وجدت في المناطق الداخلية من الكهوف بعيدة عن مداخلها وفي منعطفات يصعب الوصول إليها كما في كهف كاستلو.
إن هذه الكهوف استخدمت فيما عدا ذلك لدفن الموتى أيضا قبل ظهور الإنسان العاقل بزمن غير قريب وأقدم مثال على ذلك الكهوف القريبة من قرية شوكوتين الواقعة على بعد (٣٧) ميلاً من مدينة بكين فقد عثر فيها عام ١٩٢٩م على جمجمة إنسان الصين في طبقات عصر البلايستوسين الأوسط ويعود زمن هذه الجمجمة إلى ٥٠٠٠٠٠ سنة مضت ووجدت حالات مماثلة في كهوف إنسان نياندرتال في جبل الكرمل في سورية، وفي كهف شانيدر في بلاد الرافدين وفي كثير من الأقطار الأخرى في آسيا وأوروبا وأفريقية، كما وجدت حالات مماثلة أيضا في أنقاض مستوطنات إنسان صولو في جاوة الشرقية. وهناك من يعتقد أن وجود الجماجم منفصلة عن الهيكل العظمي للبدن يدل على قطع الرأس أثناء احتفالات دينية خاصة أقيمت لاستخلاص المخ منه لأكله وامتصاص ما فيه من قوة لأن الرأس هو مصدر القوة والنشاط في الإنسان.

المعابد في الخليج

وإذا كان المعبد بمعناه الديني الكامل أي بوصفه بناية مستقلة خاصة بأمور العبادة قد ظهر في بلاد ما بين النهرين، فإن المعابد في الخليج العربي قد ظهرت وتطورت بشكل كامل بتطور الحياة في المنطقة، كما تأثرت بالمباني الوافدة للمعابد من حيث وقوعها على ممر التجارة العالمية وعلى الخليج العربي.

وقبل الحديث عن المعابد في بلاد ما بين النهرين نتوقف للحديث عنها في دولة الإمارات العربية





المتحدة وتحديداً في الدور بـ«أم القيوين» حيث اكتشفت البعثة البلجيكية برئاسة البروفيسور أرني هيرنك في أقصى جنوب موقع الدور نموذجاً لأول محراب عرفته المنطقة في ذلك الوقت وصف بأنه معبد للإله السامي «شمس» وهو مربع الشكل ترتفع أضلاعه نحو المترين إذ تبلغ أبعاده ٨.٣٠ × ٨ م وقد كسيت جدرانه الخارجية بالجص على نحو بالغ المهارة وأحاطت بمداخله الزخارف التزيينية والجانبية من الشرق والغرب مدخلات ويتصل بالمعبد بئر ماء عميقة دائرية الشكل مرصوفة بالحجارة يبلغ عمقها ستة أمتار.

أما مستوى سطح المياه الجوفية فبلغ في الوقت الذي حفرت فيه البئر ٤.٥م تقريباً غير أنه انخفض الآن ربما نتيجة ازدياد جفاف المناخ في المنطقة على مدى الفترة التي تلت حفر البئر. أما النقوش الآرامية المنحوتة على الحوض الحجري فتجعلنا نتأكد من أن المعبد يعود للإله شمس ويوجد هذا الحوض على قاعدة قريبة من الركن الشمالي الشرقي للمبنى. أما كتلة الحجارة الضخمة التي وجدت في وسط المبنى والتي يرجح أنها جاءت أصلاً من أحد مدافن حقبة أم النار فقط، وصفت بأنها مذبح داخل المعبد بالإضافة إلى اكتشاف ثلاثة مذابح أخرى مبنية من صخور بحرية أصغر حجماً خارج المعبد. كما أن وجود آثار نيران تقودنا لافتراض أن هذا المعبد قد شهد طقوساً دينية لم تعرف مناسباتها.

أما على الأطراف الشمالية والشرقية والغربية فيلاحظ تغيراً واضحاً في لون الرمال مما يدل على أن نيراناً قد تم إشعالها هنا حيث ظهرت بشكل بقع غامقة السواد في طبقات كثيفة من ٥سم على الطريق الشرقي وعند المدخل الرئيسي اكتشف حرق بمساحة ٢.٧٠ م في ١.٥٠م وبعمق قدره متر واحد تقريباً. وهذا يعرض لفترتين تدون فيهما اختلافات زمنية كبيرة حيث نتجت هذه الظاهرة عن تكوم الرمال التدريجي خاصة في الجانب الشرقي.

يقع المعبد في حوض وتحيط به كثبان رملية خصوصاً من الناحيتين الشرقية والجنوبية. ويوحي التشابه بين فترتي تكوم الرمال على جانبي كل من المعبد والمحرق الكبير بتزامن هذين العنصرين الآخرين حيث ساعد تكوم الرمال على حفظ المعبد سليماً ويعلو من ٢م إلى ٢.٣٠م.

أما في دبي وتحديداً في القصيص فقد كشف عن معبد آخر ألا وهو معبد تل الثعابين حيث إن المعبد كان يتوسط المدينة وقد خصص لعبادة الثعبان وأن هذا المعبد هو الوحيد في المستوطن الذي شيدت جدرانه من الحجر.

أما عن تل الثعابين فهو عبارة عن تل صغير مرتفع



قليلاً ذي شكل مستطيل ورماله برتقالية اللون متراكمة عليه وتشكل (هرماً) يمتد إلى أربعة وعشرين متراً، أما عرضه فلا يتجاوز الأربعة عشر متراً، أما ارتفاعه فلا يتجاوز المتر الواحد.

تظهر في أحد جوانبه كسرة فخارية عليها هيئة ثعبان بارز معمول من الفخار، والملاحظ أن رأس وجسم الثعبان المتبقي كان يحتوي على ثقوب صغيرة اعتباطية المسافات، البعض منها يحتوي على أحجار صغيرة جداً والبعض منها خال تماماً، فالمقصود إذا هو أن هذه الأحجار للدلالة على حراشف الثعبان. أما عينا الثعبان فقد طعما أيضاً بحجر صغير أسود اللون، إن هذه القطعة مهمة وهكذا فإن التل يحتوي على كسر كثيرة كانت جميعها على هيئة ثعابين بعضها بارز وأجسامها مطعمة بأحجار صغيرة للدلالة على الحراشف أو بهيئة حزوز.

أما الجهة الثانية من التل فكشف فيها عن غطاء لإناء من الفخار على قسمه الأعلى ثعبان بارز مطعم جسمه وعيناه بقطع صغيرة من الحجر الأسود اللون، وخلال رفع التراكمات في الزاوية الجنوبية الغربية من التل وعلى عمق خمسة وعشرين سنتيمتراً من أعلى نقطة من التل كشف عن غطاء معمول من الفخار كامل المعالم يبلغ قطره حوالى خمسة عشر سنتيمتراً وارتفاعه حوالى أربعة سنتيمترات على مقبضه الأسطواني الشكل يشكل ثعبان بارز معمول من الفخار أيضاً، والملاحظ أن رأس الثعبان وجسمه قد طعما بأحجار صغيرة للدلالة على الحراشف ويحيط بالقسم الأعلى من الغطاء خط دائري متعرج للدلالة على رمز الثعبان.

إن اكتشاف هذا المعبد لدليل على أن الإنسان قد عبد وقدس مايخافه ويهابه من الطبيعة، وفي الكويت تم العثور في فيلكا على معبد يقوم على مذبح واحد وبجواره معبد أصغر منه كما وجد لوح جيري يحمل كتابات يونانية مطولة ملقى على مقربة من مكانه الأصلي في الواجهة الأمامية من المعبد الأول كما وجد في بنائه قطعة تحمل كتابة أصغر شكلاً وعدد من التماثيل المصنوعة من الطين المحروق وكمية من الفخار والنقود وحول المعبد كان هناك مبانٍ غير منتظمة.

أما الكتابات اليونانية التي اكتشفت فتشير إلى أن هذا المكان كان مركزاً ثقافياً وإدارياً ودينياً في العصر الهيليني أما ملامح المعبد المعمارية فتشير إلى أنه هيليني الطراز، فالمذبح في خارجه وهناك بقايا قاعدة مستطيلة لتمثال الطقوس، وأرضية مدخل المعبد من

الطين أما أرضية الهيكل فهي مرصوفة بحجارة أحسن قطعة وجدران المعبد مبنية من مواد متوسطة القيمة وشكلها الخارجي يوحي بأنها بنيت من أحجار مربعة على الطريقة اليونانية أما الأسلوب المحلي في البناء فيظهر من وضع الطين بين الأحجار، ويشير عدم انتظام الحجارة إلى أن أسافين بدائية قد استخدمت في عملية قطعها وهي حجارة طينية ملساء ومرجانية التركيب ومع مرور الزمن أصبح لونها رماديا يشبه لون الطين وتمثال الطقوس قد يكون ورد الجزيرة جاهزاً فربما جاء هدية ولكن أمر صناعة إطار له فقد ترك إلى عمال الجزيرة، وليس ما يدل إلى وجود نوافذ في الهيكل هذا ووجد في الجزيرة بقايا قاعدتي عمودين، الجنوبية منها كاملة تتألف من ثلاثة أجزاء منفصلة: الجزء الأسفل مؤلف من حجر مربع رقيق وفوقه قاعدة مستديرة مزخرفة بأوراق شجر من طراز كان معروفاً في فن المعمار الاخميدي (في بيرسبوليس وسوسه) وفوقها قرص منخفض وهذا الأخير لا يوجد على قاعدة العمود الشمالي.

أما تيجانها بشكلها اللولبي فتشبه التيجان الأيونية (اليونانية) وقد يكون هذا داعيا لنا إلى التحدث عن أسلوب فارسي يوناني فالقواعد الفارسية قد أعيد استعمالها ولعلها قد أحضرت من بنايات أقدم من المعبد بنيت على الطريقة الفارسية ولم يوجد على سطح المعبد أقنية نزول المطر عن السطح، ولم يوجد أي أجر يغطي السطح ولعل هذا السطح كان منبسطا يتألف من طبقة أو أكثر من خشب السقف وفوقها حصر من سعف النخيل والطين.

أما التأثير الزخرفي فقد ازداد بالطريقة اليونانية وهي الدهن بألوان فاقعة فالنخيلات كانت محاطة بألوان حمراء فاتحة ويمكن أن يقال تيجان الأعمدة الأيونية الحلزونية قد أظهرت كهذه لاشك أن ألواناً كانت قد استعملت وإن لم يبق منها أثر.

وقد وجد تاج عمود من الطراز الدوري وراء هيكل المعبد الأول مباشرة كما وجد تاج آخر في الجانب الثاني من جدران المدينة وكذلك آثار المعبد الثاني وهو على طراز المعبد الأول وإن كان أصغر منه كما أن تيجان أعمدته دورية وليست أيونية.

أما في دلمون البحرين فقد اكتشف في موقع سار معبد لآلهة القمر ويقع في أعلى نقطة في القرية ويعتبر مركزها ويمر به الشارع الرئيسي. يقع مدخله في الجهة الشرقية المقابلة للشارع الرئيسي الثاني المتجه إلى الجهة الشرقية حيث تستقر بئر الماء الرئيسية، والمدخل يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية. والمعبد يأخذ شكل شبه منحرف يضيق في الجهة الشرقية بينما يتسع في الجهة الغربية فاسحاً المجال لبناء غرفتين رئيسيتين ربما استخدمت لجمع القرابين ولسكن الكهنة، وعلى يمين المدخل توجد مصطبة من بيت من الجص بشكل منتظم قد تكون مكاناً للغسل والتطهير قبل قيام المتعبد بممارسة الطقوس اللازمة داخل المعبد، حيث توجد ثلاثة أعمدة تتوسط المبنى أحدها يحمل مذبحاً على شكل هلال وآخر مشابه له في الجدار الجنوبي وتبدو آثار الرماد واضحة على سطح المذبح نتيجة حرق البخور وغيره.

ويعتقد بعض علماء الآثار أن هذا الشكل (الهلالي) هو مؤشر على أن المعبد قد بني لعبادة آلهة القمر. وهذا ما تؤكده أشكال الأهلة المتنوعة في موضوعات ومشاهد الأختام الدلمونية، وآخرون يفسرون وجود هذا الشكل بأنه استمرار للأشكال البدائية لعصور ما قبل التاريخ والمتمثلة في أشكال القرون التي توجد في المعابد.

ومن الجدير بالذكر أن كوكب عطارد هو أقرب الكواكب إلى الشمس وقد عرف الخليج العربي منذ القدم بعبادة الشمس وكذلك عطارد الذي كان إلها للتجارة والفصاحة عند الرومان وكان يعبد في البحرين لما له من صلة وثيقة بطبيعة دورها المتميز في التجارة الدولية القديمة بين مراكز الحضارة في الشرق القديم، وقد أثبت حجر ديوراند ذلك بوضوح تام وهو في رأي شاهد على هذا التفسير وقد نص صراحة على اسم انزاك الذي هو بين آلهة الشعوب القديمة في بلاد الرافدين.

المعابد في بلاد الرافدين

وبالعودة إلى ظهور المعبد بمعناه الديني الكامل أي بوصفه بناية مستقلة خاصة بأمور العبادة ظهر في بلاد مابين النهرين في عصر حلف ففي التنقيبات التي أجرتها بعثة أمريكية في أنقاض تبة كورا الواقعة في شمال بلاد الرافدين، حيث عثر المنقبون على بقايا معبد في الطبقة التاسعة عشرة يتألف من عدة غرف بنيت باللبن أكبرها هي غرفة المعبد المقدسة التي بلغت مساحتها ٨.١٥م×٣م وبنيت على جانبي هذه الغرفة غرفتان صغيرتان وثلاث غرف أخرى إلى الجنوب منها ووجدت في النهاية الشرقية من الغرفة

المقدسة دكة المذبح التي بلغ ارتفاعها ٩٥سم وعرضها ٥٥سم وخصصت هذه الدكة للنذور والقرابين التي تقتضيها الطقوس الدينية بدليل مثيلات لها في معابد العصور التاريخية.

أما الضلع الشمالي من هذه الغرفة فقد توسطته حفرة المحراب حيث توضع تماثيل الآلهة التي يقف أمامها المتعبدون لتقديم فروض الطاعة والاحترام كالتماثيل التي وضعت لهذا الغرض في الضريح الثاني في المعبد المربع في موقع تل أسمر أما المدخل الرئيسي للمعبد فكان في الجدار الغربي الطويل والداخل من الباب الرئيسي إلى هذا المدخل يمر في غرفة صغيرة ثم يدخل ساحة مكشوفة ثم يدخل إلى الغرفة المقدسة بعد أن يمر في غرفة صغيرة لتنظيم الانتظار والدخول.

وفي أنقاض موقع الاربجية في شمال بلاد الرافدين اكتشفت بعثة أثرية بريطانية معابد أو مزارات في الخنادق السابع والثامن والتاسع والعاشر بهيئة مستديرة الشكل وتتصل بمدخل مستطيل. وتعود هذه المعابد إلى عصر حلف وأكبرها هو المعبد الذي اكتشفت مخلفاته في الخندق السابع إذ بلغ قطر البناية المستديرة عشرة أمتار وطول البناية المستطيلة تسعة عشر مترا، ومما يؤكد الصفة المقدسة لهذه المباني وجود قبرين متجاورين للجدار الخارجي لأحدهما ووجود التماثيل الطينية للآلهة الأم في أنقاضها ووجود قسم من نتوء العقدة باقيا حتى الوقت الحاضر مما يشير إلى احتمال وجود قبة فوق البناية.

وفي جنوب العراق كشف عن بقايا أقدم المعابد في الطبقة السابعة في اريدو التي تقع في جنوب غرب مدينة أور، ويعود هذا المعبد إلى عصر العبيد ويظهر أن هذا المعبد بني بلبن رملي فيه قليل من التبن على مصطبة صغيرة وطليت جدرانه بطلاء أبيض اللون من الجص ويتألف المعبد من غرفة رئيسية مقدسة مستطيلة كانت تقام فيها الشعائر الدينية وفي إحدى نهايتيها دكة المذبح وقدمت القرابين والنذور وبنيت على كل من جانبي الغرفة الرئيسية خمس غرف يدخل إليها من الغرفة الرئيسية.

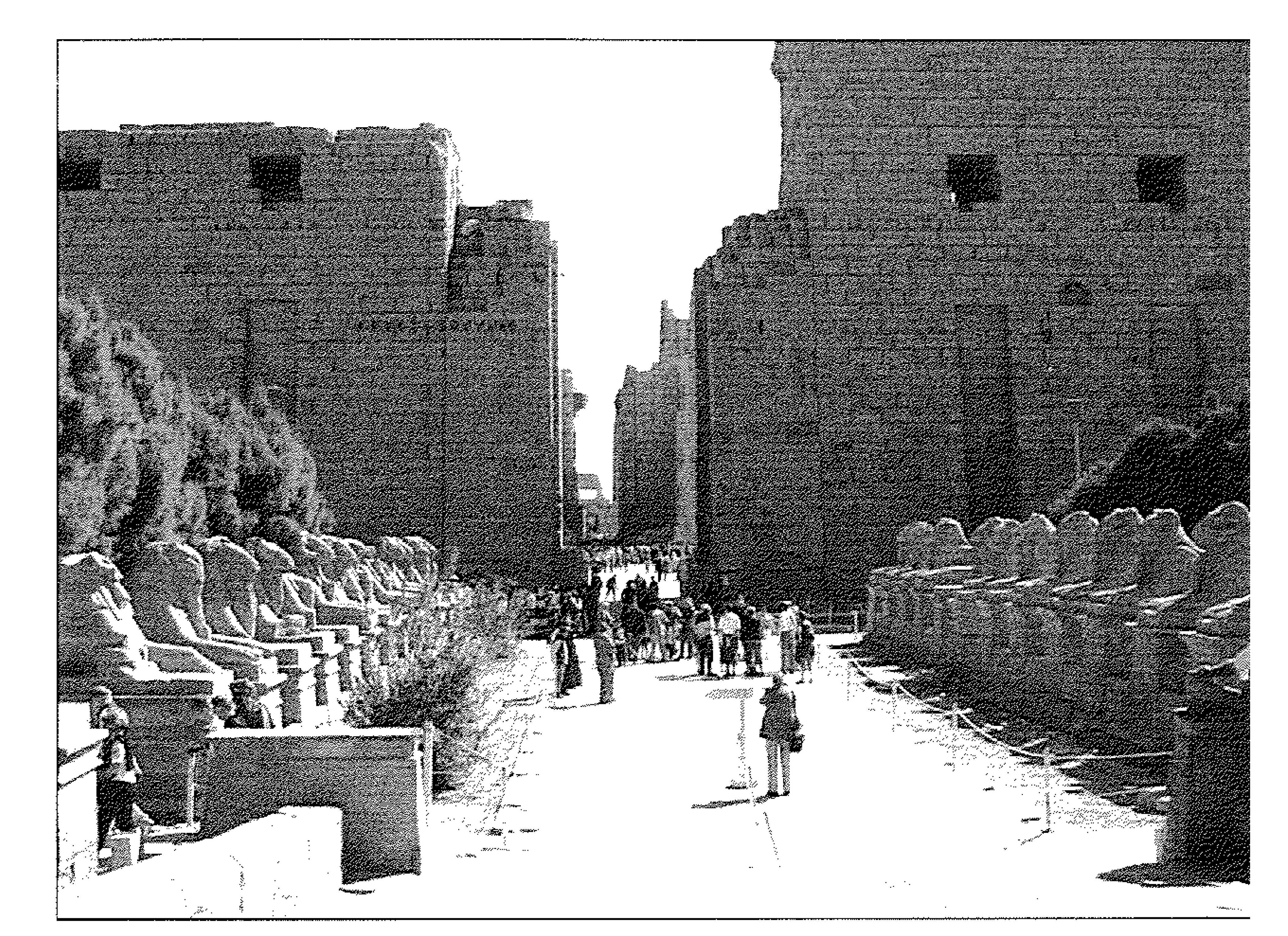
وكان الزائر للمعبد يرتقي سلما من تسع درجات صغيرة ثم يدخل إلى إحدى الغرف ثم إلى الغرفة الرئيسية. وظهرت في هذا العصر معابد أخرى في شمال بلاد الرافدين وجنوبه ثم كثرت في العصور اللاحقة إلى جوارها الزقورة في عصر الوركاء والعصور التاريخية ومثال ذلك معبد اكشنوكال فهوى الذي بني لعبادة الإله القمر نانا في أور في عصر فجر السلالات.

تتميز معابد مابين النهرين في دور تطورها بعدة خصائص أهمها إقامة الجدران الرئيسية للمعبد نحو الاتجاهات الطبيعية الأربع وتقوية الجوانب الخارجية منها بالدعائم وبناء المدخل الرئيسي في الضلع الطويل إذا كانت البناية مستطيلة الشكل وبناء دهليز يوصل بين هذا المدخل والساحة المكشوفة التي تنتهي بحجرة صغيرة ينظم فيها الدخول إلى غرفة المعبد الرئيسية حيث يوجد المحراب الذي توضع فيه تماثيل الآلهة وحيث توجد خدمة القرابين ودكة المذبح وفي بعض الحالات يوجد في ساحة المعبد بئر أو حوض ماء لغرض الطهارة المطلوبة في بعض الطقوس الدينية وتمتد على جوانب الساحة المكشوفة غرف لإيواء تماثيل الآلهة الأخرى أو لحفظ السجلات الدينية أو لإقامة الكهنة أو لخزن حاجات المعبد. ومما يلاحظ في هذه المعابد أن جميع الأبواب في أغلب الحالات تنتظم على محور عمودي مستقيم بحيث تمكن الداخل من رؤية تمثال الآلهة في المحراب.

المعابد في بلاد الشام

وظهرت المعابد القديمة في بلاد الشام في العصر الحجري المعدني أيضا ويظهر من نتائج الحفريات التي جرت في أريحا وتل الجزر ومجدو وغيرها أنها

مسلة من مصر الفرعونية



طريق الكباش - معبد الكرنك في مصر

كانت مستديرة الشكل. واتخذ الاموريون وهم أقدم الأقوام السامية التي وفدت على هذه البلاد من الأماكن المرتفعة على رؤوس التلال أماكن خصصوها لعباداتهم ومن الطقوس البارزة التي أدخلوها في هذه العبادات إقامة عمود مقدس إلى جوار مذبح صخري في الكهوف وورث الكنعانيون كثيرا من عقائدهم الدينية ممن سبقهم من الاموريين واستمرت عندهم العبادة في الأماكن المرتفعة. وفي كثير من الأحيان لم يكن المكان المقدس يضم سوى العمود المقدس والمذبح وفي أوائل الألف الثالث قبل الميلاد بنى الكنعانيون معابد صغيرة تتألف من غرفة واحدة لها باب في الضلع الطويل وأهم مزايا المعابد الكنعانية في دور تطورها وجود المذبح الصخري والعمود المقدس أو الشجرة المقدسة التي ترمز لإله الخصب وقد وجدت في بعض المعابد آثار حوض ماء ومصاطب يغسل عليها المتعبدون أقدامهم قبل الصلاة، والجدير بالذكر أن الكنعانيين كانوا يسمون المعبد بيت الله.

وورث العبرانيون من الكنعانيين مجموعة من الطقوس والمراسيم القديمة التي تشمل الأعمدة المقدسة والأماكن المرتفعة، وفي عهد الملك سليمان بنوا الهيكل ليكون معبدا تابعا للقصر الملكي وبمرور الزمن أصبح الهيكل مركزا عاما لعبادة العبرانيين.

المعابد في مصر القديمة

وفي مصر ظهرت المراحل الأولى لتأسيس المعابد في العصر الذي سبق حكم السلالات ولكن المميزات الرئيسية التي تجعل منها أماكن خاصة بالعبادة ظهرت بصورة واضحة في عصر الأهرام حيث بني المعبد إلى جوار الهرم لعبادة الفرعون وإقامة الشعائر الدينية الخاصة به وبني معبد آخر في نهاية الطريق الذي يوصل بين الهرم ومقر الملك في المدينة وبنيت معابد صغيرة إلى جوار القبور الاعتيادية وبمرور الزمن تطورت هذه المعابد فزادت فيها النقوش والتماثيل وصفوف الأعمدة المزخرفة حتى بلغت أوج روعتها في عهد المملكة الحديثة وخير مثال على ذلك معبد أمون في الكرنك الذي بني في عهد المملكة القديمة أضيفت عليه عدة مبانٍ في عصور مختلفة وخصوصا في عهد البطالسة ومن الممكن اعتبار هذا المعبد نموذجا للمعابد المصرية التي تتميز ببناء برج أو برجين، أمام بناية المعبد وفي هذا المعبد نجد ممراً يمتد على كل جانب منه عشرون تمثالاً لحيوان خرافي له رأس الكبش وجسم الأسد في حالة جلوس ويعتبر هذا النوع من التماثيل رمزا للإله أمون وينتهي الممر ببرجين يتوسطهما مدخل المعبد وتكثر على سطوح هذين البرجين نقوش محفورة في نحت بارز وكتابات صورية تبين الأعمال الحربية التي قام بها الفرعون.

وتوجد في كل برج فجوات أربع خصصت للسواري الضخمة التي تحمل الأعلام في أيام الاحتفالات وتمتد بعد المدخل ساحة مكشوفة أقيمت في كل جانب منه سقيفة تستند إلى اسطوانات ضخمة وفي وسط الساحة أقيم صفان من الأعمدة الضخمة تمتد باتجاه محور المدخل، وتنتهي هذه الساحة ببرج ثانٍ تأتي بعده قاعة الأعمدة المقدسة الخاصة بالاحتفالات وفي نهاية هذه القاعة توجد غرفة المعبد الرئيسية التي كانت تضم تمثال الآلهة في مكان يواجه الزائر عند دخوله إلى المعبد ويوجد مدخل ثانٍ في الجانب الخلفي من الغرفة تمتد وراءه غرف كثيرة أعدت لخزن أدوات المعبد وحاجياته.

وجرت العادة أن تقام مسلتان أمام المدخل الأول يكتب عليهما اسم الملك وعبارات الدعاء لآلهة المعبد. وفي آسيا الصغرى تعددت أماكن العبادة عند الحيثيين ففي بعض الأحيان اتخذ من الأماكن الصخرية في

العراء كما في يازيلكيا، مكانا للالتقاء بالآلهة، وفي هاتوساس (بوغازكوي) بنيت معابد كاملة بالحجارة الضخمة وفي أماكن أخرى كان المعبد مركزا رسميا للخدمات الحكومية إضافة إلى وظيفته الدينية.

والمعابد الحيثية تشبه بصورة عامة معابد بلاد الرافدين القديمة من حيث وجود عدة غرف تحيط بساحة مركزية مكشوفة إلا أنها تختلف في مكان الغرفة الرئيسية المقدسة، ففي بلاد الرافدين يدخل الزائر إلى هذه الغرفة من الفناء المركزي بعد اجتياز غرفة صغيرة تقع على نفس المحور بحيث يستطيع الزائر مشاهدة تماثيل الآلهة وهي في المحراب من الساحة المركزية قبل دخول الغرفة أما في المعبد ألحثي فكان الدخول إلى هذه الغرفة يتم من غرفتين متداخلتين جانبيتين ولذلك لا يستطيع الزائر مشاهدة تماثيل الآلهة إلا من ثقوب النوافذ الموجودة في الجدران الفاصلة.

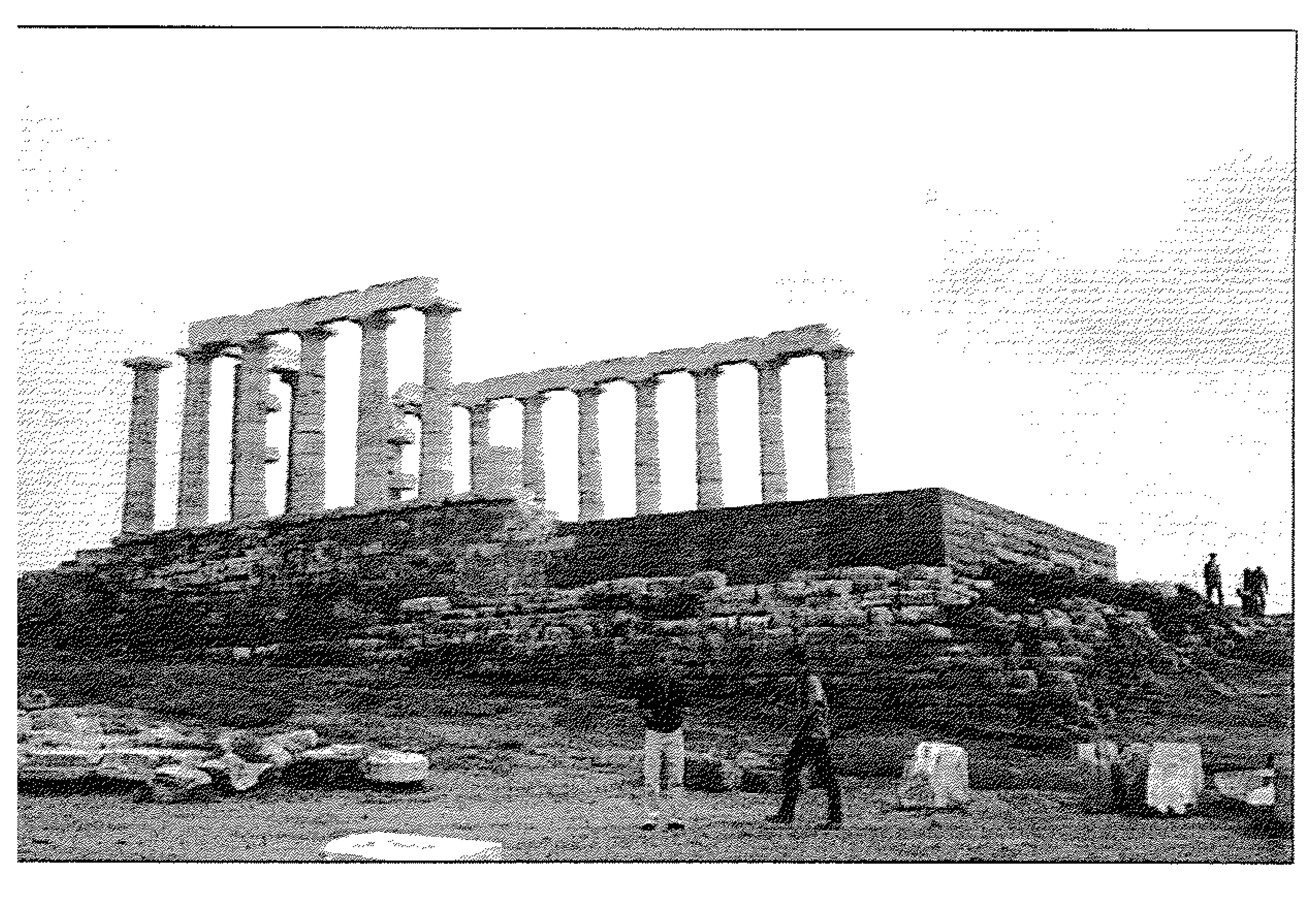
واعتبر الحيثيون بناية المعبد وما فيها من أثاث ذات صفة مقدسة وعينوا الكهنة لرعاية الآلهة وكان هؤلاء الكهنة يقومون بغسل الآلهة وتبديل ملابسها وتقديم الطعام والشراب وإقامة حفلات الرقص والموسيقى لها في كل يوم.

عند الرومان والإغريق

وفي كريت ظهرت عبادة الآلهة الأم في الكهوف وأقدم هذه الكهوف المقدسة هو كهف امنسوس Aminsos الذي يقع على بعد أربعة أميال إلى الشرق من هيراكليون Heraklion ويظهر أن هذا الكهف كان خاصا بعبادة ايليثيا Ileithyia وأثبتت الدراسات الحديثة أن هذه الآلهة عبدت في هذا الكهف من العصر الحجري الحديث وحتى بداية التاريخ الميلادي وهناك كهوف أخرى استخدمت للعبادة في أماكن عديدة من الجزيرة أهمها كهف Psychrohôî°S وكهف أيدا فلة وكهف كاماريسKamares وبمرور الزمن ظهرت المعابد في الأماكن المرتفعة في العهد الماينوني المتوسط ومن أبرزها المعابد التي وجدت على قمة جبل جوكتاس القريبة من قصر مينوس في كنوسوس واقتصرت هذه المعابد في هذه المرحلة على بناء الجدران حول شرفة صخرية ويظهر من نقوش الأختام الذهبية التي استخرجت من المواقع الأثرية في كنوسوس ومايسيناي أن الضريح المقدس كان ذا سور خارجي في بعض الحالات، وفي حالات أخرى توضع أمام الضريح حجارة كبيرة تبرز منها شجرة مورقة ومثمرة وفي حالات ثالثة يستبدل السور بعمود حجري، ويستنتج من هذه النقوش أن العمود الحجري والشجرة من العناصر المهمة في عبادة المباينونيين.

وبالإضافة إلى أضرحة الأماكن المرتفعة ظهرت الأضرحة الخاصة في البيوت وفي قصور الملوك والأمراء مثل ضريح القصر الملكي في مدينة كنوسوس، أما الديانة المايسينية فقد نشأت من الديانة المباينونية أو كانت قوية الصلة بها من جوانب كثيرة، ففيما يتعلق بمكان العبادة وجدت عند المايسنيين أضرحة ذات مذابح مستديرة الشكل كما وجدت الأعمدة المقدسة أمام الأضرحة أو في داخلها.

أما الإغريق الايون فقد أغفلوا المعابد ووجهوا عنايتهم إلى بناء القصور بينما اهتم الدوريون ببناء الأضرحة في ترنز ومايسناي حيث وجدت بقاياها فوق طبقات الأنقاض المايسينية واستبدل هؤلاء الأعمدة الأسطوانية بأعمدة مخروطية الشكل قدسوها في ضريح أبولو وتطورت الأضرحة القديمة على مر الزمن بالإضافات التدريجية حتى أصبحت معابد وبدأ التطور بالجدار الذي يحيط بالضريح فأصبح في بعض الحالات سوراً منتظماً بعد أن كان بسيطا ومتعرجا ثم تناول التطور الأعمدة التي بنيت أمام الضريح، ففي العهود المباينونية المايسينية أقيم عمود أو عمودان عند مدخل الضريح ثم زاد عددها ثم أضيفت إلى بناية الضريح الرئيسية أجنحة جديدة فأصبح



معبد للإله بوسيدون عند الإغريق



معبد أبولو الأغريقي

الشكل الأساسي للمعبد الإغريقي مستطيلا وفي واجهته الأمامية تنف مسقف تسنده الأعمدة ويقابله في المؤخرة طنف مماثل لا يستعمل للدخول بل أضيف لمجرد التناسق الفني.

أما المساحة الداخلية من البناء فقد قطعت بصفين من الأعمدة قطعا طوليا لتترك بينها وبين بناية المعبد الرئيسية ممرات جانبية وفي بعض الأحيان بنيت غرف صغيرة للعبادة بإقامة القواطع بين هذه الأعمدة وبين الجدران الداخلية للهيكل.

وأصبح المعبد محاطاً من جميع الجوانب بالأعمدة للحماية وللزينة الفنية ولحمل السقوف وإراحة الجدران من ثقلها. وظهرت هذه الأعمدة الخارجية في الاستعمال لأول مرة في معبد ثرمون في اتوليا في شمال غرب اليونان ثم انتشر استعمالها في كل المعابد الإغريقية. لقد كان لعهد الطغاة في القرن السابع قبل الميلاد تأثير قوي في تطور المعابد إذ اهتم هؤلاء ببناء المعابد الضخمة لإظهار عظمتهم ومجدهم ولإيجاد فرص العمل للعاطلين كسبا لتأييدهم، ففي أثينا أعاد بسستراتوس بناء معبد الآلهة أثينا وشرع ببناء معبد ضخم للإله زيوس الأولمبي ويعود معبد كورنث الكبير الذي بقيت منه سبعة أعمدة ضخمة إلى هذا العصر. وببداية القرن السادس قبل الميلاد أصبح المعبد الإغريقي كاملا إذ وجدت فيه غرفة رئيسية مقدسة تضم تمثال الإله في مكان يكون مواجها للزائرين عند الدخول وعلى امتداد جوانب هذه الغرفة أقيمت أعمدة ضخمة وصل في بعض الحالات بينها وبين الجدار الرئيسي للمعبد للحصول على غرف داخلية وبني في مدخل المعبد وفي مؤخرته طنف مسقف جميل يستند إلى أعمدة عالية وأحيط المعبد بكامله ومن جميع جوانبه بالأعمدة الضخمة العالية التي أكسبته منظرا بديعا بما أضافته من جمال وروعة لهيبة الآلهة وجلالها.■

مَسكُوكَاتٌ

دينــار اسمــاعيــل السمين



عبد الله بن جاسم المطيري
مدير بيت الشيخ سعيد آل مكتوم- دبي
عضو الجمعية الملكية البريطانية للمسكوكات

الحاكم الثاني من الفرع الفيلالي، اسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف المراكشي الحسيني العلوي الطالبي، أبو النصر المعروف باسماعيل السمين المظفر بالله أمير المؤمنين، كان هذا الرجل من كبار ملوك الاسلام وأفضل رجال الدولة من الأشراف السجلماسيين العلويين من المغرب الاقصى، كان في حياة أخيه المولى الرشيد محمد بمكناسة الزيتون عاملاً على بلاد المغرب، ولما توفي أخوه بمراكش سنة ١٠٨٢ هـ بويع له بمكناسة، ووفد عليه أعيان فاس ببيعتهم، ثم علموا أن أهل مراكش بايعوا أحمد بن محرز بن محمد الشريف فنهض إليه اسماعيل وحاربه ودخل مراكش عنوة سنة ١٠٨٣ هـ وفر ابن محرز الى فاس، فكانت له معه وقائع انتهت بمقتل ابن محرز سنة ١٠٩٦ هـ واتخذ اسماعيل مدينة مكناسة قاعدة لملكه، وكانت أيامه أسعد أيام هذه الدولة ودامت له الخلافة والسلطان سبعاً وخمسين سنة حتى كاد دهاة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت. دوخ بلاد المغرب كلها فاستولى على سهلها ووعرها حتى وصل حدود السودان، وانتهى فيها الى ما وراء النيل وكان لديه من الأسرى خمسة وعشرون ألفا يعملون كلهم في بناء قصوره حتى أصبحت مكناسة من أعظم مدن المغرب عمرانا وآثاراً.

ألف جيشاً منظماً عظيماً وبنى ستاً وسبعين قلعة مازالت قائمة في المغرب حتى الآن وله من العقب نسلا وفيراً. كانت وفاته ٢٧ رجب سنة ١١٣٩هـ. ضرب اسماعيل السمين نقوداً من الذهب والفضة وامتازت نقوده بصفاء معدنها وجمال خطها مقارنة مع نقود الفرع الحسني. انفرد لنفسه بشعار على نقده لم يسبقه إليه أحد.

تعد دنانيره من الدنانير النادرة جداً رغم طول فترة حكمه ويعد الدينار موضوع البحث هو الدينار الوحيد في مجموعتي الذي يعود لهذا الحاكم.■

دينـــار اســمــاعــيــل الــســمــيــن

الوجه الأول



- مركز الوجه: لا إله إلا الله
- الله
- الأمر كله لله
- هـامش الـوجـه: بسـم الـلـه الـرحـمـن الـرحـيـم ضرب بفاس حاطها الله عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

الوجه الثاني



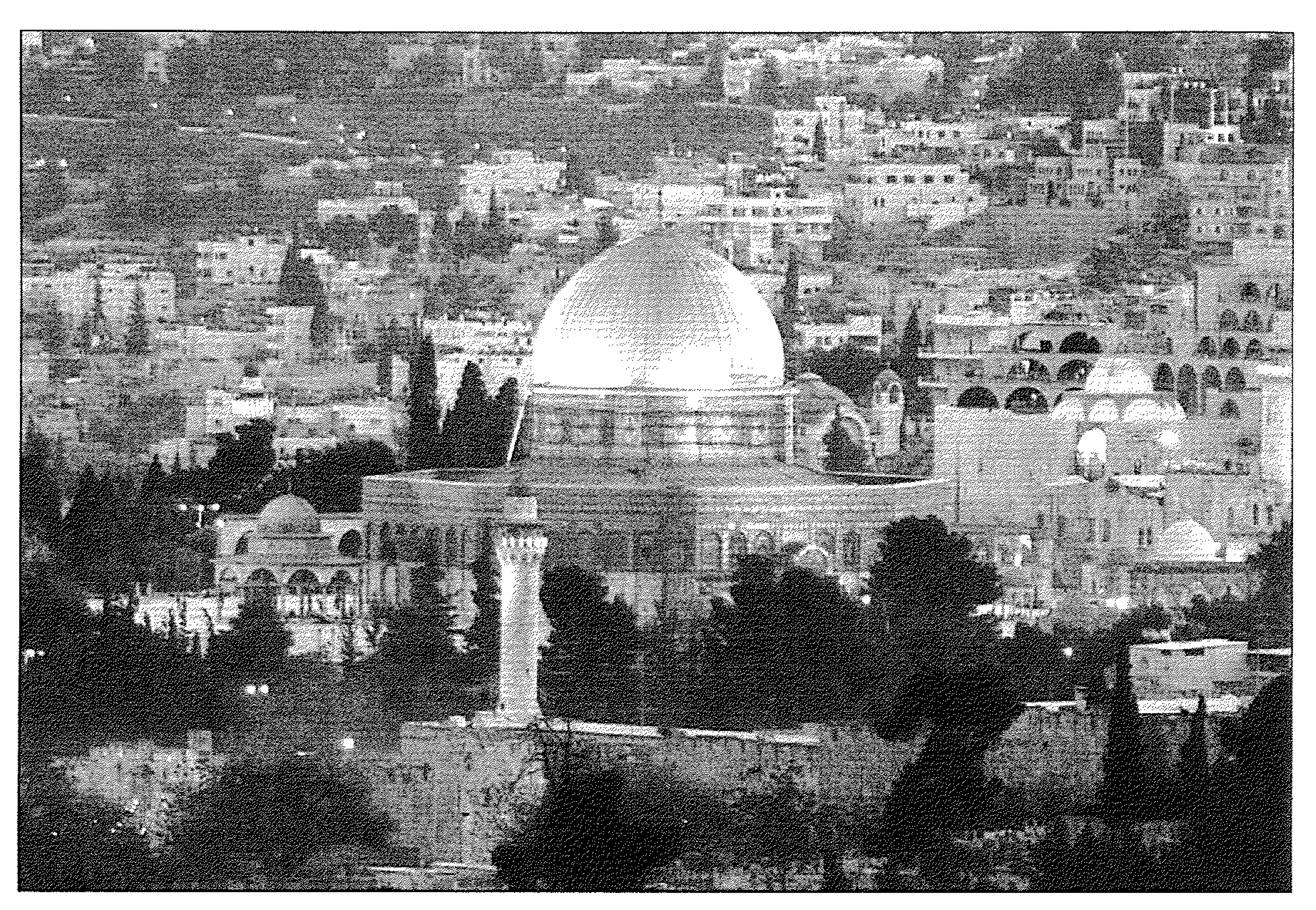
- مركز الظهر: الله حق
- ناصر الحق المبين
- هامش الظهر: وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

.. ومازال حريق الأقصى مستمراً

حتى لا ننسى.. وكيف ننسى وما زال حريق الأقصى مستمراً حتى الآن.. منذ ٢١ أغسطس ١٩٦٩م.. عندما امتدت يد آثمة لتشعل النار فيه.. وتدمر أجزاء منه.. وتحرق منبراً ما زال المسلمون يتفاخرون بأمجاد صاحبه.. هو منبر الناصر صلاح الدين.

حريق الأقصى ما زال مستمرا.. يظهر دخانه هنا وهناك.. فهل يتمكن المسلمون من إخماده يوما ما؟!.

سبعة وثلاثون عاماً مرت منذ ذلك اليوم الذي أتت فيه النيران على ما يقارب ألفاً وخمسمائة متر مربع من سقف المسجد الأقصى المبارك ومنبر البطل صلاح الدين؛ الذي حرر القدس بعد أن ذبح المحتلون أكثر من سبعين ألف مسلم في ساحات المسجد الأقصى المبارك، كما أوقع الحريق بالمسجد أضراراً مادية فادحة؛ حيث شمل أماكن كثيرة منها كما ذكرنا منبر الملك الناصر صلاح الدين الذي يمثل قطعة فنية نادرة من الخشب؛ صنعه القائد نور الدين زنكي في حلب ثم حمله إلى القدس القائد صلاح الدين، ومنها محراب زكريا بكامل مساحته التي تبلغ ٤٠٠ متر مربع بكامل نقوشه وزخارفه، ومنها أيضاً الزخارف والفسيفساء الموجودة على القبة الخشبية، والخشب المزخرف في سقف المحراب، وأصاب التلف العمودين الموصلين من ساحة القبة إلى المحراب والقوس المحمول عليهما؛ وسورة الإسراء المكتوبة بالفسيفساء المذهبة فوق المحراب؛ والجدار الجنوبي



مسجد قبة الصخرة

بجميع التصفيح الرخامي الملون.

وأتت النيران على كامل السجاد؛ وعلى ثلاث أروقات مع الأعمدة والأقواس والزخرفة؛ وعلى جزء من السقف الذي سقط على الأرض، وثمان وأربعين نافذة من النوافذ الفريدة بصناعتها وأسلوب الحفر عليها؛ الذي يمنع دخول الأشعة المباشرة إلى المسجد.

وكعادتها سارعت سلطات الاحتلال إلى التنصل من أية مسؤولية عن هذه الجريمة؛ وادعت أن مرتكبها «مايكل دينيس» مجنون؛ وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات.. ثم أطلقت سراحه.

المسجد يتألف من مئة وأربعة وأربعين دونما، وبه غرف كثيرة داخل الأقصى وفي الساحات فهناك، دار القران والمحكمة الشرعية وغرف أخرى، وهذا توضيح لجوانب وساحة المسجد وأبوابه:

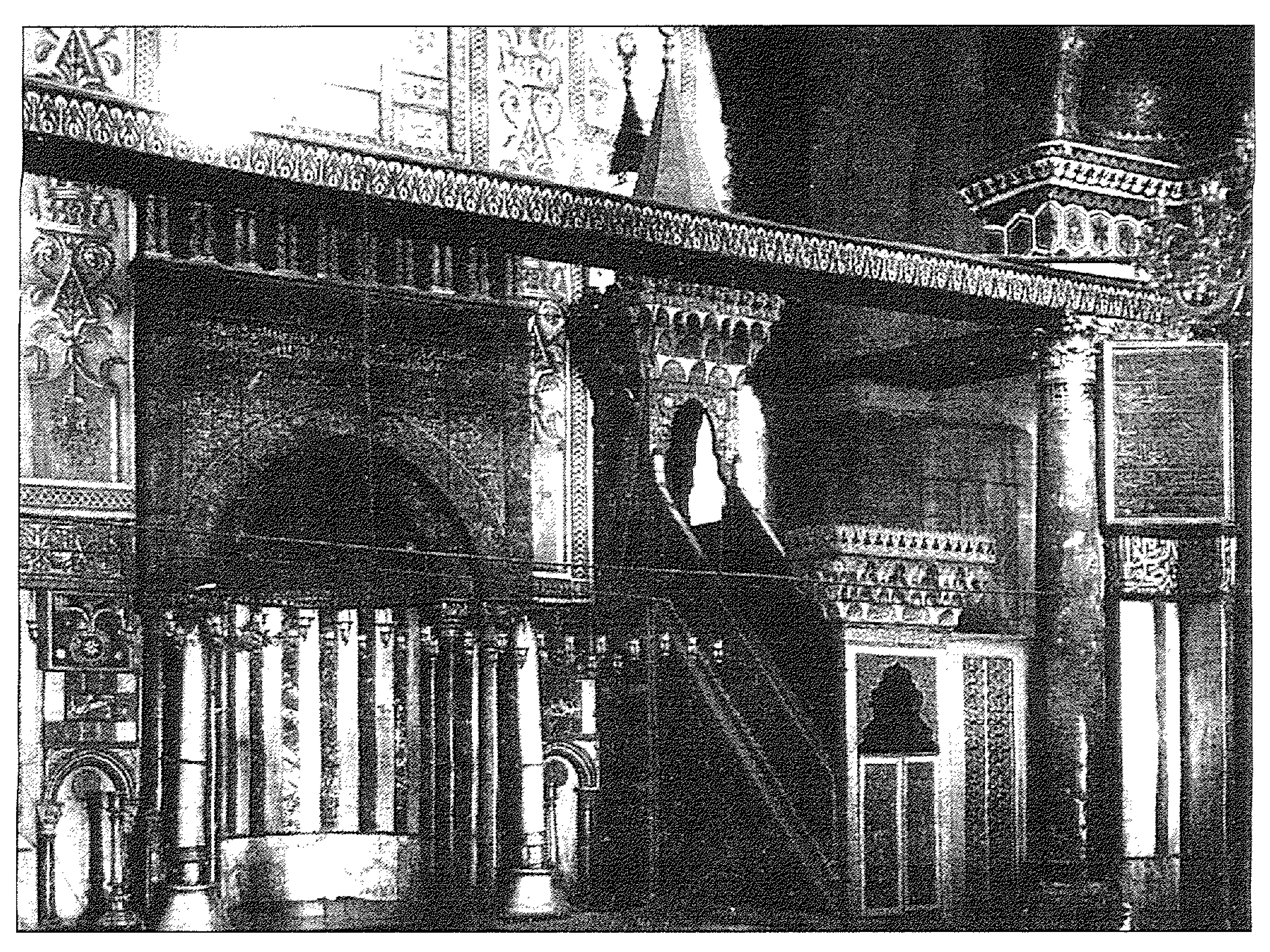
– **مبنى المسجد الأقصى المبارك:** هذا البناء الحالي بني في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتحت الرواق الاوسط يقع مبنى المسجد الأقصى القديم، والذي قامت مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية بترميمه وافتتاحه للمصلين بعد عشرات السنين من الاغلاق.

– **الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى المبارك:** وهي أعلى منطقة في سور المسجد وتعد الحد الجنوبي الشرقي للمسجد الأقصى المبارك.

– **المصلى المرواني:** وما يظهر في الصورة هو سطح المصلى المرواني الذي قامت مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية بتبليطها، بعد ان كانت قد نظفت المصلى المرواني ورممته، وافتتح في صيف ١٩٩٨ للصلاة وهو أعظم مشروع عمراني في المسجد الأقصى منذ مئات السنين.

وقد حاول اليهود بمساعدة عناصر من السلطة الاستيلاء على المصلى المرواني وبناء هيكلهم به ليكون لهم المدخل لهيكلهم المزعوم، إلا أن تنظيفه وترميمه وافتتاحه للصلاة حال دون الاستيلاء عليه، وزيارة شارون الاستفزازية للمسجد الأقصى المبارك كانت مخصصة بزيارة المصلى المرواني والدرج العظيم الذي بني كمدخل أساسي له (للاسف لا يظهر في الصورة لأن العمل تم بعد التصوير انظر رقم ٤).

– **درج المصلى المرواني:** في هذا المكان قامت مؤسسة الأقصى بالحفر والكشف عن سبعة أروقات للمصلى المرواني، وقد أخرجت آلاف الأطنان من التراب وبني درج عظيم عريض يليق بهذا المصلى الكبير.



صورة نادرة لمنبر صلاح الدين قبل الحريق

- **قبة الصخرة المشرفة:** الذي يظنه الكثير من المسلمين بأنه المسجد الاقصى، وهذا خطأ، إذ أن المسجد الأقصى هو كل شيء داخل الاسوار، ومبنى قبة الصخرة ما هو إلا مسجد مثل كثير من المساجد والمصليات والمعالم الكثيرة التي تكون المسجد الأقصى المبارك، وقد بني هذا البناء الذي يعد أجمل المساجد والعمارة قاطبة بزمن الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان، الذي خصص خراج مصر لسبع سنوات لهذا الغرض، وهذا البناء يحيط بالصخرة المشرفة التي عرج بالرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منها الى السموات العلى.

- **قصور أموية:** هذه الآثار لقصور أموية بدأت الحفريات من تحتها باتجاه المسجد الأقصى المبارك وتحت ساحاته وأبنيته، وفي سنة ١٩٩٩م قامت حكومة باراك ببناء درج حتى السور الذي هو حائط المصلى المرواني والحد الجنوبي للمسجد الأقصى المبارك.


- **الزاوية الختنثنية:** وهي أقصى الجنوب من المسجد الأقصى المبارك كانت مدخلاً للأمراء والخلفاء من قصورهم للمسجد الأقصى المبارك.

- **الزاوية الجنوبية الغربية:** هذه الزاوية تعد الحد الجنوبي الغربي للمسجد الأقصى المبارك.

- **كلية الدعوة وأصول الدين:** مبنى من مباني المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية، وقد استعمل في السابق كمدرسة، وآخر استعمال له كان كلية الدعوة وأصول الدين، وقد أُغلق بزمن الانتفاضة على أيدي السلطات الإسرائيلية.

- **المتحف الإسلامي:** وهو بناء قديم جداً وبه مقر المتحف الإسلامي، والذي يحوي آثاراً كثيرة من العهود المختلفة للحكم الإسلامي لبيت المقدس، وبداخل المتحف ما تبقى من آثار منبر نور الدين زنكي والذي احترق في سنة ١٩٦٩م على يدي مايكل روهان.

- **بوابة المغاربة:** وتقع في الجهة الغربية للمسجد الأقصى المبارك بمحاذاة حائط البراق والذي يسميه اليهود بحائط المبكى، وكانت هذه البوابة مدخلاً من حارة المغاربة والتي محيت عند احتلال القدس، حيث طرد أهلها وقتلوا على أيدي جنود إسرائيليين، والتي يقوم على آثارها الآن حارة اليهود. وقد قام الإسرائيليون باغلاق باب المغاربة بعد مجزرة



الأقصى الأولى في ٨ / ١٠ / ١٩٩٠م، بدعوى أن دخول المسلمين منه يشكل خطراً على حياة المصلين الإسرائيليين بحائط المبكى.

- **حائط البراق:** والذي ربط به المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم دابة البراق عند دخوله المسجد الأقصى المبارك، وهو ما يسميه الإسرائيليون بحائط المبكى.

- **باب السلسلة:** وهو واحد من أكبر مداخل المسجد الأقصى المبارك من جهة السوق، وتحته يمر نفق (الحشمونائيم) والذي يبدأ من الجهة الجنوبية لحائط البراق وحتى الحد الشمالي الغربي من الأقصى المبارك.

- **المدرسة العمرية:** وتقع في الجهة الشمالية للمسجد الأقصى المبارك وتعد جزءاً لا يتجزأ منه، ويحاول الإسرائيليون الاستيلاء عليها ليبنوا كنيساً لهم.

- **الحد الشمالي الغربي:** ويقع في حارة المسلمين.

- **الحد الشمالي الشرقي:** ويقع بجانب باب الأسباط.

- **باب الأسباط:** ويقع في الجهة الشمالية للمسجد الأقصى المبارك، ويعد الآن المدخل الأساسي للمصلين وخاصة من خارج القدس بعد إغلاق باب المغاربة، لأن الباصات والسيارات لا تدخل إلا من جهته.

- **بوابة الرحمة:** وهي إحدى بوابات الأقصى المبارك والتي قام صلاح الدين الايوبي بإغلاقها لأنها كانت تشكل خطراً لاقتحام الصليبيين الأقصى منها، وخارجها تقع مقبرة الرحمة.

- **مقبرة الرحمة:** وبها قبرا الصحابيين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنهما، وهذه المقبرة تستعمل حتى الآن، وبها قبر شهداء مجزرة الأقصى.

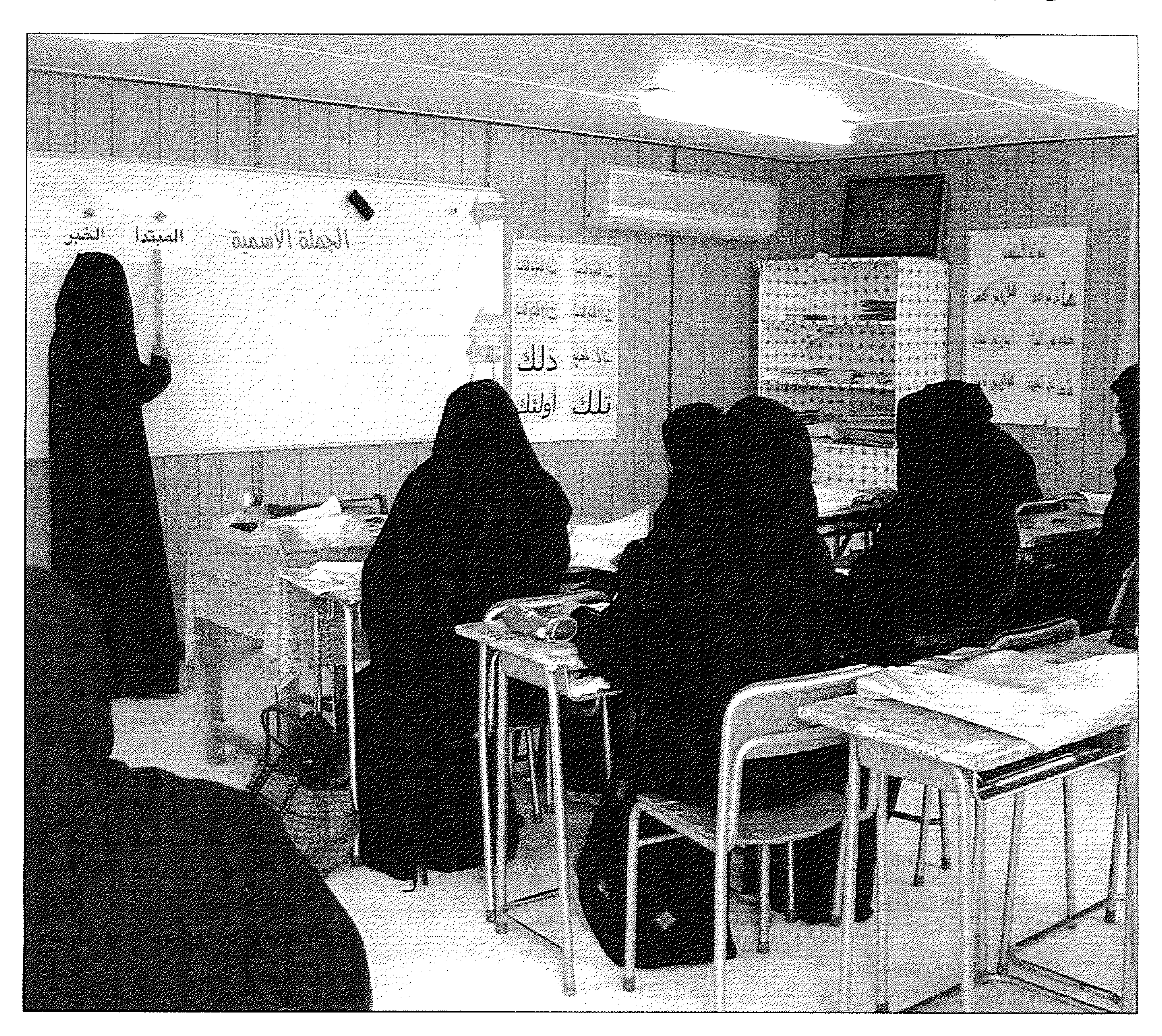
- **مقابر إسلامية.**

- **الحي الإسلامي الغربي:** وقد استولى اليهود على بعض الأبنية فيه بالقوة وحولوها إلى كنيس.

- الحي الإسلامي الشمالي: وقد حدث معه مثلما حدث مع الحي الإسلامي الغربي.■

المصدر:

http://elislam.net/modules.php?name=Content&pa=showpage&pid=54



اللغة العربية في مهب الريح (٦٨):

حول مصير اللغة العربية

■ د. محمد أحمد عبد الهادي رمضان

هل سألنا أنفسنا مرة عن الفرق بين الصالح والمصلح؟ وهل خطر ببالنا يوماً أن نسأل أنفسنا: هل نحن صالحون أم مصلحون؟ وهل هناك فرق بين الكلمتين؟ أليست الكلمتان مشتقتين من «الصلاح»؟ وما الفرق بين قوله تعالى: «ما كان ربك مهلك القرى وأهلها مصلحون» وبين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». ومن المقارنة بين الآية والحديث نعلم أن الفرق بين الصالح والمصلح كبير، وهو كالفرق بين العابد والعالم، وبين الليل والنهار، ويمكن أن نتلمس أبعاد هذا الفرق من الفرق بين الآية والحديث السابقين، ويكفينا وضوحاً واقتناعاً أن الله تعالى لايهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين، ولكنه يمكن أن يهلكها إذا كان بين أهلها صالحون.

ويمكن القول إن الصالح مفيد لنفسه فقط، أما المصلح فهو مفيد لمجتمعه وأمته، الصالح يهذب نفسه ويتعب في عبادته، والمصلح يكرس همه ونشاطه لخدمة أمته وحل ما تواجهها من مشكلات.

ونحن الآن في وطننا العربي نمر بطور من أهم أطوار حياتنا، ولم يواجه المجتمع العربي في عصر من عصوره بمثل ما هو مواجه به اليوم من مشكلات تتحداه، وإننا نلمس هذه المشكلات بأيدينا، ونبصرها بعيوننا، وليس هناك وقت أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر لمقابلة هذا التحدي عن طريق نظامنا التعليمي، وعلى ذلك ينبغي أن يقوم نظامنا التعليمي بدوره الخلقي للمستقبل، وعلينا نحن كمصلحين أن نكرس همنا ونشاطنا لدفع هذا النظام لإصلاح التعليم بوجه عام، وإصلاح لغتنا العربية وحمايتها بوجه خاص.

فالعربية اليوم «تنهار من مناهجنا التعليمية»، صرحت بذلك الدكتورة لطيفة النجار[1] رئيسة لجنة تأليف كتب اللغة العربية في وزارة التربية والتعليم إثر حوار دار بينها وبين إحدى الطالبات، التي لم تستطع تركيب جملة واحدة باللغة العربية مع أن نسبة نجاحها في امتحان الثانوية العامة للغة الأم تزيد عن ٩٠٪ أي «امتياز»، كما قالت هذه المسؤولة إن الطلاب لا يفرقون بين التاء المفتوحة والمربوطة ولا بين الاسم والفعل ولا بين الفاعل والمفعول.

ويرى كاتب السطور أن هذا الضعف ليس محصوراً في طلاب الثانوية ولكنه ممتد وموجود في طلاب الجامعة، فقد صرح د. سعيد الأفغاني، عميد اللغة العربية أن أحد طلاب الجامعات العربية أعرب لفظ الجلالة «الله»، فعلاً مضارعاً، وسأل أحد المسؤولين طالبة في السنة الثالثة «قسم اللغة العربية» في جامعة عربية: ما إعراب كلمة «هدى» من الآية القرآنية: «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» أجابت الطالبة «هدى» مبتدأ منصوب بفتحتين!

تقدم إلى الخلف

هكذا تطورت مناهج اللغة العربية في مدارسنا.. إنه تطور وتقدم إلى الخلف، وكيف تتطور إلى الأمام وقد مسخت مسخاً حين اختصر عدد الحصص المقررة لها، ورحنا ندرس الانجليزية على حساب لغتنا؟ كيف تتطور وقد أدخلت اللغة الانجليزية من الصف الأول وبصورة إجبارية؟

لقد أصبحنا كالغراب الذي أراد أن يقلد الحمامة فمشى مشيتها ونسي مشيته القديمة وعجز عن العودة إليها كما عجز عن تقليد الحمامة، فلا إلى القديم رجع ولا إلى الجديد أتقن ونحن لم نتقن لغتنا ولا لغة غيرنا، وفقدنا الاثنتين معاً.

إن من المبادئ المقررة علمياً وعالمياً إتقان اللغة الأم أولاً، ثم الانتقال فيما بعد إلى لغة أخرى، هكذا التطور إلى الأمام لا إلى الخلف.

وهنا يثور السؤال الآتي: لماذا وصلت لغتنا لهذا المستوى المتدني؟

وللإجابة عن السؤال بالتفصيل ينبغي الرجوع إلى النقاط التالية:

- أهمية لغتنا والمحاولات التي هدفت إلى النيل منها على مدى أكثر من قرن من الزمان.
- صمود الفصحى في وجه العواصف التي أثارها المغرضون.
- الحلول المقترحة للحفاظ على الفصحى مستقبلاً.

لقد تعرض العرب والمسلمون لمؤامرات عسكرية وسياسية وثقافية من جانب الغرب، لم تنقطع حتى الآن بعضها ظاهر وبعضها خفي، هدفها تمزيق وإضعاف العرب ومسخ هويتهم القومية، ومن بين ذلك محاولة القضاء على اللغة العربية الفصحى، فالفصحى تساعد على جمع كلمة الأمة على عقيدة واحدة، فهي الوسيلة لفهم القرآن الكريم، وتذوق معانيه الرفيعة، وقابليتها للحياة والحضارة والثقافة والعلم والتقدم الفكري.

والإسلام بتعاليمه الإسلامية وحثه على طلب العلم هو الذي يحفزنا على فهم اللغة العربية الفصحى، بل هو الذي حفز أجدادنا على الابتكار وتدوين جميع علوم اللغة، وأي محاولة للفصل بين القرآن والشريعة من جهة، وبين اللغة العربية الفصحى من جهة أخرى مقضي عليها بالفشل في مهدها.

أدرك المغرضون أن الفصحى تجمع العرب في أمة واحدة، بل تجمع المسلمين على اللسان العربي المبين، لسان القرآن، فتجعل منهم جسداً واحداً وثقافة واحدة، لذلك لم يكن لهم سوى هدف واحد وهو محاربة العربية الفصحى والقضاء عليها تدريجياً مستهدفين من وراء ذلك ديننا الحنيف وكتابه المجيد وتراثه التليد.

إدخال الحرف اللاتيني

وليس أدل على ذلك من قول (لورد دوفرين) في تقريره[٦]: «إن أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أن العامة تتعلم الفصحى - لغة القرآن- كما هي في الوقت الحاضر».

لقد تعرضت اللغة العربية لمحاولات شتى منها إحلال اللغات الأوروبية محلها في البلدان العربية التي تعرضت للاستعمار الأوروبي كما حدث في الجزائر، كما جرت عدة محاولات لإدخال الحرف اللاتيني في مصر ولبنان، بل إن القاضي (ولمور) الانجليزي ألف كتاباً سماه «لغة القاهرة» عام ١٩٠٢م، اقترح فيه اتخاذها لغة للعلم والأدب وكتابتها بالحروف اللاتينية.

وفي عام ١٩١٣م نادى عبد العزيز فهمي باشا - عضو مجمع اللغة العربية المصري- بكتابة العربية بالحروف اللاتينية، وأصدر كتاباً يوضح فيه طريقته، أما أنيس فريحه الخوري فلم يرض أن تكون العامية اللغة المعتمدة فقط، بل دعا إلى كتابتها بالحروف اللاتينية لتكون لغة رسمية للعرب، لأن الحرف العربي لا يصلح لتدوين اللهجة العامية[٧].

وتتابعت الكتب التي ألفها المستشرقون في تسجيل اللهجات العربية المختلفة وتدوين قواعدها، مما أدى إلى بلبلة واضطراب ومن ثم إلى ضعف شديد في لغة القوم. وعلى ذلك زعم الزاعمون للناس، وللشباب بوجه خاص، أن الضعف يرجع إلى سببين: أحدهما هو أن اللغة العربية صعبة ومعقدة لا يشبهها في تعقيدها شيء من لغات الناس، والثاني هو أن العرب من بين سائر الأمم يعانون من ازدواج ناشئ من أنهم يفكرون ويتعاملون بلغة عصرية عملية، ثم ينقلون هذا التفكير إلى لغة أخرى قديمة معتمدة حين يكتبون أدبهم ويسجلون علومهم.

وللتغلب على الزعم الأول اقترحوا إعادة النظر في قواعد العربية، نحوها وصرفها وإعادة تبويبها، وقال آخرون: إن الصعوبة كامنة في خطها لأنه لا يُثبتُ صور الحركات في صلب رسم الكلمة.

وقال فريق منهم في ذلك الكلمة الشهيرة المنسوبة إلى قاسم أمين «كل الناس يقرؤون ليفهموا، والعربي يفهم ليقرأ»، ومن هنا جاءت كل الاقتراحات التي تتعلق بالخط، فبعضها يقترح إثبات الحركات وتصويرها في رسم الكلمات، فتكتب (أحمد) أحمادو، بل ذهب بعضهم في الغلو إلى الدعوة إلى اتخاذ الحروف اللاتينية، كما فعل اتاتورك في تركيا، وكما اقترح عبد العزيز فهمي وأنيس خوري (كما سبق أن قلنا).

أما الزعم الثاني فيدعي أصحابه أن اللغة العربية عاجزة عن الصلاحية لتدوين العلوم والمعارف الحديثة، وان الازدواج المزعوم يعطل ملكاتها، فاقترحوا أن تكتب آدابنا وتدون علومنا باللهجة التي نتكلمها ونتعامل بها، وقد لقى هذا الاقتراح رواجاً في القصة والمسرحية بوجه خاص، فأصبح ما نسمعه منها وما نراه في المسارح مدوناً بهذه اللهجات العامية في كل بلاد العرب، ثم أصبحت المرافعات في المحاكم والخطب السياسية الرسمية تلقى وتدون بهذه اللهجات، ونشأ عن هذا الواقع الجديد في أقسام اللغة العربية ومعاهدها دعوة إلى دراسة اللهجات العامية وتدوينها.

وفي ظل هذه الدعوات والمزاعم كتب حافظ ابراهيم قصيدته المشهورة التي يتحدث فيها بلسان العربية:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

كما كتب العقاد عام ١٩٢٧م مقالاً يدحض القول بصعوبة فهم الفصحى، وسهولة فهم العامية يقول فيه: «وأما علة الفهم فبحسبك عامية القاهرة قلما تفهم على جليتها في بعض قرى الصعيد، وأما عامية مصر فلا تفهم في تونس ولا العراق، أو في اليمن وفلسطين، وأنت تكتب الفصحى فيفهمك من في مراكش أو في صنعاء، ومن في جاوة، ومن في نيويورك، ولكنك تكتب العامية فتحتاج إلى عشرين مترجماً ينقلونها إلى إخوانك في اللغة والأدب».

إذا عرف السبب

مما سبق يتضح لنا أن الدعوات التي بلبلت فكر الناس لم يكن لها إلا هدف واحد هو محاربة الفصحى والتخلص منها، دفعة واحدة إن أمكن، وبالتدريج إذا استعصى ذلك.

وبالتدريج استطاع هواة الحداثة أن ينفذوا من خلال نظريات علم النفس في تدريس اللغات، ففي بداية الخمسينيات من القرن الماضي استطاع بعض علماء النفس في مصر أن يقنعوا رجال التربية والتعليم بإدخال ما يسمى «الطريقة الكلية» في تعليم اللغة العربية في مدارس المرحلة الأولى في كثير من الدول العربية.

وقد شاهدت اللغة العربية تدهوراً وضعفاً منذ تطبيق هذه الطريقة الكلية، التي اقتبست من طريقة تعليم اللغات الأوروبية بها، وفي الآونة الأخيرة ارتفعت أصوات بعض الكتاب والمفكرين في مصر داعية إلى إلغاء هذه الطريقة والعودة إلى الطريقة التقليدية القديمة في تعليم اللغة العربية.

إن المشكلة الأساسية في ضعف تدريس اللغة العربية ترجع إلى أن النظريات التي بنيت عليها مناهجها لم يؤسسها علماء اللغة العربية وإنما علماء النفس التربويون الذين نهلوا من علم النفس الغربي، ولكنهم لم ينتبهوا إلى الفروق الجوهرية بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الأوروبية، كما أن أصوات علماء اللغة العربية لم تكن قادرة على مواجهة تيارات الحداثة الغربية في مختلف المجالات ومنها مجال التربية القائم على علم النفس الحديث، الذي فُتن به المثقفون العرب منذ إطلاعهم عليه وحتى الآن.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكن الدكتور عبد العزيز عبد المجيد وهو من كبار التربويين في مصر أن ينبه في عام ١٩٦١م إلى بعض خصائص اللغة العربية التي تختلف بها عن اللغات الأوروبية فقال: «أنبه إلى نقطة هامة، إن نجاح طريقة من الطرق في تعلم القراءة بلغة أوروبية لا يكفي دليلاً على إمكان نجاحها في تعليم القراءة باللغة العربية، إذ أن اللغة العربية في خطها ورسم إملائها، خصائص تخالف خصائص اللغات الأخرى، وهنا موضع الفشل لكثير من الطرق التي نجحت في تعليم القراءة باللغات الأجنبية وتطبق بنصها في اللغة العربية»[٤].

وفي الفاتح من أبريل ١٩٩٦م كتب أحمد هيكل- وزير الثقافة المصري الأسبق- مقالاً بيّن فيه أسباب ضعف اللغة العربية وتدهورها على كافة المستويات التعليمية، فقال فيما يخص تعليم اللغة العربية (في المرحلة الأولى) ما يلي: «إن أسباب الضعف اللغوي تبدأ من مرحلة التعليم الأولى، وتستمر في مراحل التعليم العام، وتتضاعف في مراحل التعليم العالي، ففي المرحلة المبكرة من التعليم، تهمل أساسيات تعليم اللغة، التي يجب أن تبدأ بتعويد النشء نطق الأصوات اللغوية، التي ترمز لها الحروف -نطقاً سليماً- كما يهمل تعليم المبتدئين علامات الشكل والمد والتشديد والتسكين والوصل، وما إلى ذلك من رموز تعين على ضبط النطق وسلامة الكتابة»[٥].

الحلول المطروحة

والآن وبعد أن تكلمنا عن أهمية لغتنا والمحاولات التي هدفت من النيل منها، لسائل أن يسأل: ما هي الحلول المقترحة لتحسين عملية اللغة للنشء، وتعليم اللغة على الوجه المرضي؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نتناول النقاط التالية:

- الإعداد الجيد للمعلم
- العودة إلى الطريقة البسيطة في تعليم العربية.
- الارتقاء بالنحو والإعراب.
- تقليص اللغات الأجنبية تدريجاً من المرحلة الأولى.

أما من ناحية إعداد معلم العربية فينبغي أن يعد الإعداد الجيد والمناسب لرسالته، وتحسين أوضاعه العلمية والمادية والمعنوية، فالمعلم الجيد هو العمود الفقري للعملية التربوية، والمثل الأعلى للجيل الجديد من الشباب، فالتلميذ يتأثر بالسلوك المقصود وغير المقصود لأستاذه.

وإذا رجعنا إلى تراثنا الإسلامي وجدنا منزلة المعلم منزلة رفيعة لدى تلاميذه ومجتمعه.

إن كليات التربية في بلادنا العربية تخرج معلماً للغة العربية لا يقوى على تدريسها في المدارس الثانوية والإعدادية لسبب جوهري هو أن مدة دراسة اللغة العربية (في كلية التربية) هي عامان ونصف العام فقط، يضاف إليها عام ونصف العام في دراسة العلوم التربوية، وهذه المدة بطبيعة الحال لا تسمن ولا تغني من جوع.

ويرى الباحث عودة معاهد التربية العالية التي كان خريج الجامعة من أي تخصص يلتحق بها ليقضي عاماً واحداً ليؤهل تربوياً دون المساس بمادة تخصصه (التي يكون قد أمضى أربع سنوات كاملة في دراستها في الجامعة).

إن معاهد إعداد معلم اللغة العربية ينبغي إعادة النظر فيها بوجه عام وكليات التربية منها بوجه خاص[٦].

البداية

أما عن العودة إلى الطريقة البسيطة في تعليم العربية فنقول قد آن الأوان دون تردد، إن الطريقة التي تعلم بها أسلافنا، والتي تعلمنا نحن بها أيضا، وهي طريقة

التعرف على الحروف المفردة للأصوات اللغوية وما يتبع ذلك من التعرف على الحركات القصيرة والطويلة التي تتصل بكل حرف من فتحة وضمة وكسرة ثم ألف وواو وياء، ثم ما يلحق بهذا التعرف على الرموز الصوتية التي تضبط الكلمات من شدّة ووصلة وقدّة وسكون، أقول قد آن الأوان لنقرر أن الطريقة البسيطة التي تعلم النشء أولاً تلك الحروف والحركات والرموز، ثم تعوده تكوين كلمات منها، ثم تكوين جمل من الكلمات، ثم موضوعات من الجمل وهكذا، تلك الطريقة البسيطة هي ما ينبغي أن نعود إليها بعد أن ثبت إخفاق تجربة الطريقة الكلية.. التي ينبغي أن يرجعوا عنها بكل شجاعة الرأي، لنفس السبب وهو تحسين عملية اللغة للنشء.

هذه هي البداية وبعدها تأتي بقية مراحل التعليم العام المختلفة، وفي هذه المراحل لا تُعلم العربية الآن على وجهها المرضي، ورغم ما يبذل من وزارة التعليم ورجالها المخلصين من جهد.. والسبب في عدم تعليم اللغة في مراحل التعليم المختلفة على وجهها المرضي، هو أن تلك المراحل يهمل فيها أهم ما يطلب في تعليم اللغة وهو تكوين «الملكة اللغوية» عند المتعلم[٧].

الارتقاء بالنحو

ولننتقل الآن إلى النقطة التالية وهي النهوض والارتقاء بالنحو؛ وقبل أن نتكلم عن هذا النهوض ينبغي علينا إبراز أهمية النحو، وبعد ذلك نتكلم عن الخطوات الواجب تتبعها للنهوض بالنحو لتحبيب أبنائنا فيه، ومن ثم، الإقبال على دراسته عن قناعة.

إن جميع العلوم لا تستغني عن النحو، ولا يستطيع المرء قراءة كتاب الله إلا بعد فهم قواعد النحو، ولكن مما يدعو للأسف إننا في أيامنا هذه نجد أقواماً هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا ومع ذلك يشوهون صورة النحو عند الأجيال الجديدة بزعمهم أن القواعد النحوية معقدة ولم تصلح لزماننا، وأخيراً تجاسروا على المناداة بإلغاء النحو.

إن القواعد النحوية التي يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة، أنتج الناس خلالها، في مختلف الأمصار الإسلامية ثروة من الكتب العربية الصحيحة لا تحصى، وهذه القرون المتطاولة أصدق شهادة لصلاحية النحو من كل ما يزعمون.

إن هؤلاء يجهلون ما للنحو من أهمية، مع أنه بالغ الأهمية ويمكن إبراز أهميته في النقاط الآتية:[٨]

١- جعل العلماء من شروط الاجتهاد المعرفة بالنحو، وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو.

٢- حث كثير من السلف على تعلم النحو فهذا عبد الملك بن مروان يقول: «تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض والسنن».

٣- وقال أيوب الأنصاري: «فعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف».

٤- قال الشاعر إسحاق بن خلف البهراني:

النحو يبسط من لسان الألكن ... والمرء تكرمه إذا لم تلحن

وبعد أن أبرزنا أهمية النحو، علينا الآن أن نتكلم عن الخطوات الواجب اتباعها للنهوض بالنحو وهي:

١- العمل على إذكاء روح الحمية والغيرة على لغتنا الأم لدى أبناء المسلمين فتزداد بالتالي عنايتهم بها.

٢- الوقوف في وجه الدعوات المغرضة التي تنادي بتيسير العربية حتى لا يجد شباب الجيل الجديد عذراً يعفيهم من التحصيل استخفافاً بهذا التيسير.

٣- العمل على تقوية مناهج النحو حيث لا تقتصر الموضوعات على بعض الأمثلة وحفظ القاعدة فقط بل أداء الكثير من التمرينات والاهتمام بالتطبيقات المكثفة.

٤- إسناد تدريس علم النحو لأساتذة متمكنين في مادتهم العلمية مما ينعكس أثره على الطالب، وبالتالي تكون محصلة الطالب الاعتزاز باللغة الأم ومن يدرسها.

٥- إعطاء مادة النحو قدراً كافياً من الحصص والمحاضرات وجعلها غالباً في أول اليوم الدراسي.

٦- ينبغي أن تكون وسائل الإعلام موصلاً جيداً للنطق الفصيح للعبارات عبر مقدمي البرامج وبذلك يصبح مقدمو البرامج قدوة حسنة لشبابنا في النطق العربي السليم.

هذه هي أهم الخطوات الواجب اتباعها للنهوض بالنحو، ولنتكلم الآن عن النقطة الأخيرة وهي: تقليص اللغة الأجنبية تدريجاً من المرحلة الأولى، فقد أدخلت اللغة الانجليزية من الصف الأول وبصورة إجبارية علما بأن المبادئ التربوية المقررة علمياً وعالمياً تتنافى مع هذا الإجراء، لأن التمكن من اللغة الأم

وإتقانها يجب أن يكونا الخطوة الأولى قبل الانتقال فيما بعد إلى لغة أخرى وهكذا يكون التطور الطبيعي.

يذكر الباحث أن هذا الإجراء الخاطئ كان متبعاً في مصر في فترة الأربعينيات من القرن الماضي فقام الوزير الأديب الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف آنذاك، بتقليص اللغة الانجليزية تدريجاً بحيث ألغيت من السنة الأولى الابتدائية في إحدى السنوات وبعد سنة أخرى ألغيت من السنة الثانية ثم أصبحت في السنة الثالثة عام ١٩٤٩م، وفي الخمسينيات من القرن الماضي ألغيت الانجليزية تماماً من التعليم الابتدائي.

وإننا عندما نعود ونُدخل الانجليزية من الصف الأول يكون تطورنا من الخلف لا من الأمام، كما سبق أن قلت.

خاتمة

وبعد أن طرحنا مسألة تحسين عملية اللغة للنشء وتعليمها على الوجه المرضي، يتوجس الباحث خيفة من خطر جديد على اللغة العربية، هو خطر العامية الإنترنتية التي بدأت في الزحف نحو العربية بالظهور في غرف المحادثة التي أخذت حماها في التفشي في عدد من الدول العربية في نهايات الألفية السابقة، وذلك من خلال برامج خاصة التي يفوق عددها الحصر، كما أصبحت تتخذ حيزاً كبيراً في الرسائل النصية المرسلة عبر الهواتف النقالة، وقد وصلت هذه الحمى في السنوات الأخيرة إلى التلفاز ويمكننا أن نراها بوضوح في أي قناة فضائية عربية تترك أسفل شاشتها هامشاً لاستقبال رسائل المشاهدين النصية التي إن دلت على شيء إنما تدل على الانحدار اللغوي الذي وصلنا إليه.

ولعل هذا هو الخطر الأول المحدق بلغتنا من حيث لا نشعر في زمن يسعى الكل فيه إلى الاختصار، والخطر الثاني هو استخدام الاختصارات الأجنبية - بحروف عربية- في المحادثات العربية، ونتيجة لهذا أصبحت لغة شريحة كبيرة من أفراد هذا الجيل (الانترنتي) مزيجاً هجيناً من كلمات وأحرف عربية وأخرى انجليزية، وبالدخول العشوائي إلى أي غرفة محادثة يمكن أن تجد هذه الاستخدامات بسهولة.

إننا ينبغي أن ندرك الفرق بين طبيعة اللغة العربية وطبيعة اللغة الانجليزية، فالانجليزية بطبيعتها تميل إلى الاختصارات - كتابة ونطقا- دون أن تتأثر سلباً بذلك، ولكن العربية لغة جمال متكامل، لا يتحقق باجتزائها أياً كان شكل هذا الاجتزاء وحجمه وسببه.

إن اللغة العربية تكتسب جماليتها من خلال ما يسمى بالنظم التي تحدث عنها عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) والذي يمثل سر إعجاز القرآن الكريم فكيف سنتمتع بلغتنا ونقف على مواضع سحرها إذا كنا سنقبل بهذا العبث؟

ألن يؤثر هذا العبث على علاقة الجيل الحالي وما بعده على العربية؟

ألن يشعروا بهوة سحيقة بينهم وبين لغتهم؟■

الهوامش

١- جريدة الخليج، منبر القراء، العدد (٩٧٢٣)، أول يناير ٢٠٠٦م.
٢- مجلة منار الإسلام، عدد ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، مقالة: (اللغة العربية في مجال الصراع بين القديم والجديد) بقلم محمد أحمد عبد الهادي رمضان.
٣- المرجع السابق.
٤- مجلة تراث، العدد (٨٠)، يوليو ٢٠٠٥م مقالة بعنوان (الطريقة الكلية.. والكيد للفصحى) بقلم محمد أحمد عبد الهادي رمضان.
٥- المرجع السابق.
٦- مجلة منار الاسلام، المرجع السابق.
٧- مجلة تراث، المرجع السابق.
٨- مجلة تراث، العدد (٦٠) نوفمبر ٢٠٠٣م، مقالة بعنوان: (أهمية النحو ومناقشة دعوى صعوبته) بقلم محمد أحمد عبد الهادي رمضان.
٩- مجلة تراث، العدد (٨٦) يناير ٢٠٠٦م، مقالة (لماذا أخفقنا في تعليم لغتنا ونجح الأقدمون) لمحمد أحمد عبد الهادي.

مراجع أخرى هامة

١- ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت.
٢- أحمد عبد الغفور عطار، وفاء اللغة العربية بحاجات هذا العصر، دار تهامة، مكة.
٣- أحمد عبد الله الباتلي، أهمية اللغة العربية، رسائل الاصلاح والفقه، مكتب الدعوة، بريطانيا.
٤- عبد العزيز عبد المجيد، اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، القاهرة، ١٩٦١م.
٥- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الاسكندرية.
٦- فاطمة البريكي، الانترنتية واللغة العربية.

اللغة المهرية.. جذور تاريخية تقاوم عصر المعلومات والانترنت!!

■ محمد السيد

في (المهرة) المحافظة الشرقية للجمهورية اليمنية والممتدة على مساحة ٩٠ ألف كيلو متر مربع والمتاخمة لسلطنة عُمان تسمع شيئاً غريباً في أذنيك يتحدث به الناس أينما ذهبت، حيث تنقلك تلك الكلمات والأصوات الجميلة إلى عالم قديم تُدرك بعد حين أنها حضارة (سبأ وحمير وقتبان).
تستطيع من خلال تلك الكلمات التي يتحدث بها (المهريون) أن تؤكد لنفسك أنك قريب من الملكة بلقيس وتستطيع محادثتها والخوض معها في غمار البطولات والحكايات عن شعبها وقوة جيشها دون قواميس أو مترجمين لأنك تمتلك لغتها التي حفظها لنا سكان محافظة المهرة اليمنية جيلاً بعد جيل حتى اليوم.

إنها (اللغة المهرية) المتميزة بجذورها التاريخية، غنيّة بمصطلحاتها وتراكيبها وجملها إحتضنت الأدباء والشعراء وتغنى بها الفنانون، ورقص على أهازيجها بنات القوم وشبابها في كل وقت وحين.

ورغم إنها لغة صوتية لا تمتلك حروفاً خاصة فقد طوّعها الباحثون لتُكتب بأي حروف عربية أو انجليزية، لكنك مع ذلك كله تلمح سمة القلق بادية على وجوه تخشى أن تندثر لغتهم وتلحق بأمهاتها من اللغات اليمنية القديمة التي طواها الزمن.

عاملان يُثيران الجدل والمخاوف بين أوساط الباحثين والمهتمين في اليمن وخارجها حول مستقبل هذه اللغة واستمراريتها أو اندثارها، أولهما التعليم الحكومي الذي ينتشر في كل مكان بما فيه تعليم اللغات الأجنبية الأخرى.

وثانيهما الإعلام بشقية المرئي والمسموع والذي تعزز مؤخراً في كل أرجاء المحافظة بظهور أطباق استقبال القنوات الفضائية وانتشارها في معظم المنازل المهرية سواءً في المدن أو القرى.

«تراث» تابعت أغوار هذه اللغة وطبيعتها وقاسمت الباحثين والمهتمين قلقهم ومخاوفهم من اندثار هذه اللغة.

أول الكلام

تُصنف اللغة المهرية بأنها لغة يمنية قديمة من بقايا لغات ممالك (حمير وقتبان وسبأ) وتعزز هذا الرأي بما أشار إليه المستشرقون في بحوثهم خلال القرنين الماضيين من أن انهيار سد مأرب أدى إلى اندثار حضارات تلك الأمم وما صاحبها من هجرات خارجية وداخلية، ومنها إلى منطقة المهرة التي تُنسب إلى (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة) والتي نزحت إليها مختلف القبائل اليمنية كقبائل تهمدان والأرض وكنده وبضاعة وبني حمير، وغيرهم من السكان والفئات الأخرى بعد انهيار سد مأرب ويبدو أن البعد الجغرافي للمهرة جعل أهلها يحافظون على هذه اللغة من الاندثار.

يشير الباحث صبري محمد بخيت من أهالي منطقة (حوف) على الحدود اليمنية- العمانية أن العلماء اللغويين يصنفون اللغة المهرية بأنها لغة مستقلة حية وليست لهجة كما يظن البعض كونها تمتلك مقومات اللغات الحية من الآداب والقواعد النحوية والصرفية، فاللغة المهرية لها أفعالها وتصريفاتها وآدابها وتراثها الشعري بكل أنواعه، وكذا الأغاني والأهازيج وأناشيد المناسبات وهي قادرة على إنتاج كل جديد في هذا المجال.

الباحث صبري الذي درس في جامعة (السوربون) الفرنسية بباريس لمدة عامين منتصف الثمانينات يؤكد اهتمام العلماء اللغويين الفرنسيين بهذه اللغة منذ نحو قرن وما زالوا يواصلون حالياً بحوثهم حولها بالتعاون مع جامعتي عدن وصنعاء. حيث نراه يعطي أمثلة على الفعل في اللغة المهرية ومنها الفعل المهري (يحوم) ومعناه العربي (يريد) فالجملة العربية «محمد يريد أن يسافر» تُنطق بالمهرية (محمد يحوم لهجوم) و«محمد ذهب إلى المدرسة» تُنطق «محمد هقرور مدسيت» و«سعد خرج من البيت» تنطق «ساد خروج من ابيت».

دراسة اللغة المهرية

أثناء تجوالنا في الغيظة عاصمة محافظة المهرة دلنا الناس على عالم وباحث ومؤلف في اللغة المهرية هو(سالم لُحيمر محمد القميري) وهناك في منزله بحي بن غونه قال لنا: إن هناك ثلاث لهجات في اللغة المهرية نتجت على ما يبدو من اتساع المساحة الجغرافية وتداخل الناس مع قبائل أخرى.

السيد سالم لحمير أنشأ بمجهود ذاتي مركزاً لدراسة اللغة المهرية والسبب في اتخاذه هذه الخطوة- كما يقول- جاء بدافع المسؤولية التي يجب أن يتحملها الجميع تجاه اللغة المهرية التي حافظت على بقائها حية من الاندثار والاضمحلال في لغات العصر الحديث وحافظت على ساميتها وسبيتها، فقد رأيتُ لازماً علينا إنشاء مركز يُعنى بدراسة هذه اللغة وآدابها وأشعارها والتراث الشعبي المرتبط بها من خلال علماء اللغة اليمنيين والعمانيين والأوروبيين ذوي الصلة بدراسة اللغة العربية الجنوبية والهدف يتمثل في إحياء وتجديد اللغات (المهرية والشحرية العمانية والسقطرية والحرسوسية واللهجة البطحرية العمانية والهبيوت). حيث إن هذه اللغات يمنية وعمانية قديمة قدم الأرض اليمنية العمانية.

طبقاً للدراسات الميدانية التي أُجريت على اللغة المهرية من قبل الباحثين المحليين والأجانب، اتفقت الآراء على أن اللغة المهرية لغة واحدة، وأن الاختلافات الظاهرة في النطق أو بعض الكلمات من منطقة إلى أخرى إنما تنبع من وجود لهجات متنوعة.

ويؤكد سالم لحمير رئيس مركز دراسات اللغة المهرية، أن اللهجات التابعة للغة المهرية كثيرة أهمها الجبالية والشحرية والحرسوسية ويتكلم بها قبائل الحراسيس الموجودون على الحدود اليمنية العمانية وبعض من منطقة الشمال الشرقي.

أما اللهجة المهرية التي يتكلم بها أبناء مديرية حوف جنوب شرق المهرة والذين يسكنون الجبال فتسمى اللهجة الجبالية.

الكتابة

كانت اللغة المهرية إلى وقت قريب لغة صوتية يتحدث بها الناس فقط دون أن يتمكنوا من كتابتها وقد تم الآن كما يقول السيد سالم لحمير الكتابة باللغة العربية واستخدام جميع الحروف العربية ماعدا حرفي (س وص) فينطق حرف السين مقارباً للشين مثلا كلمة نار باللغة المهرية تنطق (سيوط) وهي تكتب (شيوط) وكذلك الحرف (ص) ينطق ما بين حرفي (س و ص) ويكتب على الـ (ص) بثلاث نقاط.ظ

انتشار

الناس في المهرة يتكلمون اللغة المهرية إضافة إلى إجادتهم للغة العربية وهم لا يجدون صعوبة في التخاطب بين بعضهم البعض بهذه اللغة ووجدنا أن الأطفال يتقنون هذه اللغة أيضاً ولا يجدون صعوبة في ذلك، حيث يقول الباحث صبري بخيت إنّ اللغة المهرية يمكن تعليمها للآخرين فهي مثل أي لغة أخرى يمكن تعلمها في أي وقت كما أن تعليمها للناطقين باللغة العربية يعد سهلاً، ويرجع ذلك إلى قربها للغة العربية الحديثة وبها العديد من المفردات المما ثلة.

ويشير صبري إلى أن الطفل المهري يتعلمها من أسرته في البيت واندماجه مع المجتمع وحين يدخل الطفل المدرسة يتعلم الحروف والكتابة العربية مبتدئاً ويستوعب ذلك بسهولة.

قلق!

تبدو على وجه (المهريين) سمات القلق من مخاوف إندثار هذه اللغة رغم أنهم يحاولون إخفاء هذا الشعور، وقد بدأ سالم الحميّر القمري في استجماع قواه فأنشأ مركزاً لدراسة هذه اللغة، يهدف كما يقول إلى دراسة اللغة المهرية وآدابها وأشعارها التراثية الشعبية المرتبطة بها، لكنه يصف إنطلاقة العمل بالمخيبة للآمال حيث لم يجد الدعم والمساندة الكافية في المحافظة عليها سواء من الجهات الرسمية أو الفعاليات الشعبية إذ تُعد محاولته هذه -في نظرهذه الجهات- تعيق جهود الحكومة واتجاهها للتوسع في نشر تعليم اللغة العربية للجميع.

رئيس مركز دراسات اللغة المهرية، كان قد عكف سابقاً على تأليف كتاب عن اللغة والقبيلة في المهرة واستطاع بجهوده الذاتية إخراجه للعلن ليصل إلى الباحثين والمهتمين بعد جهود استمرت ١٥ سنة! وهو مايزيد من مخاوف اندثار اللغة المهرية، الذي ينبع من عاملين أساسيين -كما يقول رئيس المركز- الأول الإعلام المرئي والمسموع القوي والثاني يتمثل بالتعليم العربي الذي ينتشر في كافة أرجاء المحافظة مدعوماً بزخم حكومي جاد لتوسيع التعليم للجميع وبصورة مجانية.

مخاوف من اندثارها وصيحات عالمية للحفاظ عليها

كما عزز ذلك الإقبال الكبير لسكان الأرياف والقرى على اقتناء الأطباق الفضائية بصورة جنونية. بالإضافة إلى الهرولة باتجاه المدنية بكل إغراءاتها وصرعاتها وموضاتها التي تخاصم القديم، ناهيك عن إغراء وسحر الشبكة العنكبوتية حيث أصبحت مقاهي الإنترنت تضيق بعشرات الشباب والمرتادين!

ويشير باحثون اجتماعيون ولغويون إلى أن بيئة الاندماج بين المهريين ولغات أُخرى غزت منطقتهم وعلى رأسها اللغات العربية والانجليزية وغيرهما، مما يشكل هو الآخر عائقا أمام إستمرار وبقاء هذه اللغة القديمة، بل والتسريع في تلاشيها في وقت قصير جداً.

لكن يبقى البيت والأسرة والقبيلة عوامل يمكنها التخفيف من ضغوط تلك (المقلقات) على حد وصف المهتمين هنا بمستقبل هذه اللغة.

ويأمل المهريون من الجهات الرسمية التحرك سريعاً للحفاظ على هذا التراث اللغوي، وألا تقف موقف المتفرج من المصير الذي ستؤول إليه إذا ما بقي هذا

الحال على ماهو عليه!

إهتمام عالمي

هناك العديد من الباحثين والعلماء الأجانب الذين اهتموا بدراسة اللغة المهرية حيث بدأ الألمان إهتمامهم منذ عام ١٨٠٨م من خلال تسجيل لقاءات مع بعض أبناء المهرة ويقال إن الباحث والعالم بنلتسون أعد ثلاثة قواميس علمية لهذه اللغة هي (الجبالي والحرسوسي والمهري)، تتناول هذه القواميس تعريفات اللغة المهرية وأ فعالها والكلمة ومعناها، كما يوضح أصلها وجذورها وتفصيلها إلى المصدر والفعل والأمر.

كما قام العالمان الالمانيان ماكسميلان يتنزر وماريا هوفز وليلاو والتر موللر وكذا الباحث الروسي فيتال ناؤمكين ولونه من فرنسا بدراسة اللغة المهرية.

ولاقت هذه اللغة اهتماماً من جامعة السوربون الفرنسية منذ عام ١٩٨١م حيث وقعت إتفاقية تعاون مع جامعة عدن اليمنية نصت على العمل لتوثيق اللغة المهرية ميدانياً وعملت دراسات علمية مستفيضة حولها، وذلك الى جانب مانفذته جامعتي صنعاء وعدن من جهود كبيرة في توثيق هذه اللغة وعادات وتقاليدالناطقين بها. ■

نماذج من اللغة المهرية

المهرية	العربية	المهرية	العربية	المهرية	العربية
زوم	هذا	كركص	أصفر	هة سيرونا	أنا ذاهب
زيم	هذه	هضور	أخضر	هام سيروم	هم ذهبوا
اليومه	هؤلاء	عوفر	أحمر	نهه سيرون	نحن ذهبنا
بروت		عفروت	حمراء	هه يحوم يته	هو يريد يأكل
ذيمة	هذه	حور	أسود	هه غلقك	أنا نظرت
ذه	هذا			هام شخو وليلم	هم جلسوا
ليك	هؤلاء	طاط	واحد	سان تحومن تشتومن	هن يردن أن يشترين
		ثروة	اثنين	عمور	قال
هوه	أنا	ثالثيت	ثلاثة	عمور هيني	قال لي
هيت	أنت	أربعوت	أربعة	عمور هه	قال له
هة	هو	خمسوة	خمسة	عمور هيم	قال لهم
هيني	أنتِ	هيتيت	ستة		
سه	هي	هيبعيت	سبعة	هت بخير	أنت بخير
تيم	أنتم	ثمنيت	ثمانية	هو بيك بخير	أهلك بخير
هيم	هم	سعايت	تسعة	جنينك بخير	أولادك بخير
سين	هن	عشاريت	عشرة	هوبن بخير	الناس بخير
		مؤين	مائة	حاد نوكع	أحد جاء
جمعات	الجمعة			فلان لحوه سيور	فلان أين ذهب
سبت	السبت	حره	رأس	سيور سوق	ذهب إلى السوق
لحد	الأحد	جمجموت	جمجمة	حوم قوت	أريد أكل
لثنين	الإثنين	حيد	يد	حوم شاي	أريد شاي
ثلوث	الثلاثاء	عظميت	الظهر		
ربوع	الأربعاء	مثوني	أسنان		
خميس	الخميس	وجه	الوجه		
		قاعم	رجل		
لبون	أبيض	عينيتين	العيون		

القلصـــادي

■ أ.د. بركات محمد مراد*

عرف علماء المسلمين للثقافة الرياضية أهمية عظيمة في ماضي المنجزات البشرية وحاضرها ومستقبلها، وأن الرياضيات كانت في عصر المصريين القدماء والبابليين والرومان والإغريق أداة لحل المشكلات اليومية، ووسيلة من وسائل العلوم الطبيعية، وأن دراسة تاريخ أي ثقافة دون دراسة الرياضيات فيها تعطي صورة ناقصة مشوهة.

لهذا ركز علماء المسلمين في بداية الأمر على علم الرياضيات، فترجموا الأعمال الرياضية الإغريقية والهندية، وأسهموا في تطوير هذه الرياضيات بعد هضمها وتمثلها، وأضافوا إليها الكثير من جوانب عبقريتهم، مما حدا بالمفكر (لام لاند) في كتابه (مآثر الحضارة) إلى القول: «إن المسلمين قدموا كثيراً من الابتكارات في حقل الرياضيات، ومع ذلك فإن معظم الأمريكان والأوروبيين لم يعودوا يتذكرون من أي مخزن اكتسب العالم المسيحي الأدوات التي لا يمكن أن تصل الحضارة الغربية إلى مستواها الحالي إلا بها». كما يقول توفيق الطويل في كتابه (العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي): «حقيقة أن العرب قد تلقوا تراث أسلافهم من الرياضيين في مصر والعراق والهند واليونان، ولكن الرياضيات تدين لشطر كبير من تقدمها لعلماء العرب، بل إن بين مؤرخي العلم من الغربيين من يجاهر بأن بعض فروع الرياضيات اختراع عربي».

* أستاذ الفلسفة الإسلامية - قسم الفلسفة والاجتماع

وكما يقول الدكتور علي عبد الله الدفاع في كتابه (العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية[1]): إن علماء العرب والمسلمين أبدوا اهتماماً بالغاً بالعلم الرياضي بفروعه المختلفة، وركزوا في دراستهم على اتجاهين، الاتجاه الأول هو استيعاب الموضوع نفسه، والقيام بالعديد من الابتكارات الجديدة التي لم يسبقهم أحد بها. أما الاتجاه الآخر فهو الناحية التطبيقية في المجالات المختلفة، مثل الفلك والهندسة الميكانيكية، والضوء والهندسة المعمارية، وحساب المواريث، والأعمال التجارية، وغيرها مما يستدعي معرفة رياضية.

وقد تمكن العلماء المسلمون من تطوير نظامين لكتابة الأرقام، ساعدوا بهما البشرية في تقدم النسق الرياضي وتطوره، النظام الأول: ويسمى بالأرقام الغبارية، وهذا الاسم بسبب كتابتها على منضدة أو لوحة من الرمل عند إجراء العمليات الحسابية، وهي المنتشرة في المغرب العربي بما في ذلك الأندلس، ومنها دخلت إلى أوروبا وسميت بالأرقام العربية (Arabic Numbers)، والنظام الآخر الأرقام الهندية التي انتشرت في الأقطار الإسلامية والعربية المشرقية. وتستعمل اليوم معظم شعوب العالم الأرقام الغبارية (1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 0).

ولقد بنى علماء العرب والمسلمين معرفتهم للأرقام الغبارية على نظرية الزاوية، وذلك بتعيين زاوية لكل رقم، فمثلاً الرقم (1) له زاوية واحدة (1) ، وللرقم (2) زاويتان (Z) وهكذا بقية الأرقام.

وقد مر على هذه الأرقام تعديلات كثيرة نتيجة الاستعمال المستمر في الدولة الإسلامية، ولكن عندما وصلت إلى أوروبا كانت في شكلها الحاضر تقريباً.

وقد عرف العلماء المسلمون الصفر من علم الحساب البابلي وطوروا مفهومه، والذي سهل العمليات الحسابية تسهيلاً لا حدود له، إضافة إلى استحداثهم مفاهيم رياضية أخرى كثيرة مثل الرموز الرياضية المستخدمة في علم الجبر وحساب المثلثات، بل ساهم علماؤهم مثل الخوارزمي (٧٨٠- ٨٥٠م) في تكوين ونشأة فرع جديد من الرياضيات هو (الجبر) الذي ينسب إليه ويأخذ اسمه من اسمه. وقد عرف عمل الخوارزمي عند أوروبا عندما ارتبط اسمه باسم حساب اللوغاريتمات Algorithm. كما أن عمله في علم الجبر لم يعط اسماً لهذا الفرع المهم من فروع

الرياضيات لأوروبا فحسب، وإنما أضاف إليه الحلول التحليلية والهندسية للمعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية.

وقد ظل كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة)، معروفاً في أوروبا باللغة اللاتينية يتتلمذون عليه ويصدرون عنه. وقد ألفه الخوارزمي لسد الاحتياجات العملية للناس والتي تتعلق بالميراث وتقسيم الممتلكات والتجارة، مما ساعد على تعمق علم الفرائض وهو علم الحصص الشرعية للورثة الطبيعيين، وبذلك كان علماء الرياضيات من المسلمين مرتبطين دائماً بمشكلات الحياة.

وقد كانت أعمال كاتبنا (القلصادي) هي امتداد أكاديمي وعملي للرياضات العربية، حيث اشتهر هذا العالم بعلم الحساب، فكتب كتابه (كشف الأسرار عن علم الغبار) حيث كان أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية التي تستعمل إلى يومنا الحاضر. ويذكر أنور الرفاعي في كتابه (الإسلام في حضارته ونظمه): أن القلصادي استعمل حرف (ج) للجذر، و(ش) للشيء (أي المجهول س)، و(م) للمال) (أي للمربع المجهول س)، و(ك) للكعب (أي لكعب المجهول س)، والحرف (ل) لعلامة يساوي، وللنسبة ثلاث نقاط (أن ∴). وهذا واضح في مؤلف القلصادي (كشف الأسرار) بل هو واضح في كل مؤلفاته الأخرى في علم الحساب والجبر، الذي تعمق في مسائله، وربطه بحاجات المجتمع ومشكلاته.

ومع الأسف أنكر علماء الغرب اتباعهم للقلصادي في ابتكاره للرموز والإشارات الجبرية، بل تعدى تجاهلهم ذلك بأن نسبوا هذا الاكتشاف إلى (فرانسوا فيته)[٢] خطأ وتعنتاً والذي أتى بعد القلصادي بما يقارب القرن والنصف.

ويقول جلال مظهر في كتابه (أثر العرب في الحضارة الأوروبية): «ينبغي أن لا ننسى أن العرب قد سبقوا (فيته) في مبدأ استعمال الرموز. ولا شك في أن كثيراً من علماء أوروبا قد اطلعوا على بحوث العرب في الهندسة والجبر. ومن الأرجح جداً أن فيته عرف شيئاً عن محتويات كتاب القلصادي (كشف الأسرار عن علم الغبار)، والذي نقل إلى اللغة اللاتينية في مبدأ استعمال الرموز. فأخذه فيته وتوسع فيه بالشكل الذي نعرفه الآن».

وأضاف محمد سويسي في تحقيقه لكتاب (تلخيص أعمال الحساب) لابن البناء بقوله: «شرح القلصادي عمل ابن البناء في الحساب وأضاف إليه عدة إضافات ذات بال، خاصة في نظرية الكسور وفي إيجاد الأعداد الناقصة والزائدة والمتحابة. وقد يكون القلصادي هو أول من رسم الكسور على شكلها الحالي، وهو الذي استعمل حرف الجيم للدلالة على الجذر وذاك كان أصل الرمز المستعمل اليوم للجذر التربيعي».

وفي الحقيقة فالقلصادي قد شرح بدقة متناهية طريقة إيجاد الجذر لأي عدد، وهي الطريقة المعروفة لدى علماء العرب والمسلمين السابقين له، كما أنه طور هذه الطريقة لإيجاد الجذر التربيعي، وجعل لها شروطاً تضبطها، كما هو واضح في مؤلفه هذا.

نسبته ونشأته

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي المعروف بالقلصادي، ولد ببسطة في الأندلس، وإليها ينسب عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وتوفي عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، درس القلصادي ببسطة وتتلمذ على كبار علمائها، ثم انتقل إلى غرناطة فاستوطنها لطلب العلم، ويذكر خير الدين الزركلي في كتابه (الأعلام): «أن القلصادي عالم كبير بالحساب، فقيه من فقهاء المالكية، وهو آخر المؤلفين من أهل الأندلس، وكان حريصاً على طلب العلم، حتى انه عندما قصد الحج توقف في طريقه بكثير من المدن لتلقي العلم على كبار علمائها، كي تتوسع مداركه، وكان أكثر نبوغه في الرياضيات».

ويروي لنا محمد سويسي في تحقيقه لكتاب (تلخيص أعمال الحساب) لابن المراكشي أن القلصادي بعد أن أدى مناسك الحج رجع إلى غرناطة فعاش فيها ردحاً من الزمن، وذلك في الفترة التي كانت الاضطرابات على أشدها لمحاولة النصارى الاستيلاء على آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وقد شارك القلصادي في المقاومة ضد النصارى، ثم غادر غرناطة إلى شمال أفريقيا حيث توفي قبل ست سنوات من سقوط غرناطة من يد المسلمين.

ومن كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) لأبي العباس أحمد بابا التنبكتي على هامش (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب) لابن فرحون نستمد معظم الإشارات عن حياة القلصادي وآثاره العلمية، فمن شيوخه بتلمسان: أبو العباس أحمد الشهير بابن زاغو، والذي قرأ عليه البخاري ومسلم،

وأخذ عنه التفسير والحديث والفقه والأصول، كما تعلم منه الحساب والفرائض والهندسة فضلاً عن التصوف، كما كان من شيوخه أبو الفضل العقباني الذي قرأ عليه المختصرات وحكم ابن عطاء الله، ومحمد بن البخاري الذي قرأ عليه مستصفى الغزالي وتفسير القرآن وقواعد القرافي وبعض الألفية، والمرادي، فضلاً عن الشريف التلمساني وأبي القاسم الشهير بالحداد والإمام النحوي المستيري وكثير من العلماء الآخرين.

وقد تفرغ القلصادي بعد عودته إلى غرناطة للعلم، وكان على قدم في الاجتهاد ومواظبة الإقراء والتدريس. كما تفرغ للتصنيف فكان (آخر من له التآليف الكثيرة في أئمة الأندلس) وأخذ عنه شيوخ أجلة مثل أبي عبد الله الملالي وأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي وأحمد بن علي بن داود البلوي وآخرين. وقد توفي عن سن بلغت ستاً وثمانين سنة حيث أدركته المنية بباجة قبيل سقوط غرناطة بين أيدي الفرنجة.

أهم مصنفاته

يوردها صاحب (نيل الابتهاج) ونلاحظ فيها تنوعاً وشمولاً، وقد طبع البعض منها وبقي عدد كبير منها ما زال مخطوطاً.

أ. مصنفات الحساب والجبر: تبصرة المبتدي بالقلم الهندسي. التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد اللائحة، كشف الجلباب عن علم الحساب، كشف الأسرار عن علم حروف الغبار، انكشاف الجلباب عن فنون الحساب، قانون الحساب وغنية ذوي الألباب، رسالة في معاني الكسر والبسط، رسالة في معرفة استخراج المركب والبسيط، شرح الأرجوزة الياسمينية، شرح تلخيص ابن البناء، شرح ذوات الأسماء، غنية ذوي الألباب في شرح الجلباب.

ب ـ مصنفات الفرائض: بغية المبتدئ وغنية المنتهي، لباب تقريب المواريث ومنتهى العقول البواحث، الضروري في علم المواريث، المستوفي لمسائل الحوفي، شرح الفرائض لابن الحاجب، شرح الفرائض لصالح بن الشريف، وابن الشاط، شرح مختصر العقباني، وشرحان على التلمساني، وتقريب المواريث وتنبيه البواعث.

ج ـ مصنفات في الفقه المالكي والحديث ومدح الرسول ﷺ: وهي رسائل كثيرة مثل أشرف المسالك إلى مذهب مالك، وهداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام، وشرح حكم ابن عطاء الله وغيرها.

د ـ مصنفات في النحو: مثل غنية النحاة مع شرحين لها، وشرح الأجرومية، وشرح ألفية ابن مالك وغيرها.

هـ ـ مصنفات في العروض والقوافي: مثل مختصر في العروض، وشرح الخزرجية، وهناك متفرقات أخرى من التآليف المتنوعة في مختلف العلوم العربية من لغوية ومنطقية وسياسية.

مضمون وتحليل «كشف الأسرار عن علم حروف الغبار»

أما محتوى كشف الأسرار، فهو ملخص وجيز في الحساب والجبر جُعل في متناول المبتدئين، سهل العبارة، يسير الإدراك، وصنيع القلصادي فيه الإكثار من الأمثلة، يرمي من وراء ذلك إلى زيادة التوضيح وإلى تصوير العمليات الرياضية تصويراً جلياً.

ونرى المصنف يتوخى الأسلوب التدريسي التعليمي، فيذكر الملاحظات ويعيد العمل الواحد مراراً، اعتقاداً منه بأن في الإعادة إفادة، ويخاطب القارئ مباشرة مستعملاً طريقة الحوار كي يساهم القارئ نفسه في حل المشكل وفي إجراء العمليات المنعوتة، كأن يقول: «إذا كان لك كذا وكذا فالعمل كذا ويحصل لك كذا» ويتضمن هذا الملخص ٣٦ ورقة ويشتمل على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة.

وقسّم فيه كل باب إلى ثمانية فصول، في الباب الأول: في العدد الصحيح، تناول في الفصل الأول: الجمع، والثاني: الطرح، والثالث: الضرب، والرابع: القسمة، والخامس: تحليل الأعداد إلى أئمتها، والسادس: التسمية والنسبة، والسابع: التقسيم التناسبي، والثامن: ميزان العمليات.

وفي الباب الثاني: تناول الكسور ويستهله بمقدمة يعرف فيها الكسر ومصطلحاته ثم تليه العمليات بإدخال عمليتي الحط والصرف.

والباب الثالث: تناول فيه الجذور واستخراجها وتدقيق التقريب فيها والعمليات التابعة لها والكميات المتصلة والمنفصلة.

والباب الرابع: في استخراج المجهول وفي الأعداد

المتناسبة والكفات والجبر والمقابلة وحل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية.

الخاتمة: في المتواليات العددية والمتواليات الهندسية وتجميعها.

وكان لهذا الكتاب الصغير الحجم كبير الأثر، فكان طوال قرون المرجع الأول لأهل الحساب والجبر. وصُنفت عليه شروح عديدة يذكر منها المحقق: هداية البادي لكتاب القلصادي، تأليف سالم بن سالم القيرواني، وإغاثة ذوي الاستبصار على كشف الأستار لمحمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، وشرح كشف الأستار، وهو شرح ضخم كبير الفائدة، ألّفه الشيخ طفيش نزيل غرداية من مزاب الجزائر، ومنحة الأفكار لإبراز الإضمار من كشف الأسرار في علم حروف الغبار، تأليف الفقيه أقصبي.

ومن هذا يتبيّن لنا أن تكوين القلصادي الثقافي كان متنوعاً وشاملاً، فقد أخذ من كل علم بنصيب وافر، وبلغ في كثير من الميادين العلمية - وهذا واضح من ثبت مؤلفاته - درجة الاجتهاد.

ولئن كان في العديد من المسائل راوياً جامعاً، فقد امتاز بحسن الترتيب والتبويب وبالعناية بالتفريع والتمثيل، وهي مهام علمية وتربوية في المقام الأول. كان المجتمع الإسلامي في أشد الحاجة إليها. ولكن أهم ميدان كان فيه المجلى فاشتهر به ونقل فيه عنه ميدان الرياضيات والفرائض، ومن أطرف ما يؤثر عنه ميله إلى تبسيط المسائل الرياضية، فتجد في مصنفاته أول أثر في الحساب والجبر لاختصار العمليات والمعادلات، وأول استعمال للرموز المختزلة والعلامات الدالة على العلاقات والمجاهيل. فقد اقتصر على حرف الشين وأحياناً على نقط إعجامه الثلاثة للدلالة على الشيء، وهو العدد المجهول، كما استعمل حرف الميم للمال، وهو مربع المجهول، وحرف الكاف للمكعب، وحرف اللام، آخر حروف يعدل، للدلالة على المعادلة، وحرف الجيم للجذر[٣].

وأما عن النتائج العملية المحضة التي نقتصر على ذكر البعض منها الواردة في رسالتنا (كشف الأسرار) وأول باب تم ضبطه وإخراجه على النمط المعروف حتى اليوم، كل ذلك تم على يد القلصادي على صورته النهائية، وهو باب الكسور وتفريع أقسامها وما يتبعها من عمليات بما في ذلك البسط والحط والصرف[٤].

والباب الآخر يتعلق بأخذ العدد غير المجذور بالتقريب وهو في ذلك يكمل طريقة ابن البناء ويدقق تقريبها. ومن المعلوم أن اليونان وقفوا على علاقة تقريبية للجذر التربيعي.

ولا يسعنا إلا أن نذكر أن هناك كثيراً من المسائل المهمة والطريفة التي يتناولها القلصادي في مؤلفاته خاصة كتابه (كشف المستور) و(كشف الجلباب عن علم الحساب) فضلاً عن كتابه (كشف الأسرار)، مثل أنواع الأعداد من ناقصة وزائدة وتامة ومتحابة، ومن مسائل الترتيبات والتوافقات وغير ذلك من المهمات التي تعج بها سائر مؤلفاته وكتبه.

إن أبا الحسن القلصادي قدّم خدمة جليلة ليس للحضارة العربية والإسلامية فحسب، بل للحضارة الإنسانية بوجه عام، إذ بقيت مؤلفاته في الحساب مستعملة حتى القرن العشرين في مدارس وجامعات أوروبا وفي العالم أجمع. ويعتبر إسهامه في علم الجبر أكبر العوامل التي طورت هذا الحقل حتى أصبح من المواضيع العلمية الضرورية في عصرنا الحاضر. وعلى الرغم من اعتماد القلصادي على إنتاج أساتذته وأسلافه في الجبر ومن بينهم: الخوارزمي وثابت بن قرة والكرخي وعمر الخيام وغيرهم ممن لديهم اليد الطولى من العلماء العرب والمسلمين في تطوير هذا الحقل العلمي المفيد، إلا أنه تابع تطوير هذا العلم، وساعد على تبسيط مسائله وتوظيفه في الحياة الاجتماعية والعامة للأمة العربية والإسلامية، فضلاً عن الإنسانية.■

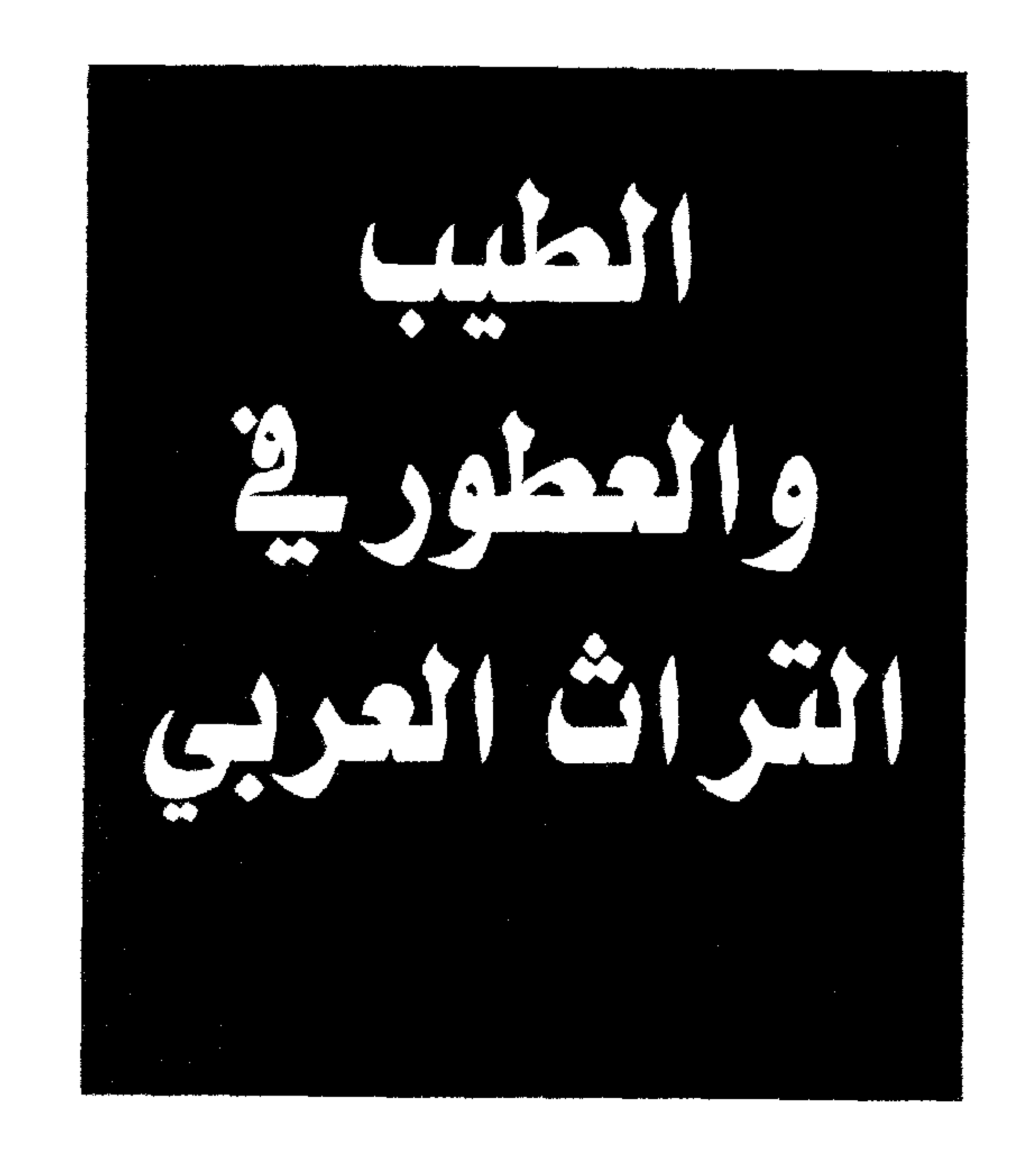
الهوامش:

١) د. علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية، ص٢٦٦- ٢٦٩، ط٢، بيروت، عام ١٩٨٣م.

٢) فرانسوا فيته FrancoiViete عالم فرنسي عاش فيما بين (١٥٤٠ - ١٦٠٣م) اشتهر بعلم المثلثات والجبر والهندسة ونظرية الأعداد. انظر مقدمة تحقيق الكتاب د. محمد سويسي، بيت الحكمة قرطاج - تونس، عام ١٩٨٨م.

٣) يعبّر القلصادي على الجذر التربيعي بوضع الجيم على العدد المراد تجذيره، مثلاً $\overset{ج}{٢}$، فجاء ديكارت ووضع عين العلامة على يسار العدد ٢ $\sqrt{}$، ورفعاً للبس أضيف إلى ذلك فيما بعد خط أفقي على العدد $\sqrt{٢}$.

٤) انظر في ذلك مقال د. محمد سويسي في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية، النشرة الثانية بعنوان «الكسر».



الطيب والعطور في التراث العربي

■ محمد مراد بركات *

الشرق هو مهد العطور، وهو مرتبط بالطقوس والنصوص الدينية القديمة، وكان المصريون يستخدمون الزيوت العطرية في التحنيط والعلاج، وكان للعطور تقاليد خاصة لدى الإغريق والرومان، حيث كان أباطرة روما يرشون العطر على المقاعد ورؤوس الناس في احتفالاتهم، وفي حلبات المصارعة الرومانية، وفي احتفالات أخرى كانت أجنحة الحمام تغطس بالعطور قبل إطلاقها لترش العطور فوق المحتفلين، وكانت مياه الحمامات الرومانية تعطر بأوراق زهر الخزامي، وانتقلت هذه التقاليد إلى طقوس المسيحية، حيث يستخدم البخور والعطور في القداسات والمناسات الدينية.

أ.دالفلسفة الإسلامية
قسم الفلسفة والاجتماع
كلية التربية ـ جامعة عين شمس

وترتبط الأطياب والعطور منذ العصور القديمة بكثير من مقومات الحياة اليومية، فقد كان لها علاقات بالمعابد والهياكل والطقوس الدينية، وكان الطيب، منذ القدم، رمزاً للأناقة والنظافة، وعلامة من علائم الترف عند الشعوب كافة، ولا يزال الطيب من أحب متطلبات الناس بمختلف أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ويعد أول وأقدم عطر تم اكتشافه، هو ذلك الذي استخدمه الفراعنة منذ ٤٠٠٠ سنة، وقد وردت أقدم إشارة إلى تجارة البخور في نقوش فرعونية يعود تاريخها إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، حيث ذكر أن اللبان وهو كناية عن مادة صمغية صفراء مستخرجة من شجيرة برية تتواجد في جنوبي عمّان وفي الصومال والحبشة أو في «بلاد بونت»، ومن المعروف أنها تتركب من مادة عطرية فواحة بالإضافة إلى كونها مادة للتصميغ، وبعد عمليات تقطير يبقى ٧٪ من عطرها الذي ما زال يستعمل حتى اليوم في صناعة أفخم العطور لاسيما الشرقية منها المخصصة لأفراد العائلة، مع أن وظيفتها الأساسية تقع في خانة البلسم المسّكن للجروح والصمغ المعطر للمناسبات.

والزيوت الرئيسية كالمر Myrrt مستخرجة من جذع شجرة المر، وهي تمتلك مواصفات طبية شافية، اكتشفها أطباء الفراعنة، وثبت أن هذه العطور باستطاعتها أن تقاوم أمراضاً متفشية كالطاعون والكوليرا، وقد أطلقوا عليها «عطر الألهة»، وعثر على أول ذكر لها في ضريح الملكة «حتشبسوت»، حين أرسلت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حملة إلى شواطئ الصومال لجلب البخور، وقد تم استخدام العطور بكثرة في غسل الجثث وتطييبها حتى أن الذين كانوا يقومون بغسل الجثث نادراً ما كانوا يصابون بالأمراض التي كانت قد أدت إلى موت أصحاب الجثث التي كانوا يغسلونها.

كما كان البخور العطر الأكثر رواجاً واحتراقاً على مذابح معابد الكرنك في مصر الفرعونية، وكان اللبان هو الغالب فيها، وقد شيد رمسيس الثالث فرعون مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بناء خاصاً لخزن البخور ليحرقه تزلفاً إلى الإله آمون[1].

وتكشف لنا أوراق البردي في عصر الولاة عن زراعة الياسمين الأبيض المعروف، وإن كان يصنع منه في مدينة دمياط زيت الياسمين، وهو نوع من الروائح العطرية الذي كانت النساء تستعمله وتفضله على غيره

من العطور، كما تكشف إحدى أوراق البردي عن إعداد الروائح العطرية من زيت الورد بالفيوم، فقد تضمنت القائمة التي ورد بها ذكر قارورة ماء ورد جيد وطازج طومار، وزيت الماء المعدني والشيرج المبكر وإعداد الصناع بها لأنواع مختلفة من الدهون والعطور.

وفي الحضارة العربية الإسلامية لم يترك الصانع الكيميائي العربي شاردة ولا واردة تتعلق بالأطياب إلا درسها درساً عميقاً، وأفرد لها مساحات كبيرة في مؤلفاته الكيميائية والنباتية، وقد أفرد الكيميائي الحديث فرعاً خاصاً بالعطور، وبحث فيها من جميع الجوانب، وراح إلى أبعد من ذلك، فقد تمكن من اختراع وتحضير عطور صناعية، أصبحت تضاهي العطور المستخرجة من مكامنها الأصلية، نباتية كانت أم حيوانية، لسد حاجة المستهلكين من كل طبقات الناس، فضلا عن استهلاك العطور في صناعات كيميائية متعددة أخرى، فالحاجة أم الاختراع، والأهم من ذلك أننا نجد كثيراً من أسماء العطور وكثيراً من طرق استخلاصها وطرق تحضير المركب منها، وهي تشبه إلى حد بعيد تلك التي كانت مستعملة في عصر الحضارة العربية الخالدة.

ويعترف المستشرق «رينالدي» بأن العرب أعطوا من النبات مواد كثيرة للطب والصيدلة، وانتقلت إلى الأوروبيين من الشرق أعشاب ونباتات طبية وعطرية كثيرة، وذكر «ليكرك» من المواد الطبية التي أدخلها العرب في العقاقير، والمفردات الطبية ما يزيد عددها على الثمانين، وقد أوردها بالنص العربي وما وضع لها من كلمات لاتينية، منها ما هي منحوتة أو مقتبسة من الأصل العربي ومنها ما تزال بلفظها العربي ولكن بحروف لاتينية[٢].

وقد أفاض السيوطي في ذكر الرياحين والأزهار التي كانت تنمو في سائر البلاد، وما ورد فيها من الفوائد والأحاديث على لسان العرب، وذكر منها أنواع الورد الأحمر والأبيض والأصفر، وما كان بثغر الإسكندرية من نوع الورد الأصفر.. ونقل عن ابن الوحشية عالم النبات أن البنفسج نوعان جبلي وبستاني، والجبلي رقيق الورق أزرق اللون، والبستاني عريض الورق حائل اللون، وهو على لون الشمع ولا يوجد إلا بمصر.

وهكذا كان توفر أنواع البنفسج والورد والنيلوفر المنثور وأزهار البرتقال والمسك والزهور من أهم العوامل التي شجعت على انتشار هذه الصناعة انتشاراً واسعاً في مصر، كما انتشرت في بيئة شيراز بفارس، وبلغ من انتشارها أن فرضت الحكومة عليها الضرائب، خاصة بالأماكن التي كان يصنع فيها ماء الورد.

وقد تقدمت صناعة الأدوية والعطور في عصر الطولونيين والأخشيديين، وتطلب إعداد هذه الروائح العطرية أدوات أشبه بما يستعمل في الكيمياء، وتشير أوراق البردي العربية إلى ازدهار هذه الصناعة، يتضح ذلك ما تضمنه أحد الخطابات المرسلة إلى أحد تجار العطور وفيه طلب قائمة بأنواع من العقاقير والعطور[٣].

كما أفاضت المصادر التاريخية في وصف البستان الذي أنشأه أبو الجيش خمارويه، وما جلب له من الأشجار المثمرة، وما زرع من أنواع الرياحين والورود والأزهار، ولا شك أن الصناع كانوا يستغلون هذه الرياحين والنباتات في استخلاص وتقطير العطور منها.

ولقد تناول «جرجي زيدان» في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» دور علماء العرب والمسلمين في مجال النبات والزراعة، فذكر أن للعرب القدح الأعلى في الدراسة



والتصنيف في العلوم النباتية والزراعية، فهم بدون شك نقلوا معلوماتهم البدائية، وعملوا منها علما مبنياً على أسس علمية متينة، ولقد بقيت أوروبا تعتمد على مؤلفات علماء العرب والمسلمين في حقل النبات مدة طويلة من الزمن.

ويذكر الباحث «أسعد داغر» في كتابه «حضارة العرب» ان العرب كانوا واسعي الاطلاع في علم النبات، فقد أنشأوا الغابات والحدائق والبساتين وعرفوا أنواعها وفصائلها ومزاياها، وأدخلوا من النباتات في تحضير الأدوية ما جهله علماء اليونان في هذا المجال، مثل «دسقوريدس» و«جالينوس» كالراوند، والتمر الهندي، وخيار الشنبر، وورق سنامكي والإهليلج، والكافور، وغيرها من النباتات التي استخرج منها العرب والمسلمون العطور.

العرب وكيمياء العطور

كما برع العرب والمسلمون الأوائل في علم الكيمياء، واعتبر جابر بن حيان الكوفي الأزدي (١١٠هـ / ٧٢٠م) مؤسس علم الكيمياء، وخلف لنا يعقوب بن اسحق الكندي (٢٦٠هـ٨٧٣ / م) والرازي (٣١١هـ / ٩٢٣م) والبيروني(٣٦٢هـ / ٩٧٣م) أبحاثا وكتبا ورسائل كيميائية ممتازة، ويعد البحث في حقل الكيمياء العربية متعدد الجوانب غزير الفحوى، عميق المعلومات، خاصة وأن العرب والمسلمين قد كتبوا في الكيمياء العضوية كتباً كثيرة في هذا الحقل، وعد ابن النديم في الفهرست أكثر من عشرة كتب في العطور والطيب عن كتب أخرى مذكورة من هنا وهناك في الفهارس والكتب التراثية.

وتصنف العطور أصنافاً أربعة هي: أولا: العطور الحيوانية: وهي التي يحصل عليها من الحيوان كالمسك والعنبر، وعدد عطور هذا الصنف لا يتجاوز عدد الأصابع.

ثانيا العطور النباتية: وهي التي يحصل عليها من النباتات بصورة مباشرة أو من الزيوت النباتية.

ثالثا العطور المركبة: وهي تحضر من مزج مواد عطرية عدة أو خلطها ببعضها فنحصل من جراء ذلك على عطور جديدة، ويكتسب كل عطر من هذه العطور رائحة خاصة به.

رابعا العطور الصناعية: أي العطور التي يحضرها الصانع الكيميائي في المختبر أو في المصنع بطرائق صناعية كيميائية، وهذا الصنف من العطور لم يكن معروفا من قبل، وظهر بظهور الاكتشافات الكيمائية الحديثة التي بدأت منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي.

ومن إحصاء عدد العطور العربية كما وردت في عدد من الكتب التراثية، مثل كتاب «كيمياء العطر والتصعيدات» المنسوب للكندي الفيلسوف والجزء الأول من «القانون» لابن سينا، وكتاب «المخصص» لابن سيده، و«نهاية الأرب» للنويري، نجد أن عدد المواد المعطرة -أي التي هي عطور بحد ذاتها- لا تتجاوز خمسة وعشرين عطراً.. أما العطور المركبة فعددها بحدود المئتين.

وقد خلف سكان وادي الرافدين كثيرا من الخبرات الكيميائية الدقيقة في صناعة العطور، ويحدثنا التاريخ عن ازدهار الزراعة في العصر العباسي، وكان العراق -كما هو معروف- يدعى بأرض السواد، لكثرة مزروعاته وبساتينه، ولم تقف الزراعة عند زراعة الحبوب والفواكه وما شابهها من المزروعات، بل تعدتها إلى زراعة الحدائق وتنمية الزهور، سواء أكان ذلك في الحدائق العامة منها أم الخاصة، حيث كانت تزرع على نطاق واسع وتباع حاصلاتها في الأسواق التجارية.

وكانت حصيلة ذلك أن توسعت صناعة استخراج العطور والزيوت العطرية المستخرجة من الورد والزنبق والبنفسج والياسمين وغيره.. وقد اتقنت هذه الصناعة في كثير من المدن العربية وتعدتها إلى مدن إسلامية عديدة ايضا.. وقد اشتهرت بغداد في هذه الصناعة وامتدت حتى إلى خارج العراق، واشتهرت مدينة الكوفة في صناعة «دهان الخيري والبنفسج»، واشتهرت مقاطعة «جور» في بلاد فارس بعطرها المستخرج من الورد الأحمر المعروف حتى الآن باسم «الورد الجوري»، وكان يُصدر «ماء الورد الجوري» من جور إلى الصين شرقا وإلى بلاد المغرب غربا[٤].

ومما يذكره «هيرودوتس» في تاريخه، أن بلاد العرب كانت تفوح بالعطور والأطياب، وكان المصدر الرئيسي لانتاج المر والقرفة واللاذن واللبان.. وأطلق اسم «بلادالأطياب» على جنوب الجزيرة العربية.. وقد اشتهرت قبائل كثيرة بتجارة العطور منها «قبيلة الباي» في حضرموت، التي كانت لها الصدارة بتجارة اللبان والعطور، وما زالت مصدراً مهماً في تجارة اللبان والقرفة وغيرها، لكثرة أشجارها العطرية وتنوع أصنافها.. وكان المصريون القدماء يستوردون اللبان من جنوب الجزيرة العربية حيث كانوا يحرقونه في

هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم[5].

وتذكر الكاتبة «سونياها» أن أحسن أنوع البلسان هو المستخرج من الأشجار ببلسان إسرائيل قرب مكة المكرمة، ومن المطرية قرب بابليون في مصر، ومما تذكره أن الجانب الأكبر من دهن البلسان كان يستورد من جزيرة العرب.. وكان الإغريق -حسب قول برثولوميوس - يسمون جزءا من جزيرة العرب Eudaimon ويسميها الرومان Felix أي السعيد[6].

ويصف لنا الرحالة «عبد اللطيف البغدادي» طريقة استخراج دهن البلسان[7]، فكان إذا شرخ شجرة يسيل منها هذا الدهن، فيجمع في قناني زجاجية ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر.. وكان يرفع مقدار الدهن الخالص منه بعد ترويقه إلى خزانة القصر الفاطمي، وكانت الحكومة الفاطمية تحتكر انتاجه لندرته، حيث كان يتخذ منه بعض الأدوية لعلاج بعض الأمراض، وفي تركيب بعض الدهون الخاصة، وظل الأمر كذلك أيام الأيوبيين كما حذا سلاطين المماليك حذوهم من بعدهم[8].

وفي البدء كانت تجارة العطور تتم عبر النقل البحري، وكانت السفن الشراعية التي يملكها العرب تغادر جنوبي الجزيرةالعربية تجاه الهند لتشحن على متنها أكياس البهارات المتنوعة الآتية من جزر بعيدة في الشرق الأقصى، فكانت أكياس الثوم والقرفة وجوز الهند تطرح في الأسواق في كل أجزاء الإمبراطورية الرومانية، وكان العرب يقفلون عائدين إلى مرافئهم للقاء القوافل التي كانت تحمل بأنواع لا تحصى من العطور والبخور وطيب الأشجار البرية وأزهارها لتسلك طريق البخور باتجاه حوض البحر المتوسط، حيث ساد الاعتقاد بأن تلك العطور والنباتات الشافية والبهارات مصدرها الجزيرة العربية.. وفي جزيرة ديلوس الإغريقية خلف تجار البخور اليمنيون في العصر الجاهلي نقوشا تذكارية وتلقت هذه الروابط التجارية والثقافية بين الجزيرة العربية واليونان ضربات قاصمة عندما اصطدمت التجارة بالديانة المسيحية حين ظهورها وحربها على الطقوس الوثنية[9].

وتحتل العطور العربية الصدارة في صناعة العطور الأساسية والجوهرية إلى جانب امتلاكها لمواصفات تطبيبية شافية، وأسباب ذلك تعود إلى طريقة التقطير التي تستخرج روح الزيت المخزن في الزهرة، والذي تفرزه غدد موجودة في جذر النبتة وفي جذعها وأوراقها وزهرها، ويتم «قطف» أو تجميع تك الزيوت في موسم معين وخلال ساعات محددة من النهار، فالياسمين مثلا يفرز أعلى نسبة زيت ويبعث أقوى نسبة عطر عند غياب الشمس ويجب قطفه قبل أن يجف عنه الندى وإلا شحبت زهوره وفقد طيبه الذكي اذي يبدأ بالبهتان خلال ساعات النهار الحارة.

كل العطور العربية يتم تركيبها بالزيوت الطبيعية الأصلية دون ان تضاف إليها مواد كيميائية أو كحول بالمقارنة مثلا بالعطور العالمية المعروفة التي تحتوي على أنواع عديدة من الكيمياء المصنعة، خاصة في العصر الحديث، بعد معرفة العطور الكيميائية واكتشافها.

العرب والعطور

كان العرب في الأندلس يمجدون الحياة الطبيعية والحب والغناء والورد و«غيمة المطر» في شعرهم ونثرهم ويبدعون في استخدام العطور، حيث يرشون في بيوتهم وقصورهم عطوراً تختلف باختلاف ساعات النهار، فهناك عطر للصباح وعطر لما بعد الظهيرة، وعطر ثالث للمساء والسهرة، ولم يكن هذا ترفاً بقدر ما كان أناقة في الذوق واحتفالا بجماليات الحياة، وتهذيباً للعقل من خلال تهذيب حاسة الشم، في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس. ومن المعروف أن أنواعاً من النباتات البرية لا يفوح عطرها بقوة إلا بعد تغير الطقس، في المساء أو الصباح أو الانتقال من درجة إلى أخرى من الحرارة أو البرودة، وربما نجد شاهداً قديماً من الشعر العربي يشير إلى هذه الحالة، ويدعو إلى التمتع بالحياة نفسها قبل فوات الأوان:

تمتع من شميم عرار نجد...
فما بعد العشية من عرار

ويقول أبو الطيب المتنبي:

قل للمليحة وهي مسك هتكها...
ومسيرها في الليل وهي ذكاء

وفي مثل هذا المعنى قال البحتري:

وحاولن كتمان الترحل في الدُجى...
فنم بهن المسك لما تضوعا

وقال ابن الرومي (في الوصف):

لـهـا ريـق تشـف لـه الـثـنـايـا...
وتـروي عـنـه لا مـنـه الـظـمـاء
وأنـفـاس كـأنـفـاس الخزامـى...
قـبـيـل الصـبـح جـلـتـهـا السـمـاء
تـنـفس نشـرهـا سـحـرا فـجـاءت...
بـه سـحـريـة المسـرى رخـاء

ويشير الباحث «بندر عبد الحميد»[10] إلى أنه كانت للزهور رموزها لدى الشعوب المختلفة، ولكنها عموما تتفق على أن النرجس رمز الأنانية، والبنفسج رمز التواضع، والزنبق رمز الطهارة، وشقائق النعمان رمز الجمال السريع الزوال، والكاميليا رمز الجمال الحزين، وزهر الرمان (الجلنار) رمز الحب الصافي.

وأكثر هذه الزهور برموزها وأنواعها ترتبط بالعطر، كما ترتبط بالفن والحياة، بدرجات متفاوتة، حيث يمكن ان يوحي أحدها بعطر الحبيب، أو عطر الحياة كلها، ويزدحم الشعر العربي منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الأندلسي بالصور الحسية النامية في حاستي الشم واللمس تحديدا، وجمع الشاعر «السّري الرفاء» في كتابه النادر «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» بينما ظل كتاب «الأغاني» للأصفهاني موسوعة حرة للحب والحكمة والشعر والغناء والحكايات النادرة، وهي مثال حي على مدى الحرية في القول والفعل لدى العرب قبل انتشار نزعات التعصب والتزمت، وظل لدهن العود العربي مكانته الخاصة بين العطور.

واقتبس الأوربيون أنواعا من العطور الشرقية في أيام الحروب الصليبية ونقلت السفن العطور والمجوهرات الشرقية إلى أوروبا منذ القرن السادس عشر ألوانا من العطور إلى جانب التوابل، وكانت تجارة العطور والمجوهرات هي المفضلة لدى كبار التجار، لأنها بضاعة خفيفة الوزن غالية الثمن، ووصلت بعض أنواع العطور من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى ثم إلى أوروبا من نهايات طريق الحرير، الذي كان يأخذ اسما آخر هو طريق البخور.

الطيب والعطور في التراث العربي

وردت في القرآن الكريم خمسون آية، جاءت فيها مادة (طيب) بمعانيها ومجازاتها المختلفة: مثل «طيبات» ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾ (غافر آية ٦٤)، و﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾(الأعراف آية٣٢)، «الطيبون» و﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ (النور آية٢٦)، «طوبى» ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مئاب﴾(الرعد آية ٢٩).

وكذلك الأحاديث الشريفة «مثل المؤمن كمثل النخلة ، أكلت طيبا ووصفت طيبا»(رواه ابن حنبل)، و«أطيب ريحا رائحة المسك»، و«أطيب من ريح المسك» (رواه ابن حنبل)، وحديث «أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب»(رواه البخاري)، وحديث «أن الله طيب يحب الطيب، ونظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود»(رواه ابن حنبل)، وحديث استأذن عمار على النبي ﷺ فقال: «أذنوا له مرحبا بالطيب المطيب» (عن علي بن أبي طالب رواه الترمذي)، وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه قبل ان يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت»(الموطأ ـ ٢٧٤). وكان النبي يحث أهل بيته على الإكثار من الطيب واستعماله، حتى أمر أن يجعل في جهاز ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها عند زواجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ثيابها، ويصرف من مهرها عليه الثلثين، فقال ﷺ: «اجعلوا ثلثين من الطيب وثلثا من الثياب»[11].

وعن الخليفة عمر رضى الله عنه قال: «لو كنت تاجراً ما اخترت على الطيب، إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه»[12]. وقد وجه الخليفة عمر بن الخطاب إلى ملك الروم بريدا فاشترت امرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضى الله عنه طيبا بدينار، وجعلته في قارورتين واهدته إلى امرأة ملك الروم، فرجع البريد بملء القارورتين من الجواهر، فدخل عليها عمر وقد صبته في حجرها، فقال من أين لك هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه وقال: هذا للمسلمين، فقالت: كيف وهو عوض من هديتي.. فقال: بيني وبينك أبوك، فقال علي: لك منه دينارك والباقي للمسلمين، لأن بريد المسلمين حمله»[13].

وفيما قبل الإسلام كان التطيب عندهم من دلائل الغنى والنبل والترف، وهو علامة من علائم الفرح، وعدم استعماله دليل الحزن، وكان الطيب يقدم للمعابد والأصنام في أيام الأعياد والمناسبات الدينية. ولهم فى الطيب أمثال كثيرة، منها: «ثلاثة يحكم بالنبل حتى يدري من هم: رجل رأيته راكبا، أو سمعته يعرب كلامه، أو شممت منه طيبا»[14].

وقد اشتهرت الطائف بجانب حاصلات الفواكه والزيتون والعسل، بورودها وعطرها الذي كان يمد أهل مكة بما يحتاجون من الطيب، وتعد مهنة بيع العطور من المهن المحترمة عند العرب، ويقال إن أبا طالب عم النبي الكريم ﷺ كان يبيع العطور، وكان تاجرا من تجارها. واسهمت نساء مكة في صدر الإسلام في هذه التجارة أيضا، فكانت أسماء بنت مخربة أم أبي جهل تتاجر بالعطور والطيب، وكانت هند زوجة أبي سفيان تتاجر مع «كلب» النازلين من بلاد الشام. وكانت خديجة رضي الله عنها تاجرة غنية وترسل الأمناء للإتجار على حسابها وقصة ارسالها الرسول ﷺ في تجارتها معروفة في كتب السيرة.. ومن النساء المعروفات في بيع العطور «منشم» التي كانت مضرب الأمثال في الشؤم، وقال فيها زهير بن أبي سلمى:

تداركتما عبسا وذبيان بعدما...
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ومن النساء الجاهليات من كن يضمخن أجسادهن بالعطور، حتى أنهن كن ينشرن الطيب في الفراش، وقد فاخر الكوفيون على البصريين بخصب الكوفة وحسن موقعها، فهم يقولون: «الكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مرئية مربعة برية بحرية، إذا أتتنا الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد وورده وياسمينه وخيره، واترجه، ماؤنا عذب، ومحتشنا خصب».

وكانت بغداد مركزاً لاستخلاص العطور من النباتات، وكانت المركز التجاري لها، وكان «سوق العطارين» مشهورا فيها، ويقع فيما يلي «باب الغربة» من دار الخلافة العباسية، بالمشرعة النازلة إلى شاطئ دجلة، وكان للعطارين أسلوب خاص في حفظ العطور والطيب، حسب نوعه وجنسه.. وقد كانت صناعة القناني وزجاجات الزينة والبلور وما شابهها من الأدوات الزجاجية معروفة في بغداد وفي كثير من المدن الإسلامية.. وقد تفنن صناع الزجاج في هذه الصنعة التي تحتاج إلى المهارة في العمل وإلى الدقة في الفن.. وكانت تحفظ الدهان في أوان متنوعة، يحفظ في أباريق صغيرة من فضة أو نحاس أو بلور، وهذه الأباريق تزخرف عادة بألوان خلابة أو صور جميلة، ويرش منها ماء الورد على الضيوف.. ولا تزال هذه العادة متبعة في الدواوين والمحافل في كثير من أرجاء البلاد العربية ومنها العراق.

وقد حفظت العطور الغالية الثمن بزجاجات رقيقة، تزين سطوحها نقوش جميلة وصور لحيوانات نادرة ومحببة، كالطيور المغردة والصقور، والأسود، والغزلان وغيرها.. وقد تنقش عليها أبيات من الشعر الغنائي الرقيق أو الأمثال والحكايات القصيرة الممتعة[١٥].

وفي الأعراس العربية القديمة كانت الدنانير تجعل في جامات فضة والدراهم في جامات الذهب، ونوافج المسك وجماجم العنبر في بواطي زجاج، ويفرق ذلك على الناس وتخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة، وقد توقد شموع العنبر في أتوار من ذهب.

أنماط من العطور النباتية العربية

ومن أهم النباتات المعروفة بأرض العرب منذ عصور موغلة في القدم، نبات الآس، طيب الرائحة، وقد تردد ذكر الآس في النصوص المسمارية والجداول النباتية منذ الألف الثالث ق. م.. وذكرت له استعمالات طبية عديدة، واستخرج منه العطر الذي أطلق عليه اسم «زيت الآس»، وكان اليونانيون والرومان يقطعون الآس، ويستعملونه للزينة في الولائم الكبيرة والأعياد والأفراح، فهو عندهم رمز الحب والمودة.

وقد وجدت بعض أوراق الآس وأزهارها محفوظة في توابيت المصريين، مما يدل على قدمه بأرض مصر، وورد ذكره في كل كتب المفردات الطبية، فذكره «ديسقوريدس»، و«بليني» ودرسه الأطباء والعشابون أمثال ابن سينا وابن البيطار والأنطاكي وغيرهم، وقد أسهبوا في تعداد فوائده الطبية واستعمالاته.. ومما قاله ابن سينا: «ورق الاس يطيب رائحة البدن، وبزره يتمضمض به يقتل الدود المتولد في الأسنان» (التسوس).

والآس أنواع كثيرة، فصيلة الآسيات من ذوات الفلقتين Myrtacees Myrtaceae والنوع الشائع منه Myrtus connunis ويسمى آس شامي والإنجليزية Myrtle وعطر الآس أو ماء الآس معروف قديما، عرفه العرب معرفة جيدة، وذكر تحضيره في أغلب الكتب، بالطريقة التي استخدمها صاحب كتاب «كيمياء العطر

والتصعيدات»[16]، (صنعة ماء الآس) فقال: تؤخذ الأوراق والأطراف الغضة والأزهار، وتدق قليلا وتغلى الماء فترة من الزمن، ثم تجري عليها عمليات التقطير بالبخار (أي التصعيد بالرطوبة) فتحصل على ماء الآس (أي دهن الآس ممزوجا بالماء)، وإذا أريد الحصول على الدهن النقي، يرشح من المزيج، أو تجري عليه العمليات الكيميائية المألوفة.

ويطلق الفرنسيون على «دهن الآس» المصطلح (ماء الملائكة) وهو يستعمل منذ قديم الزمان لتبخير البيوت والصالات ولتعطير الهواء.. ودهن الآس بوصفه عطر – قليل الاستعمال الآن– ولكنه يدخل في تحضير بعض أنواع العطور المركبة[17].

الخزامى

ورد في لسان العرب باب «خزم»: الخزامى نبت طيب الريح، واحدته خزاماه.. وقال أبو حنيفة: «الخزامى عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهرة، طيبة الريح، لها نور كنور البنفسج».. وقد جمعت المعاجم اللغوية وكتب المفردات الطبية على ان الخزامى هو الذي يقال له «خير البر» لأنه أذكر نبات البادية، وزهره أطيب الأزهار يتمثل به في الطيب.. وهو جنس نبات من الفصيلة الشفوية، وهو أنواع، وجميعها عطرة من أجل الأفاوية، وهي برية، وتزرع للرائحة والزينة. ويستخرج «عطر الخزامى» من عشبة الخزامى بطريقة التقطير بالبخار(التصعيد بالرطوبة)[18] ويسمى «دهن الخزامى» و«ماء الخزامى» إذا كان الدهن ممزوجا بالماء، على غرار ماء الورد.. إن الخزامى الواردة في الكتب العربية القديمة هي العشبة التي تسمى (خيري البر) واسمها العلمي Lavendula ، وهذا الاسم يدل على جنس نبات الخزامى، ويضم أصنافا كثيرة، وذكرت في أكثر المفردات الطبية القديمة والحديثة.

وتزرع عشبة الخزامى في الهضاب المرتفعة في فرنسا وأسبانيا وانجلترا والنرويج، والخزامى التي تزرع في المناطق الباردة تنتج وردا أقل جودة من ورد الخزامى الذي يزرع في مناطق حوض البحر المتوسط، والخزامى الطبية تستعمل في الصيدلة لتعطير بعض الأدوية ذات الروائح غير المقبولة.

وفي الطب تستعمل منعشاً ومنبهاً خفيفاً Mild Stimulant، إن عطر الخزامى من العطور الجيدة، ويكثر استعماله عند الشعوب كافة، وهو من العطور المحببة جدا عند الإنجليز، ويدخل الخزامى في تحضير أنواع مختلفة من العطور المركبة، وهو مادة أولية أساسية في تحضير العطر الشائع الاستعمال في كل العالم، وهو «الكولونيا». ماء الكولونيا Eau de Cologne ، وكذلك يدخل الخزامى في صناعة مواد التجميل والرذاذات (بودرة) وصناعة الصابون الجيد وغيرها.

وهناك نباتات عطرية أخرى كثيرة مثل الزعفران والكافور، تدخل في تركيب كثير من المواد الطبية، قديما وحديثا، وتدخل في تعطير منتوجات صناعية كثيرة، ولاسيما صناعة الشموع مثل شموع الكافور المعطرة بالكافور نفسه، على شاكلة شموع العنبر المصنوعة من شحم حوت العنبر، كما إن استعمال الكافور في الحناط عادة جيدة، لسببين أساسيين: أولهما إن الكافور مادة معقمة، وقاتل للجراثيم والميكروبات في الجثث المتفسخة.. وثانيهما إن الكافور يتسامى بسرعة، ورائحته القوية تغطي على الروائح التي قد تحدث من جراء التفسخات التي تطرأ على الجثث عند تأخير دفنها ولاسيما في الفصول الحارة من السنة.

وقد ورد ذكر الكافور في القرآن الكريم في آية واحدة: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾(الإنسان آية ٥).. ومما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة «أن العرب كانوا يمزجون كؤوس الخمر بالكافور والزنجبيل حينا زيادة في التلذذ بها.. وقيل إن شراب أبرار الجنة ممزوج بالكافور، وقيل يمزج بالكافور ويختم بالمسك، وقيل معناها طيب بالكافور والمسك والزنجبيل».

وفي العصر الحديث تدخل في صناعة العطور الحديثة نحو مائة من المواد الطبيعية والصناعية ويختلف كل عطر باختلاف أنواع المواد المستخدمة فيه ومعاييرها، ومن تلك المواد الزيوت العطرية المستخرجة من غدد الأحياء البحرية والبرية ومن صمغ بعض الأشجار وخلاصة الأوراق والزهور، في أنواع مختلفة من النباتات، ومن أهم تلك المواد زيت العنبر المستخرج من غدة خلف زعانف حوت العنبر، الذي كان على مدى قرون هدفا للصيادين، كما قدمته لنا أهم رواية ملحمية في القرن التاسع عشر «موني ديك» التي كتبها «هيرمان

ملفيل» وهي تشكل موسوعة علمية عن عالم الحيتان، وأسرار البحر، إلى جانب قيمتها الإبداعية والأدبية.

ويمكن أن نقتبس منها المقطعين التاليين [19]: «... وأما العنبر الرمادي فإنه ناعم شمعي ذو رائحة نفاذة وشذى طيب، حتى إنه يستعمل على الأكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والأدهنة المستعملة للشعر، ويستعمله الأتراك في الطبخ ويأخذونه معهم أيضا مكة للغاية نفسها التي يحمل المسيحيون من أجلها البخور إلى كنيسة القديس بطرس في روما..».

و«...إن شطيرتي ذنب حوت العنبر حين تنتصبان فوق الماء ترسلان رائحة كالتي تنبعث من سيدة مضمّخة بالمسك تجر أذيالها في بهو، فإذا تمثلت ضخامة الحوت فبأي شيء أشبهه من حيث شذاه العطر؟ ألا أشبهه بذلك الفيل الشهير، ذي النابين الجوهرين المضمّخ بعطر المر، الذي خرج به الهنود من إحدى مدنهم ليستقبلوا به الإسكندر الأكبر مرحبين؟».

وفي الوقت الراهن أعاد البحث العلمي الاهتمام بالزهور والنباتات الطبية، ليس من أجل عطرها ولكن باعتبارها مادة غذائية تصلح لاستخدامها في المطبخ في إعداد وجبات صحية لجميع أفراد الأسرة.. ويؤكد الدكتور مصطفى نوفل أستاذ علوم التغذية بجامعة الأزهر أن الرائحة الجميلة للزهور بها مكونات «فايتو» واقية للجسم من البكتريا ومطهرة للإمعاء وطاردة للغازات، وتناول الزهور كان يتم في مصر منذ زمن بعيد على صورة مربى الورد الأحمر البلدي وشراب الورد بالإضافة إلى ماء الورد وماء زهر البرتقال، والتي تتم إضافتها لماء الشرب الواقية من اضطربات الجهاز الهضمي، خاصة مع زيادة مصادر تلوث البيئة، كما يتم استخدامها في تحضير أنواع كثيرة من الحلوى.. وفي أوروبا تنتج حاليا منتجات غذائية من الزهور مثل الشاي بالياسمين وعسل الزهور ومايونيز الزهور، وأيس كريم الزهور، بالإضافة إلى خل الزهور وحلوى مكسرات الورد وخلطة الأعشاب والتوابل بالزهور.

المرأة وصناعة العطر

ومن الطريف أن عمليات استخلاص العطور والزيوت وصنع الأطياب والبخور كانت تناط بالمرأة، إذ قالوا إنها أكثر قدرة وإلماما بأمور المطبخ، لذا كانت عمليات الاستخلاص والطبخ من اختصاص المرأة، وقد اشتهرت نساء كثيرات في هذه الصنعة أمثال «تابوتي» Tapputi السومرية، و«ثيوسيبيا» Theosebia أخت زوسيموس في عصر مدرسة الإسكندرية، وكليوباترا الكيميائية، و«ماريا الموسوية»، وكانت لهن براعة فائقة في تعيين أنواع العطر وجودته، واستعمال الميزان لضبط مقادير المواد الأولية وكمية العطر المنتج منها.

وقد اكتشفت في «تيه كوري» قرب السليمانية بالعراق -بحسب الدكتور جابر الشكري- [20] أجهزة كيميائية كثيرة العدد، منها القدور، وقناني لحفظ العطور، وأجهزة للترشيح والتصفية، وخباطات، وكان الميزان والعيارات مهمة عندهم لضبط المقادير المنتجة أو المواد المبيعة. وهناك وثائق كثيرة يشار فيها إلى العطور والأطياب في بلدان وادي الرافدين أو في بلدان مصر أو غيرها من البلدان الواقعة في الهلال الخصيب، وإلى كثرة وجودة الأطياب في جنوب الجزيرة العربية.

وفي العصر الحديث تأخذ بعض العطور أسماء ممثلين مثل النجوم، بينما قام «سلفادور دالي» الفنان السريالي المعاصر بتصميم زجاجات العطور التي تجد من يحتفظ بها كنماذج فنية، وكتب أحد صانعي العطور، إنه ورث من أسلافه كنزاً ثمينا من زجاجات العطور القديمة الفارغة، أما الممثلة السينمائية والتلفزيونية الأنيقة «أدويغ فينشي» التي ولدت في الجزائر من عائلة مالطية فإنها تشعر أن لها جذوراً شرقية، ولها رأيا خاصا في التعامل مع العطور تقول فيه: «أنا شخصيا لا أحب العطور القوية جداً، والأفضل لي أن يكون العطر خفيفاً كلمسة ناعمة، ومن الطبيعي ان تختلف كثافة العطر وقوته حسب ساعات اليوم، والمناسبات وطبيعة الناس الذين يحيطون بنا، وأنا أعشق العطور وكل الروائح الطيبة، فهي تحمل لغة خاصة بها، مثل الكلمات والإشارات والألوان والنظرات الخاطفة.. وهذا ما يمنعني من تقديم نفسي على أجنحة موجة من العطر العنيف المسكر، إن الزهور تهمس برائحتها، لأن اللطافة هي سر المتعة، وهي الأكثر جاذبية في الحياة.

ويقول «بندر عبد الحميد» [21] لم تكشف «أدويغ فينشي» عن اسم عطرها، لأنه من الأسرار الشخصية جدا، ولكن النساء كن على مدى السنين يسحقن حبات المحلب وأعواد القرنفل بأسنانهن ثم يفركن وجوههن وصدورهن بخلاصة هذا المسحوق، بينما يعطر البدو

فهوتهم المرة بأوراق الغار، وينفرد الغجر، رجالا ونساء معا، باستخدام عطر فريد ورخيص، يدعى«ريف دور» أو الحلم الذهبي، وهو عطر قوي تزداد حدته حينما يختلط بعرق الأجساد النحيلة المعفرة بغبار الدروب الطويلة في حركتها التي لا تهدأ.

وتهاجر العطور كما تهاجر أنواع من النباتات والطيور، بين القارات، وأشهر أنواع الزهور المهاجرة هي «الفانيلا» أو زهرة الأوركيد، التي تحمل اسماً آخر لدى السكان الأصليين في تاهيتي هو «الوعاء الأسود» وأول من أعطاه هذا الاسم هو إمبراطور الأزيتك «مونتيزوما» الذي أمر بإضافتها إلى الشوكولاته لتقديمها إلى الفاتح الإسباني كورتيز، في أطباق من الذهب، وكان انتشار هذه الزهرة في أوروبا والعالم سريعا، وهي تدخل إلى المطابخ والمطاعم أكثر مما تدخل إلى محلات بيع الزهور.

وكانت المعارض التجارية العالمية التي بدات في المدن الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وزاد انتشارها في بدايات القرن العشرين تعرض أنماط الحياة الشرقية في الملابس وأدوات الزينة والعطور والمراهم والأكحال، وأصبحت أنواع العطور تأخذ أسماء شرقية مألوفة مثل شهرزاد، وأبو الهول، وعلاء الدين إلى جانب «كحل إدريس».. يقول مثل قديم «إن لدى الإنسان أذناً جيدة وعليه ان يطور لنفسه أنفاً بسبب كثرة أنواع العطور، وتلوث البيئة بالنفايات الصناعية، وأهمها مشتقات النفط، ومع ذلك يمكن أن تجد من يقول لك: إن تلك المرأة التي عبرت في سيارة مسرعة في الشارع القريب، كانت مزودة بعطر «كوكو شانيل». ■

المصادر والمراجع:

١- سليمان داود: سحر الشرق، مجلة الكويت، العدد ٢٥٨، إبريل عام ٢٠٠٥م.

٢- د. على عبد الله الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، ص٢٦، مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٨٥م.

٣- لم يكشف الخطاب أو الطراز عن اسم المكان الذي كشف فيه، ومن المرجح ان يكون من البهنسا أو الأشمونيين بالصعيد الأوسط، جروهمان: أوراق البردي العربية ج٥ ص٨٣، وانظر السيد طه السيد أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص٣٣٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام١٩٩١م.

٤- طه الباقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٥٦٨ – ٥٧١ دار البيان، بغداد عام ١٩٧٠م وانظر أيضا د. محمود رياض، ود. جواد البدري: الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، دار الرشيد، بغداد عام ١٩٨٠م

5- M.Levey :Chemistry and chemical Technologie in Ancient Mesopotamia (cp. 132) Elsevier - 1959

وانظر د.جابر الشكري: الطيب والعطور في التراث العلمي العربي، مجلة المورد، عدد٤ ج ١٤، بغداد عام١٩٧١م.

٦- سونيا، هاو في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، ص١٦، مكتبة النهضة ، القاهرة عام١٩٥٧م .

٧- ذكر البغدادي أن تعداد ما أخرج منه عام ٥٩٦هـ وكان عام جدب نيف وعشرين رطلا: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر، ص٢٢، نشر سلامة موسى، وانظر السيد طه: الحرف والصناعات السابقة.

٨- ذكر السيوطي ان البلسان كان يزرع بمصر في عصره، ودهنه يستعمل أكثر في العلاج: حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٢٨-٣٢٩. Wiet : Les Mosquees du caire .1. p . 96.

٩- سليمان داود: سحر الشرق السابق.

١٠- بندر عبد الحميد: إعادة الاعتبار للحاسة المنسية، العربي العدد ٥٥٤، الكويت، يناير عام ٢٠٠٥م.

١١- زكية العمر: التزويق والحلى عند المرأة في العصر العباسي، ص ٧٣، بغداد، عام ١٩٧٦م.

١٢- محمد عبد اللطيف بن الخطيب: المستظرف في كل شيء مستظرف، ص١٥٩، القاهرة عام ١٩٦٠م.

١٣- الزمخشري: ربيع الأبرار، تحقيق د. سليم النعيمي، ص ٢٨٧ بغداد عام ١٩٨٢م.

١٤- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ص ٦١٠، بيروت عام١٩٦٧، وانظر جابر الشكري: الطيب والعطور، المورد السابق.

١٥- ميخائيل عواد: صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، بغداد عام ١٩٨٢م.

١٦- كتاب كيمياء العطر والتصعيدات المنسوب للكندي، مجلة المجمع العلمي العراقي ج١ بغداد عام ١٩٨٥م.

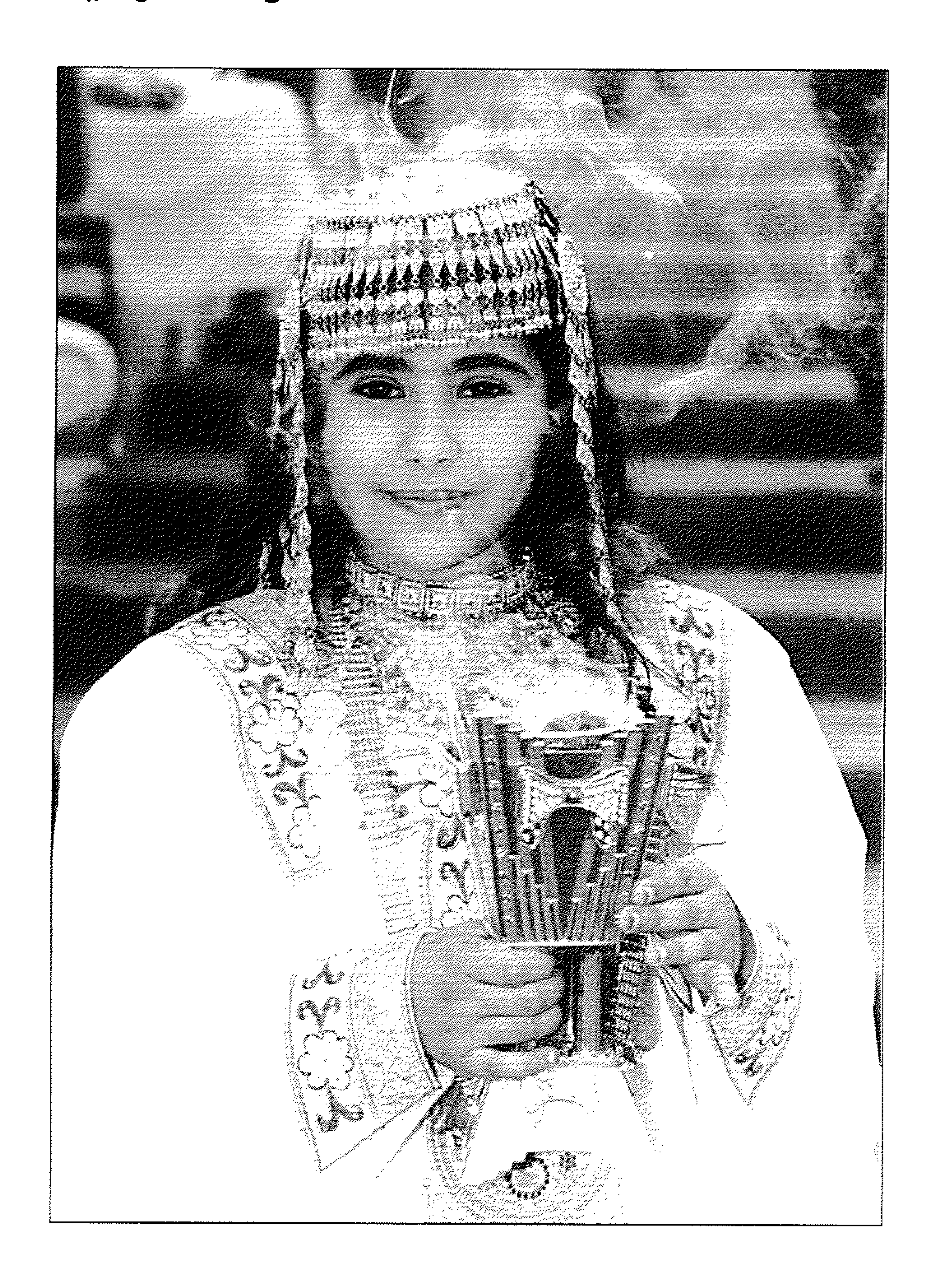
١٧- جابر الشكري: الطيب والعطور السابق.

١٨- تستخلص الزيوت الطيارة والعطور وما شابهها من المواد الطبيعية من مصادرها بطرق مختلفة بحسب نوع الزيوت وخواصها الكيميائية والفيزيائية، وأبسط صورة للاستخلاص Extraction تتم بواسطة التقطير بالبخار «وقال الصناع العرب –التقطير بالرطوبة».. Steam distillation ولقد عرف البابليون قبل العرب هذه الطرق واستخدموها في تحضير مواد كثيرة، ولاسيما تحضير ماء الورد. ولا تزال الطرق القديمة متبعة في كثير من المدن والبساتين العراقية، كما في بساتين كربلاء، وإذا أريد الحصول على الزيت النقي الخاص يفصل من الماء إما بالتصعيد وإما بالطرق الكيميائية المألوفة.

١٩- ترجمة د . إحسان عباس.

٢٠- د. جابر الشكري: الطيب والعطور، المرجع السابق.

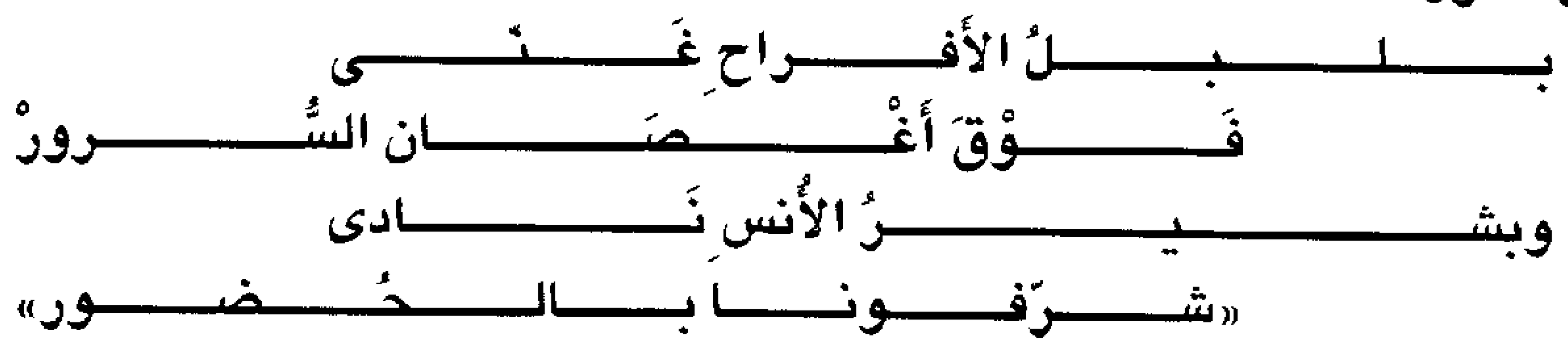
٢١- بندر عبد الحميد: إعادة الاعتبار للحاسة المنسية، العربي السابق.



العروس

أ.د محمد رضوان الداية

في ديوان شاعر الحمراء (محمد بن ابراهيم المراكشي) بطاقة صغيرة لطيفة، فيها دعوة إلى حفلة عرس في بيتين اثنين، تقول:



بــــلــــبـــلُ الأفـــــراحِ غَـــــنّـــــى
فَــــوْقَ أغْــــصَـــانِ السُّــــرورْ
وبشـــــــيـــــــرُ الأُنسِ نَـــــادى
«شـــرّفـــونــــا بــــالـــحُـــضـــور»

والكلام على الأفراح يتشعب ويطول، والكلام على العرس والأعراس ذو عناصر كثيرة، لكنني أختار لهذه الحلقة الكلام على العروس مفردة تراثية ذات أبعاد واسعة متنوعة.

(١)

الألفاظ المستخرجة من حروف (ع ر س) في لغة العرب كثيرة ومادتها واسعة، و«العروس» صفة تطلق في لسان العرب على المرأة والرجل. وفي معجم الصحاح أن صفة عروس تطلق عليهما ما داما في إعراسهما، قالوا: امرأة عروس ورجل عروس.

وسموا الوليمة أيضاً عرساً، وهي الوليمة التي تقام عند الإملاك (حفل الزواج).

وجمعوا العرس، للرجل والمرأة: أعراس.

وقالوا في الزواج: عرّس بها وأعرس.

والزوجان لا يسميان عروسين إلا أيام البناء واتخاذ العرس، والمرأة تسمى عرس الرجل في كل وقت.

وتكرر في الحديث النبوي ذكر العُرس والإعراس والعروس، وفيه: «فأصبح عروساً» يقال للرجل عروس كما يقال للمرأة، وهو اسم لهما عند الزواج. وفي الأثر أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ابنتي عُرَيِّس، هذه الكلمة تصغير عروس، ويقال «معرس» للرجل إذا دخل بامرأته عند بنائها (عند الزواج).

واشتهر في الاستعمال الدارج تخصيص العروس بالمرأة، ووصف الرجل بالـ (عريس). ونقرأ في مسرحية (عروس النيل) لمحمود تيمور الغنائية (من النشيد السادس عشر، بالعامية المصرية):

افرحْ يا نيلْ تَمّ المرادْ
يوم دخلتك عيد البلادْ
بُكره تقول البَحْر زادْ
وخِيرُه مالي أرْضِنا
«يا ربّة الأرباب» إيزيس
زفّي العَرُوسة للعريس
يضحكْ لنا بعد العُبوسْ
والموج يسمّعنا الغنا

وقد أثبتت بعض المعاجم المعاصرة هذه المفردات، ونقرأ في المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة: «العروسة: الزوجة ما دامت في عُرسها. والعريس: الزوج والجمع عرسان.

وبالمناسبة فقد أطلق الناس اسم العروسة على دمية تلعب بها البنات.

(٢)

واشتهر في مصر «عروسة المولد»، وهي دمية تتخذ عادة بمناسبة الاحتفال بيوم المولد النبوي الشريف، وسميت كذلك لأنها محلاة بثياب رقيقة شفافة براقة تذكر بجلوة العروس الإنسانة، وهذه الدمية تتخذ من سكر أبيض أو أحمر ثم تزين بالورق المذهب والمفضض.

(٣)

ومن المفردات المتعلقة بالعروس: جَلْوَةُ العروس، وهي تقال لغرضين الأول: حين تجلى العروس على زوجها أي لينظر إليها على تلك الحال من الاحتفاء بها والاحتفال. فالماشطة – مثلاً– تجلو العروس؛ ويقال جلت العروس واجتلاها زوجها أي نظر إليها.

والمعنى الثاني لجلوة العروس: ما يُعطى الزوج زوجته من منحةٍ أو عطية أو هدية في ذلك اليوم، يقال جلا فلان امرأته عقداً من اللؤلؤ أو مبلغاً كذا وكذا من النقد (ذهباً أو فضة أو غير ذلك) إذا أعطاها عند جلوتها، وفي حديث ابن سيرين أنه كره أن يجلي امرأته شيئاً ثم لا يفي به.

ويقال في السؤال من هذا عن إحداهن: ما جلوتها؟ فيقال: كذا وكذا.

وقد ذكر الشعراء قديماً جلوة العروس، وبعض أحوال الجلوة. ومن طريف الشعر في هذا الموضوع قول أحدهم، يذكر تأخر ظهور العروس وانشغال الماشطة بها:

فمتى تخرجُ العرو
سُ فقد طال حبسها
قد دنا الصّبْحُ أو بدا
وهي لم يُقْضَ لبسها!

فهو يذكر التأخير الناجم عن الاهتمام بملابس العروس.

وبالمناسبة فإن العرب تسمي الثوب الخاص الذي تلبسه العروس في تلك المناسبة باسم الخفاء (بكسر الخاء) وفي توصيفه قيل إنه رداءٌ تلبسه العروس على ثوبها (فوق ثوبها المعتاد) فتخفيه به. ويسمى في مصر: ثوب الفرح، ويقال له في الشام: تفصيلة العرس (لأنه يفصل خصيصاً للعروس) وإن كانوا اليوم يشترونه حاضراً لكثرة أنواعه، وقياساته وتنافس الباعة في أشكاله.

وقال شاعر آخر يستعجل زوجته، وقد أدركها الحياء وهي تُجلى:

سترتْ وجهها بكفّ عليه
شَبَكُ النّقش وهي تُجلى عَرُوسا
قلتُ: لم يُغن عنك سترك شيئاً
ومتى غطّت الشباك الشموسا؟

فذكر الشاعر أيدي العروس التي زينها نقش الحنّاء، كما ذكر جمالها الوضاء كالشمس المشرقة (التي لا تحجبها الشباك ولا تحول دون ظهور جمالها).

ومن طرائف التراث الشعبي المدون عن مطلع القرن الماضي أغنية تُغنى في الأفراح تصوّر العروس وقد

امتنعت من النزول من علّية الدار إلا إذا جُليت بشئ تستاهله من الجوهر، يقول مطلعها، وهو حديث متبادل بين العروس وصاحباتها أو أهل العريس: تقول المجموعة (والنص من التراث الشعبي الشامي):

يـلـلـي عـلـيـكـي كـتـر الـدلال
يـا حـلـوه انـزلـي

وتردّ العروس:

مـا بـنـزل مـا بـنـزل
إلا بـحـلـق ألـمـاس
الـمـامـا تـفـصـل تـفـصـل
والـبـابـا يـحـوّلْ يشـتـري!..

فالجلوة: حلق من الألماس: أمها تختاره، وأبوها يتولى دفع ثمنه، فهي أهل لذلك الدلال. وذلك أحمد أمين في العادات المصرية في الزواج في ذكر الموكب الذي يقل العروس ومن معها من أهل العريس وأهلها «ثم تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل ثم تتلوها والدة العروس ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى في بعض الشوارع الهامة ثم يعرج على منزل العريس فيتقدم العريس لاستقبال عروسه فتتأبى وتمتنع ولا تنزل إلا بعد إلحاح» إلخ.

وقد يكون كلام الأغنية الشامية موصولاً بمثل هذه التقاليد التي كانت سائدة من تمنع العروس الذي فيه «كل الدلال».

(٤)

ويذكر أيضاً: جهاز العروس، وجهاز (في الفصيح) مفتوحة الجيم، والعامة تقولها بكسر الجيم، وهو ما تحتاج إليه العروس؛ وقرأ القراء كلهم بفتح الجيم في قوله تعالى في سورة يوسف (ولما جهزهم بجهازهم) من الآية ٧٠.

والجهاز في اللغة هو ما يحتاج إليه في وجهه، ولهذا أضافوا الكلمة إلى أمور متعددة أشهرها جهاز العروس، وجهاز المسافر، وجهاز الغازي المحارب بما يحتاج إليه وجهاز الميت أيضا.

وللناس عادات في جهاز العروس وتقاليد تختلف مظاهرها بين بلد وآخر، وقطر وآخر، وعلى الرغم من غلبة موجة الحداثة في التعامل مع أحوال الأفراح والأعراس لا يزال بعضهم يحتفلون بجهاز العروس، وينقلونه على ملأٍ من الناس، ويحتفلون له احتفالاً خاصاً بعرض خاص، وبوجود أصحاب الآلات الموسيقية الشعبية.

وفي معجم أحمد أمين في العادات والتقاليد (وقد ألفه قبل نحو نصف قرن) كلام أورده عن المغالاة في جهاز العروس، ونقله من منزل العروس إلى منزل الزوج «في عربات مكشوفة، وكلما كانت العربات أكثر كان الزهو بالجهاز أكبر».

(٥)

ومن زينة العروس القديمة الموصولة بعادات اليوم والتقاليد الشائعة ما كان يسمى نَقْط العروس، يقال - كما في لسان العرب- نقطت خدها بالسواد، أي فعلت ذلك من باب التحسين والتزيين كوضع خال على الخد، أو زيادة إظهاره بنقطه، ويقال في كل تحسين للوجه فقط.

وسمى المتنبي تزيين الوجه وغيره باسم التطرية فقال مفضلاً الحُسن الأعرابي الطبيعي على الجمال الحضري المصنوع:

حُسْنُ الحضارة مَجْلُوبٌ بتَطرية
وفي البَداوةِ حُسْنٌ غير مجلوب

واستعيرت كلمات كثيرة لمعنى التحسين والتزيين والتجميل. ومنها النقش بالحناء والاختضاب بغيره أيضا مما يطول تفصيله.

واشتهرت ليلة الحنة (الحناء). وفيها تتحنى العروس وصويحباتها ويطول الحناء الأيدي والأرجل.

ولا يزال للحناء أثر في الأفراح في البلدان العربية المختلفة عدا المراكز الحضرية الكبرى كالعواصم والمدن الواسعة.

(٦)

شغل اسم العروس وأحوالها المختلفة جوانب متعددة في التراث الشعبي في القصص الخيالي، وفي المأثور الشعبي: من الحكايات والأساطير، والأقوال والأمثال، واستفادت النصوص الأدبية شعراً ونثراً من الكلام عن العروس والعريس، وأحوال الأفراح والأعراس، ونكتفي في هذا المجال بأمور تناسب الكلام عن العريس مما يلائم ويناسب.

في أمثال العرب القديمة: «لا عطر بعد عروس» ويقال فيه «لا مخبأ لعطر بعد عروس» قالته امرأة من قبيلة عذرة في زوج لها مات اسمه عروس. قالت العبارة

التي صارت مثلاً حين لم تحمد زوجها الثاني في قصة ذكرها الميداني (٢١١:٢).

وقالوا «كاد العروس يكون ملكاً»، والعروس في المثل: الرجل، أي يكاد يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.

وروي أيضا: «كاد العروس يكون أميراً» والمقصد واحد.

وضربوا المثل بـ «طفيل العرائس» وسيرد الكلام عليه.

وضربوا المثل في العرائس، وثراء الأعراس، وشهرتها بعروسين كانتا في العصر العباسي: إحداهما قطر الندى، واسمها: أسماء بنت خمارويه (توفيت ٢٨٨هـ) وكانت من شهيرات النساء عقلاً وجمالاً وأدباً؛ تزوجها المعتضد سنة ٢٨١هـ (وهو أحد الخلفاء العباسيين) وجهزها بجهاز لم يعمل مثله كما قيل.

والعروس الثانية المشهورة هي بوران بنت الحسن بن سهل، التي تزوجها الخليفة العباسي المأمون (١٩١-٢٧١) وكانت من أكمل الناس أدباً وأخلاقاً، وقد قيل في أخبارها «ليس في تاريخ العرب زفاف أنفق فيه ما أنفق في زفافها على المأمون سنة ٢٠٩، وللشعراء في وصف ليلة العرس كلام كثير.

وبالمناسبة فإن البورانية طعام مشهور منسوب إلى بوران زوج المأمون.

وفي الأمثال العامية ضربوا المثل أيضا بأم العروس وأم العريس وبالعروس بحسب ظروف الكلام ومجرياته. فقالوا في مصر: «لبس البوصة تبقى عروسة» يقال هذا في معنى أثر التجمل والزينة، وقالوا في حال الازدحام وتكاثر الناس: «عرس وداير» وقيل «قط ما بيهرب من عرس» لمن لا يفوّت فرصة سانحة، وقيل «عزموا الحمار على العرس قال باينة «واضحة» يا للركب (الركوب) يا لزق (نقل) الميّ.

يقال في من يدعى في المناسبات لخدمات يقدمها؛ لا إكراماً له، وفي أمثال مصر: «اقرصي العروسة في ركبتها تلحقيها في جمعتها» على التفاؤل بسرعة زواج صديقات العروس، وقالوا: الفرح للعروسة والعريس والشقا للمتاعيس.

(٧)

والعرب تضيف إلى العروس كل شيء شديد الحسن، جامع للصفات المحمودة المنظور إليها، ومن ذلك:

- سفينة العروس، وهي السفينة الكبيرة التي تشتمل على نفائس الأمتعة للتجارة.
- وخزانة العروس: تقال في كل خزانة خاصة زاخرة بالنفائس والطرائف.
- وسوق العروس: ويطلق على أحسن الأسواق وأجمعها لأحسن الطرائف والبضائع.

وإنما أضافوا هذا وأشباهه إلى العروس لأن العادة جارية باحتفال الناس لتجهيز العرائس بالأشياء الطريفة والنفيسة.

ومن هنا ضربوا المثل بـ «سوق العروس» فقالوا: «أحسن من سوق العروس».

وأطلق اسم سوق العروس قديماً (في العصر العباسي) على سوق معينة ببغداد كانت مجمع الطرائف، قال الثعالبي «وما ظنك بأحسن الأسواق في أحسن البلاد»؟

وكان الخوارزمي (الأديب الكاتب في القرن الرابع) إذا وصف امرأة بالحسن قال كأنها سوق العروس وكأنها العافية في البدن.

ونومة العروس وردت في حديث رواه الترمذي (جنائز ٧١) في صفة المسلم المؤمن، وقد سئل في القبر، وعرف عمله الصالح المنجي، وفيه: «ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان (أي يقول الملكان) نم كنومة العريس الذي لا يوقظه إلا أحب الناس إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذاك».

(٨)

وذكروا - مما نسب إلى العروس- ليلة العروس، وذيل العروس وحنين العروس، وقناع العروس، وعطر العروس، وجلباب العروس، ونوم العروس.

فليلة العروس يشبه بها ما يوصف بالحسن كقول الصاحب:

وشادن في الحسن كالطاووس
أخلاقه كليلة العروس

وذنب العروس: يراد به ما ينجر من ثوب العروس الطويل، شبّه ذنب الفرس بذنب ثوب العروس أو امتداده الرشيق فقال:

لها ذنب مثل ذيل العروس..

فقد أراد امرؤ القيس تشبيه طول ذيل الفرس بطول ذيل ثوب العروس، والعروس تجرّ الثوب لطوله، وقد

يكون ذلك من الحياء ويكون من الخيلاء.

وفي قناع العروس قال شاعر يصف خيلاً أثارت الغبار في ركضها حتى كست جبلاً يسمى دمخاً:

وجَلَّلْنَ دمخاً قناعَ العَرُوس
تُدْني على حاجِبَيْها الخِمَار

والتشبيه هنا من باب التشبيه التمثيلي: وضع صورة في مقابل صورة أخرى، فالغبار على جبل دمخ، وهو غبار ثائر عال يشبه قناع العروس الذي يغطيها بلونه الأبيض.

وفي جلباب العروس وهو ثوبها الخاص بتلك المناسبة قال ذو الرمّة (ديوانه ١١٠٨):

وليلٍ جلباب العَرُوس ادَّرَعْتُهُ
بأربعةٍ والشَّخْصُ في العَيْن واحِدُ!

قال يونس النحوي في «جلباب العروس» إن الشاعر شبه الليل بجلباب العروس في الطول. وقال الجاحظ: أراد سبوغ الليل (تغطيته الدنيا بالسواد) كما يغطي جلباب العروس كل شيء فيها.

واستفاد الزبيدي حين شرح القاموس المحيط من سجعة «العروس» مع القاموس فسمى شرحه «تاج العروس من جواهر القاموس» ولا يزال يسمى بهذا الاسم: فهو تاج، وهو إكليل أيضا.

(٩)

ومن الطرائف والغرائب معاً إظهارهم حسن العروس (وإن كانت شديدة الحسن والجمال) بإحضار فتاة غير جميلة أو تشعث هيئتها وملابسها لتكون إلى جانب العروس لتصبح في عين الناظر أكثر جمالاً. وسموا تلك الفتاة باسم (سوداء العروس)

وقيل في وصفها هي جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء وتوقف بإزائها لتكون أظهر لمحاسنها، كما قال الشاعر:

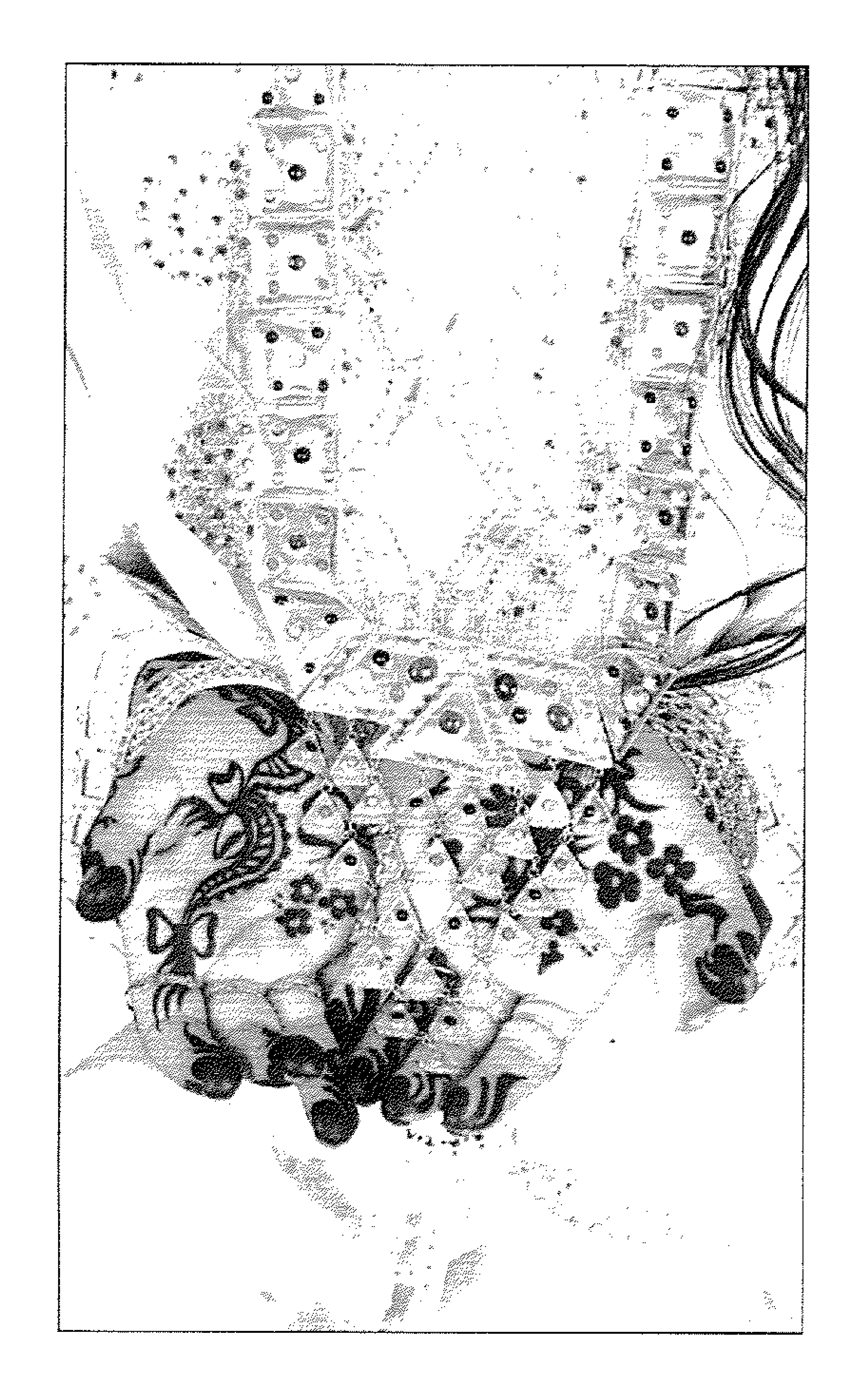
فأحْسَنُ مرأىً للكواب أن تُرى
طوالع في داجٍ من الليل غَيْهَبِ

وكما قال الآخر:

والضدّ يظهرُ حسْنَهُ الضد

ولتكون سوداء العروس كالعوذة لجمالها وكمالها!

وضربوا المثل بـ (سوداء العروس) كقول أبي اسحاق الصابي يصف شراباً من نقيع التمر أسود



الليل تحمله فتاة بيضاء اللون

بنفسي مقبلُ يهدي فتوناً
إلى الضيف الكرام بحسن قدّهْ
وفي يده من التمريّ كأسٌ
كسوداء العروس أمام خدّه

واشتهر ممن نسب إلى العرائس، طفيل، المعروف بطفيل الأعراس وطفيل العرائس، وهو الذي أعطى اسمه لهذه الظاهرة الموجودة قبله والموجودة بعده، ولكنه باشتهاره وفنونه أعطاها اسمه في العربية فذهب مع التاريخ.

وطفيل شخصية حقيقية وإن اختلف في نسبته، واشتهر بالغطفاني مما يرجح نسبته - كما ذكر ابن قتيبة إلى عبد الله بن غطفان بن سعد، وكان يتتبع الأعراس فيأتيها من غير أن يدعى إليها، ويقال إنه أول من فعل ذلك، وإليه ينسب الطفيليون.

وضرب به المثل

وقال أحدهم ممن أعجبته طريقة طفيل؛ متحدثاً عن

نفسه:

يطوف بنيسابور في كل سكةٍ
خليفة مولاه طفيل العرائس

(١٠)

انتشرت كلمة العروس في الشعر العربي، وفي الأمثال، والأقوال استفادوا من الكلمة في فنون البلاغة، وخصوصاً فن التشبيه، ومنه تشبيه المقري التلمساني غوطة دمشق بالعروس، وقد زار دمشق وضواحيها فأعجبته جداً، قال:

دمشق راقت رُواءً
وبهجةً وغَضارَهْ
فيها نسيم عليلٌ
صحّتْ فوافت بشاره
وغوطة كعروسٍ
تزهى بأعجب شاره

وقال ابن عبد ربه يصف سفينة:

كأنّها جبلٌ في الماء ينتقل
يا مَنْ رأى جبلاً في الماء ينتقلُ
تحكي العروس تهادى في تأوّدها
وقد أطافت الدايات والحولُ

فهي كالعروس تحيط بها الوصيفات واللواتي يعتنين بها

ورثت عائشة التيمورية ابنة لها توفيت في زهرة الشباب، فقالت من قصيدة (على لسان ابنتها وكأنها تحادثها)

أمّاه قد عزّ اللقاء وفي غد
سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي
هو منزلٌ وله الجموعُ تصيرُ
قولي لربّ اللحد رفقاً بابنتي
جاءت عروساً ساقها التقديرُ

وتخيل عمر أبو ريشة للمجد عروساً، وهي عروس طروب لأن أهل الشام حققوا الاستقلال عن الانتداب الفرنسي، والقصيدة المشار إليها طويلة وهي من عيون شعره، وفيها:

يا عروس تيهي واسحبي
في مغانينا ذيول الشُّهبِ
لن ترى حبّة رمل فوقها
لم تُعطّر بدما حرّ أبي
درج البغي عليها حقبةً
وهوى دون بلوغ الأرب!

ومن طريف الشعر بيتان ذكر فيهما الشاعر مفاخرة بين دمشق وحماه من مدن الشام، وجعل دمشق تتيه بالعروس، وهو ا سم إحدى مآذن الجامع الأموي الكبير (مئذنة العروس)، فقال واستفاد من فن التورية:

قاسوا حماة بجلّقٍ فأجبتُهم
هذا قياسٌ فاسدٌ وحياتكمْ
فعروس جامع جلّقٍ ما مثلها
شتان بين عروسنا وحماتكم!..

(١١)

واستفاد المؤلّفون والمصنفون من اسم العروس لتكون الكلمة جزءاً من عناوين تلك المؤلفات:

- وفي هذه العناوين ما هو يتعلق بالعروس على وجهٍ ما «تحفة العروس ونزهة النفوس» و«مسند العروس لتأسيس الأسرة الإسلامية السعيدة» وتحفة العروس (أو الزواج السعيد في الإسلام)، و«شهر عسل.. لكل عروسين» و«أزياء العرائس».

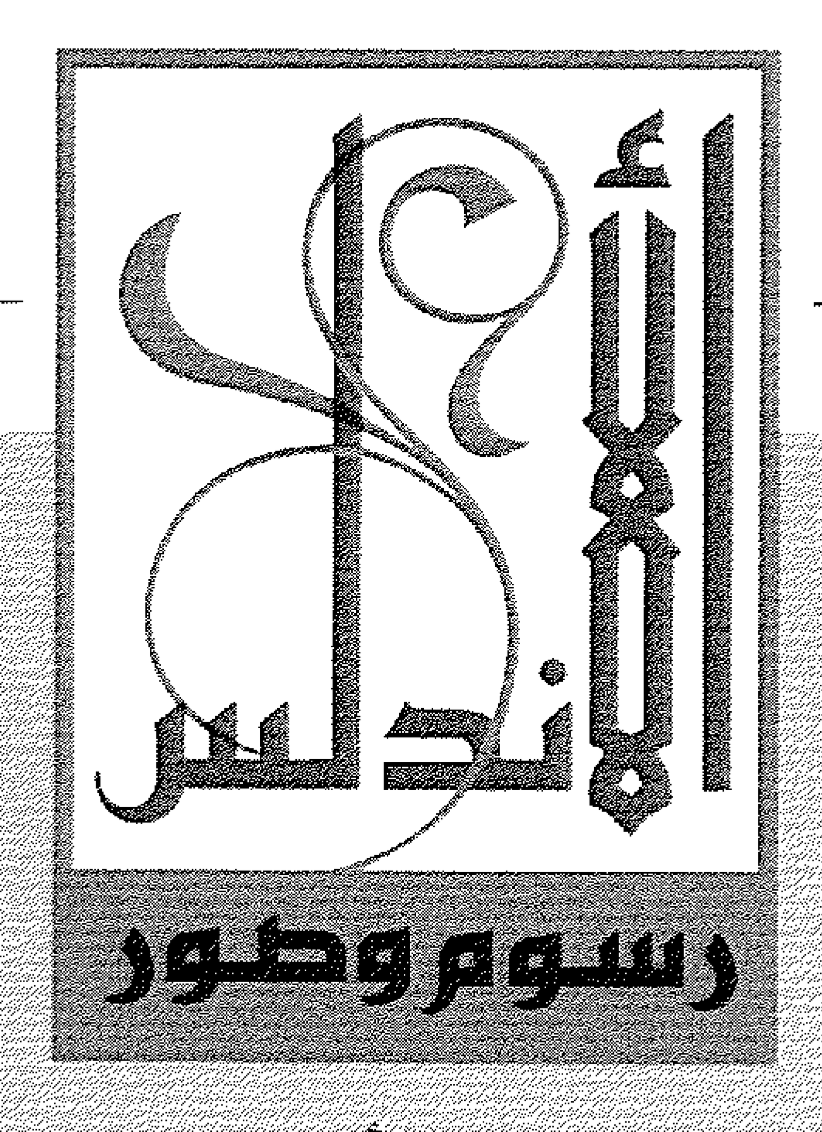
وألفّت كتب عن بعض المدن التي وصفت بالعروس على سبيل التحسين لتلك المدينة، والتقدير: مثل: «إدلب عروس الزيتون الأخضر» و«عروس الريف» و«القدس عروس العروبة» و«تدمر عروس..»».

وجاءت كلمة العروس جزءاً من عنوان لأكثر من قصة اجتماعية وتاريخية.

ووردت تزييناً للعنوان مثل كتاب ابن حزم «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» و«مولد العروس» الشهير بالجوزي، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس» لابن عطاء الله السكندري، و«عرائس المروج» لجبران خليل جبران، و«قصص الأنبياء المسمى: «عرائس المجالس»..إلخ.

وهناك كتب ورد في عناوينها: العروس والعرائس مما يخص مسرح العرائس (الدّمى).

والاستقصاء يطول، لكن هذا القدر القليل يدل على شيوع الكلمة وانتشارها، ولا شك في أن إيحاء الكلمة واشعاعها الحسن أغرى المؤلفين بالاستفادة من استعارتها.■



إعداد أ. د.
عبد الرحمن علي الحجي



رسم للقائد العثماني المشهور، والذي كان والي الشمال الأفريقي من قبل العثمانيين، خير الدين بربروسا (Barbarossa) ذي اللحية الحمراء، والذي قام بدور ضخم وكبير وجريء لمعاونة مسلمي الأندلس بعد السقوط، حين وقع عليهم الاضطهاد الشنيع والمطاردة والتنكيل، فأرسل عشرات الرحلات في سفن تصل إليهم من الجزائر لإغاثتهم ومددهم وعون من يريد الرحيل منهم والرسم موجود في متحف البرادو (Muse del Prado) في مدريد- إسبانيا. الرسام هو الإسباني الشهير دييجو بلانكت
Dieog Velazquez ١٦٦٠/م، أما تاريخ الرسم فهو بين ١٦٣٧ و١٦٤٠م.

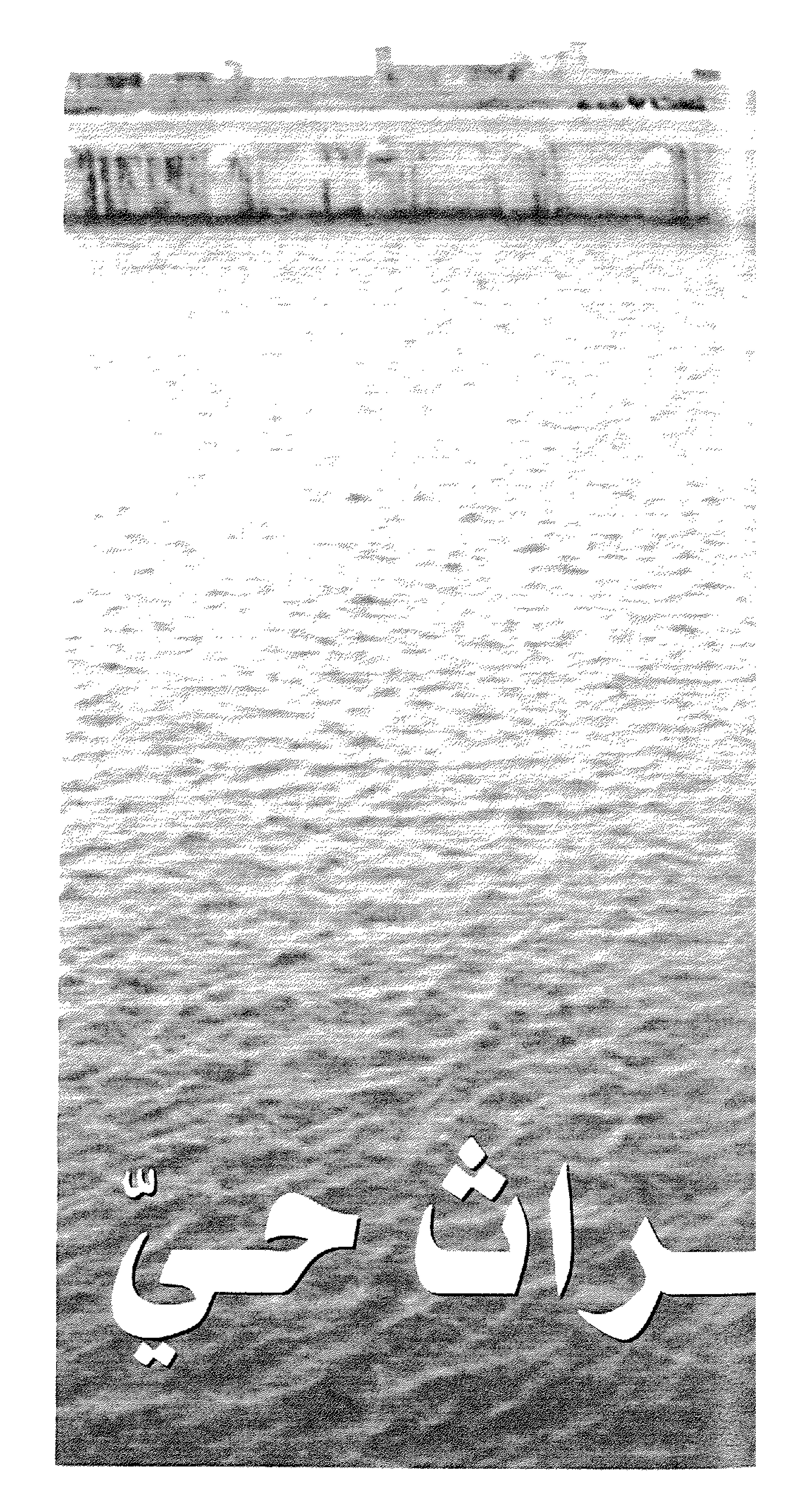


تدبير الماء في المدن المغربية في أوائل الفتح الإسلامي

تاريخ قديم وت

■ نجاة أحمد عروة

تفننت المجتمعات البشرية منذ استقرارها ومبادرتها النشاط الزراعي وتذوقها للرفاهية ورغد الحياة الحضرية، في اختراع وتطوير أدوات وهياكل تسمح لها بالتقاط وتوزيع الماء الذي أصبح ضروريا، بل حيويا لصحتها وراحتها. فلقد افترضت إدارة الموارد المائية، ابتداء من العصر النيوليتي Neolithic وحتى عصرنا هذا، الاهتمام باختراع وتثبيت، ثم تنظيم وتسيير عدّة منشآت مختلفة الوظائف نذكر من بينها: التقاط المياه السطحية والجوفية، تصفيتها أو معالجتها الأولية (احتماليا) جلبها نحو موقع الاستقرار، تخزينها، توزيعها ثم تصريفها بعد الاستعمال عبر قنوات خاصة. وحديثا معالجتها مجدّدا بغرض إعادة استعمالها، الحفاظ عليها من الناحية الكميّة والنوعية والوقاية من المخاطر التي قد تتسبّب فيها.



الواقع أنها هندسة المياه ظهرت في المواطن الريفية أولا، حيث البساتين والمزارع والمراعي المترامية الأطراف التي ساهمت في تكوين ثروات الحضارات القديمة وتثبيت نفوذها. بعدها تطورت وتعقدت هذه العلوم التقنية والتدابير التنظيمية بفعل تزايد وتعقيد متطلبات الحياة المدنية وازدهارها، وسوف نقتصر في هذه الورقة الوجيزة على تفصيل هذا الجانب بالذات، أي الهندسة المائية وسط العمران المدني.

يزخر تاريخ أوّل المعمورات المستقرة بمعلومات هامّة مفيدة تتعلق بما يعرف اليوم بالهندسة المائيةhydraulic كما يبدو أنها باشرت البعض منها في زمن مبكّر نسبيا، في وضع منشآت مهيأة حسب كميّة الموارد المائية المتوفرة محليا لتدارك حاجة السكان لها، كان يتم بفضلها التقاط وتوزيع المياه من جهة، ثم تصريفها بعد استعمالها من جهة أخرى. ذلك ما حصل في مدينة «موهنجو دارو» (باكستان)، و«ماري» (العراق)، و«حبوبة كبيرة» (سوريا). يعود تاريخ إنشاء جميع هذه المدن الأثرية إلى منتصف الألفية الثالثة (ق.م). وقد كشفت الحفريات التنقيبية في تلك المواقع التاريخية القديمة عن وجود شبكة لتوزيع الماء وأخرى لتصريفه بعد الاستعمال وهي تمتد إلى كل أحياء المدينة.

تمّ اختراع أغلب المنشآت المائية الحديثة قبل ٣٠٠٠ سنة!. وقد وجد أسلافنا لكل هذه المسائل المتعلقة بالماء حيلا أو تقنيات مناسبة ناجعة، أضافت لها سنون ما بعد الثورة الصناعية المضخات الميكانيكية وتقنيات معالجة المياه الملوثة التي تزايد حجمها وخطرها في كبريات المدن المعاصرة خاصة.

تبيّن الخرائط الجغرافية عبر التاريخ تطابق مناطق استقرار العمران البشري بمواقع توفر الماء في مختلف صيغه: نهراً كان أم بحيرة، عيناً جارية أم جوفية. ولا تبعد المدن المغربية، الداخلية والساحلية، عن هذا النموذج العام. فالعديد من المواقع المدنية هنا يدلّ على هذه الاستراتيجية التي تربط اختيار الموقع المعمّر بوفرة الماء فيه، كما تصل شكل المدينة المعماري بالصيغة الطبيعية التي يظهر بها. فقد يدمج عمرانها قنوات أو جسوراً أو أحواضاً أو عيوناً لا يزال التاريخ يشهد لها متانة وفعالية وأناقة مؤكدة.

وبعد، يكفي تنضيد الخارطة المائية (أو الهيدروغرافية) بخارطة المدن التاريخية في المغرب لاستنتاج هذه العلاقة الجدلية الواضحة ما بين عنصر الماء وتطور العمران. فقد برع الإنسان في جلب الماء إلى موقع استقراره، تلاًّ كان أم سهلا، جديداً أم سابق التعمير، مثلما تشهد عليه القنوات الممتدة على بعد عدة كيلومترات في مدينة «شرشال» بالجزائر و«قرطاج» بتونس، والسواقي والأحواض التي أعطت اسمها للمدينة في مدينة «تلمسان» بالجزائر، «تلمسان المنابع»، وشبكات توزيع الماء وتصريفه عبر شوارع المدينة في مدينة «الجزائر» ومدينة «فاس» بالمغرب الأقصى.

من جانب آخر، لا يؤثر عنصر الماء في اختيار موقع العمران فحسب بل وفي كثافته، وتنظيمه المدني، وفي بقائه ودوامه. كما أنه يبصم بختمه على العمارة

والاقتصاد، ويفرض ضرورة إنشاء خطط وأساليب متفاوتة التعقيد لجرّه وتوزيعه وتخزينه حسب قرب أو بعد منبعه، وحسب صيغته السطحية أو الجوفية، وحسب وفرته أو ندرته.

تعدّ استراتيجية الماء من بين الضروريات الأساسية والمشروطة لكل عملية تمدّن أو استيطان. لا سيما في منطقة المغرب العربي التي سنذكّر بخصائصها الطبيعية في الفقرة التالية.

سوف تسمح لنا هذه اللمحة التاريخية الخاصة بالمنشآت والمباني المائية بتوضيح ما يلي:

- مواصلة نفس التدابير عبر مختلف الفترات التاريخية قبيل وبعد الفتح الإسلامي لمنطقة المغرب العربي.
- مدى تطوير وتنمية بعض التقنيات والأساليب التنظيمية بالخصوص في ثلاث مدن جديدة أنشئت ابتداء من القرن ٧م: مدينة «القيروان» بتونس (٧م)، مدينة «فاس» بالمغرب الأقصى (٨م)، «قلعة بني حمّاد» بالجزائر (١١م).
- كيفية تأثير العنصر المائي في تحديد الموقع الجغرافي وازدهار العمران.
- ثم سوف نتطرّق إلى المفهوم الفلسفي والاجتماعي للماء وبعض الجوانب القانونية المستنبطة من التوصيات الدينية الإسلامية.

١- الطبيعة الجغرافية في منطقة المغرب العربي:

ينقسم إقليم المغرب إلى منطقتين متباينتين هما:

- منطقة ساحلية مطلة على حوض البحر المتوسط، تحدها سلسلة جبال الأطلس.
- منطقة سهلية تتلوها منطقة صحراوية شاسعة.

يشمل هذا التباين المناخ والتضاريس والإمكانيات الزراعية والثروات المعدنية أيضا. إذ تفصل سلاسل جبال الأطلس التلّي والأطلس الصحراوي الشمال الممطر عن الجنوب الجاف. غير أن ما يميّز المناخ في هذا الإقليم هو تقلبه وتفاوته، واختلاف كمية الأمطار وطبيعة المناخ السائد في المنطقة الساحلية نفسها وفيما بين الفصول الطبيعية لتزيد المناظر والنباتات اختلافا وتنوعا.

توضح خريطة الأمطار في منطقة شمال إفريقيا تباين هذه الكميات من جهة لأخرى، أما بالنظر إلى المعدل السنوي (٢٠٠مم)، فهي لا تشكو من الجفاف التام وهي تلتقط أكثر من ٤٠٠ مم/سنويا داخل ما يزيد عن ثلث مساحتها الإجمالية، ذلك ما يسمح بمواصلة وتطوير الزراعات الساحلية. وقد تزخر بعض المناطق بمعدل يفوق ٨٠٠ مم/سنويا. تلتقط المناطق الجبلية كميات معتبرة من المياه (بمعدل ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ مم/ سنويا). وتستفيد المناطق السهلية والسهول الساحلية بمعدل ٤٠٠ إلى ٦٠٠ مم/سنويا. بينما تنخفض هذه الكمية إلى ١٥٠ أو ٣٥٠مم في منطقة الهضاب العليا. لا شك أن لمقربة البحر والسلاسل الجبلية أثر مباشر على نظام تهاطل الأمطار، إلى جانب ظاهرة تبخر الماء في المناطق الداخلية التي يعود سببها إلى طول مدّة التشمس وكثرة هبوب الرياح الساخنة.

لهذا المناخ المتباين علاقة واضحة بطبيعة الأرض والنبات وبالأحرى بالمجاري المائية. فأغلب الوديان في منطقة شمال أفريقيا وقتية وليست دائمة، لا تبلغ أقصى مستواها إلا بمناسبة الفيضانات الفصلية. فقد تشكو جميع هذه المجاري المائية من ظاهرة التبخر أو ظاهرة التسرّب بشكل ملحوظ، سواء وجدت بالمنطقة الشمالية وانكبت في البحر، أو في المنطقة الجنوبية وانكبت في المنخفضات.

تتحكم هذه العوامل البيئية في توزيع السكان وتطور العمران حيث تبدو المناطق الشمالية أكثر تجاوباً مع متطلبات الحياة الحضرية المستقرة والتزايد السكاني. يتأكّد أثر العنصر المائي في اختيار مواقع المحطات المرحلية والمدن المزدهرة عبر تاريخ المعمورات البشرية السابقة للفتح الإسلامي، إلى جانب شبكة المواصلات الداخلية، التي تشرح سببية إنشاء بعض المدن في مواقع قليلة الموارد المائية نظراً لامتيازات دفاعية ملحوظة كان لابدّ من مراعاتها وقد كانت تمون بواسطة قنوات وسدود لتحويل مجرى الماء باتجاهها.

٢- العمران البشري في منطقة المغرب العربي قبل الفتح الإسلامي:

يوضح تاريخ المدن والمناصب الأثرية تطوراً عمرانياً في شمال أفريقيا من حيث تواصله الزمني وامتداده الجغرافي. فلقد استمر على ما يبدو تعمير هذا الإقليم بدون انقطاع منذ عصر ما قبل التاريخ، بالرغم من معايشته لفترات متفاوتة من حيث مستوى النمو الاقتصادي والحضاري. بالنظر إلى الخصائص المناخية ونظام الأمطار وطبيعة المجاري المائية المحلية، اقتضى تعمير الموطن تسخير واستغلال

جميع أنواع الموارد المائية الموجودة. فقد اضطرت كل الحضارات التي تتالت وتكاملت وازدهرت هنا إلى ضبط وتطبيق سياسة مائية دقيقة وجادة.

لما رست سفن الفينيقيين على سواحل حوض البحر المتوسط الغربية، أنشأت تلك «المحطات البونيّة» وأقيمت التبادلات التجارية مع أهل البلاد. وبعد فترة أنشأ اليونانيون مستعمرات سكانية لا نعرف عنها الكثير. المرجح أنها تطورت تلك المقرات الساحلية فيما بعد إلى موانئ ومدن مستقرة، بينما برزت بعض المدن الداخلية في منطقة التلال.

ظهرت فيما بعد مدن جديدة وأعيد تشكيل وتهيئة المدن القديمة بدفع من الرومان الذين تركوا في منطقة شمال إفريقيا أهم الآثار المعمارية القائمة إلى حد اليوم. نذكر من بينها إنشاء شبكة للطرقات الداخلية وضبط سجل المساحات وإنجاز العديد من المنشآت المائية الهادفة إلى تنمية الزراعة.

لقد أدركت كل دولة مرشّحة إلى استيطان شمال إفريقيا أهمية تطوير الزراعة في الأراضي المستصلحة بجانب منطقة السهول والهضاب العليا. كذلك فعل الرومان والفينيقيون وسكان البلاد أنفسهم. وسط هذه الطبيعة ذات الثروة المائية المتوسطة، اتجه العمران بديهيا إلى شغل الأراضي الواقعة على ضفاف الوديان فتمّت تهيئتها بحكمة وتدبّر. أما في حال عدم الاكتفاء من الموارد الموفرة محليا عن طريق الآبار والعيون، فقد كانت تجلب المياه من مناطق نائية، ذلك هو الحال في مدينتي «قرطاج» (تونس) و«شرشال» (الجزائر) حيث أنجزت السدود والقنوات الكبيرة. كما كانت تجمع مياه المطر وتنقل عبر أنابيب متصلة بأحواض عامة أو خاصة حيث يتم تخزينها.

لقد خصّ الرومان بعض المهندسين بمهمّة التفتيش على مواقع تواجد الماء وعملية جلبها عبر القنوات العامة، وهي تصنف من حيث بنيتها المعمارية إلى نوعين:

– قنوات مشكلة من مجموعة أقواس عالية متتالية.
– قنوات مشكلة من ثلاث طبقات من الأقواس المركبة.

كانت تخزن المياه عند بوابة المدينة، وسط أحواض واسعة، يتمّ بعد ذلك توزيعها عبر مختلف الأحياء السكنية بواسطة العيون العامة.

٣- ظروف تمدّن المغرب في القرن ٧م (فترة الفتح الإسلامي):

أتى ذكر هذا الموطن في بعض الكتابات السابقة للقرن ٧م وهي تصفه بـ «المغرب المجهول» بالنسبة للذين أتوه مجاهدين في سبيل الله ونشر دين الإسلام الجديد. وقد اقتضت العملية بالتأكيد سبق استكشاف أرباضه وأراضيه بمساعدة بعض السكان الأصليين للبلاد. يذكر ابن عبد الحكم (٨٠٣م -٨٧١م) في روايته لظروف فتح منطقة شمال إفريقيا والأندلس، أنه كلما بلغ القائد عقبة وأصحابه بلدا عامرا، سأل دليله المرشد عما وراء تلك المعمورة.

لقد أكّدت بعض الروايات التاريخية تعاون بعض السكان مع المسلمين وقد أمدّوهم بمساعدة فعالة وهم يعرفون مختلف جهات الوطن وعلى دراية بمواقع وجود الماء خاصة. فلقد كان لعنصر الماء دور مؤكد في اختيار خطوط السير ومواقع تهيئة محطات الرحيل والرباط والمدن الحديثة المنشأ.

دخل المسلمون منطقة شمال أفريقيا براً، عكس ما فعل الفينيقيون والرومان من قبلهم. ولقد رأى البعض أنهم أحسنوا في التفطن إلى تلك الحيلة الاستراتيجية التي رجحت اجتناب الخطوط الدفاعية والمدن المحصنة في الشمال. لعلهم استفادوا من المعلومات الدقيقة التي أفادهم بها مرشدوهم، إضافة إلى الخبرة المحصلة من الغارات الاستطلاعية السريعة التي قاموا بها باتجاه الشمال والتي كشفت لهم عن موطن ثري خصب، عكس ما وجدوه بمنطقة الهضاب العليا والسهول الصحراوية القليلة العمران البشري.

انطلاقا من هذا التاريخ، شهدت بعض المدن القديمة التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام (من حيث الإمكانيات الدفاعية أو الاتصال عبر شبكة الطرق الداخلية)، انتعاشا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعمرانيا ملحوظا. نذكر من بينها مدينة قسنطينة «سيرتا» سابقا بالجزائر، مدينة طنجة «طانجس» سابقا بالمغرب الأقصى، مدينة سوس «حضرومتوم» سابقا بتونس، مدينة سفاقس «طاباروا» سابقا بتونس.

في نفس الوقت، أسست مدن جديدة مثل ''القيروان» بتونس، و«فاس» بالمغرب الأقصى، و«قلعة بني حماد» بالجزائر، وعمّرت بمواقع خالية لم يسبق تعميرها من قبل. سوف نحاول عبر هذه الأمثلة توضيح السياسة المتبعة من طرف الحكّام المسلمين آنذاك في ميدان الهندسة المائية.

٤- التدابير المتخذة في المدن الجديدة بغرض توفير الماء:

مدينة «القيروان»

أتى ذكر القائد عقبة بن نافع (فاتح بلاد المغرب) وفرسه في أول الروايات التاريخية المتعلقة بالبحث عن الماء خلال توغله ورفقاؤه نحو الغرب حين بدت الحاجة الماسة إلى ماء الشرب وكادوا يموتون عطشا، فصلى عقبة ركعتين وسأل الله الفرج عنهم. فإذا بفرسه ينبش الأرض بساقيه وفجأة تنفجر عين من بين الصخور فيسارع الفرس في لعقها. فنادى القائد أصحابه وحثهم على الحفر فارتووا وملأوا أوانيهم ثم استأنفوا مشوارهم باتجاه الموقع الذي شغلته فيما بعد مدينة «القيروان». ولما بلغ الوفد غايته، رأى عقبة تهيئة الموقع فقسمه إلى عدّة قطع وأمر بإعماره بالسكان (سنة ٦٧٠ م).

وردت روايات متضاربة متعلقة بظروف اختيار هذا الموقع بالذات، البعض منها يراه مناسبا والبعض الآخر يراه معاكسا لتطور العمران. الواقع أنه يتوسط سهولا غرينية كانت تغص بزراعة الحبوب وأشجار الزيتون، هو يقع على بعد مسافة متساوية من ساحل البحر ومنطقة الجبال.

بناء على هذه المعلومات الموضوعية، يصعب دعم قول من ادعى أن عقبة أخطأ في اختيار موقع مدينة «القيروان»، زاعماً أنها تقع وسط منطقة سهوب معاكسة للتطور الاقتصادي والنشاط الزراعي، تعيث فيها الحيوانات المفترسة والوحوش والزواحف، غير ملائمة لإنشاء مدينة عاصمة.

أما الحقيقة العلمية، فهي تقرّ بموقع «القيروان» وسط منطقة سهلية تستفيد بمعدل ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مم من التساقطات سنويا. أما التواجد المكثّف لتلك الحيّات المخيفة، فهو يثبت بالتأكيد وجود طبيعة خصبة و ماء كاف!.

بالإضافة إلى هذا الاعتبار، يجب التذكير هنا بخصال القائد التي تشهد له بها الكثير من الوثائق التاريخية والتراجم، وهي تصفه بالقائد المدرّب العريف، على أتم دراية بشروط اختيار مواقع الاستيطان أو الاعمار، كما أنه لا يمكن أن يغفل أهمية عنصر الماء الحيوية والاستراتيجية كونه منحدراً من موطن يفتقر إلى هذه الموارد بالذات.

جاء في سيرة عقبة أنه اجتاز أرض تونس، حتى بلغ «قمونية»، وكان أحد الأمراء العرب على إفريقية، قد جعل من هذه المدينة معسكراً ينزل فيه الجيش العربي في رواح ومجيء. فلم يعجب عقبة المكان، لأنه ليس ضارباً نحو الشمال فيكون جبليا، ولا ضاربا نحو الجنوب فيكون رمليا.

ولقد اختير هذا المكان، لأنه بسيط من الأرض، كثير المراعي، جيد الهواء، خصب التربة، وفير المياه. ولكنه لم يكن -من الناحية العسكرية الدفاعية- صالحا ليكون قاعدة أمينة للقوات العربية، فقد كان يسكن «قمونية» نفر من غير المسلمين، قد يشكلون - كما رأى القائد الحصيف- خطراً على المسلمين، الذين هم في جهاد دائب لفتح إفريقية، حيث يغادرون المدينة في حملات متتابعة .

في الواقع، كان عقبة ينوي ويطمح إلى تأسيس مدينة إسلامية حقّة، مؤهلة لتصبح معسكراً معززاً ومركزاً مدعما لنشر الإسلام في هذا الإقليم. كما أنه خطط لبناء مسجد جامع كبير، ودار للإمارة، إضافة إلى مصلاة وبيوت تأوي الجماعات السكانية العديدة الوافدة إليها. وبالتالي فلقد اقتضى الأمر الاهتمام والبحث عن سبل توفير الماء.

وردت أول وأهم المعلومات عن الهندسة المائية بمدينة القيروان في بعض الوثائق المتأخرة بالنسبة لتاريخ تأسيسها، وهي منسوبة لفترة حكم الأغالبة (بداية القرن ٩م). حينئذ، اتسعت المدينة ونمت، وصارت عاصمة إدارية ودينية، تفترض وضع سياسة محكمة خاصة بمسألة الماء، بمعنى أنها عينت منهجا مضبوطا للبحث والتقاط المياه السطحية والجوفية، وتوزيعها العقلاني.

عثر علماء الآثار غير بعيد عن موقع المدينة التاريخية، على مبنى يعود تاريخه إلى العصر الروماني، يعتقد أنه خزان للماء و قد سمي بـ «قصر الماء». كانت تمونه قنوات تلتقط الماء على بعد حوالي ٣٣ كلم غربا. لجأ الرومان إلى حيلة تقنية تسمح لهم بجمع الماء عبر دهليزين مرشحين، يتصل الأول بشبكة غربية والثاني بشبكة شرقية.

أما الأغالبة، فقد استغلوا على ما يبدو الدهليز الأول بعد أن رمموه ودعموه وأضافوا له بعض الآلات الفنية الموزعة للماء. سمح لهم هذا الأسلوب بتموين الآبار والأحواض المهيأة داخل المنازل والمساجد بغرض تخزين الماء.

تزوّدت مدينة «القيروان» في عهد الأغالبة، بالعديد

من المنشآت الفنية الهادفة إلى تحويل وتخزين الماء، مثل البرك والأحواض.

أما البركة الصغيرة، أو بركة التصفية، فشكلها متعدد الزوايا، لها ١٧ طرفا متساويا. يبلغ عمقها ٤.٨٧م، بينما ترتكز جنابها على ٢٨ دعامة خارجية و١٧ دعامة داخلية كما تتخلل واجهتها الداخلية ١٦ كنّة.

تتلقى هذه البركة المياه الفائضة من واد «مرقيليل»، عبر فتحة مقببة تقع بين دعامتين. فوق أعلى إحدى الدعائم، لا يزال يشاهد جزء من أنبوب فخاري يبلغ محوره الداخلي ٢٥ر. م، وهو مركّب في حجم مبنى ملتحم بالبركة الصغيرة.

وأما البركة الكبيرة، أو بركة التخزين، فهي أيضا متعددة الزوايا، لها ٦٤ طرفاً متساوياً. يبلغ طول محورها الداخلي ١٢٩.٦٧م، بينما ترتكز أجنابها على ٦٤ دعامة داخلية و٥٨ دعامة خارجية فوق أعلى الزوايا، تتوسطها ٦١ دعامة خارجية أخرى. يبلغ سمك أرضيتها ٠.٥٠م، وعمقها ٤.٣٥م. كان يوجد وسط هذه البركة عمود مركزي يبلغ ٤.٦٨م طولا، شكله مثمن الزوايا، يوضع على أرضية دائرية مبنية فوق قاعدة البركة.

وقد تمّ وصل هاتين البركتين بواسطة بناية متراصة أحادية الكتلة.

وأما بالنسبة لأحواض التخزين، فهي تتشكل من دهليزين مقببين، مستقلين الواحد عن الآخر، متصلين مباشرة بالبركة الكبيرة. كان يغرف الماء انطلاقا من مستوى السطح، وعن طريق مجموعة مزدوجة من المنافذ المربعة والمقببة، المرتكزة على قاعدة البركة نفسها.

واصل الفاطميون بعد الأغالبة سعيهم إلى تموين السكان بماء الشرب عن طريق منجزات هندسية خاصة، نذكر من بينها خزان كبير، مربع الشكل، تمّ بناؤه بالقرب من الخزان الأول المتصل بالشبكة الرومانية الشرقية، يبلغ سمك حائطه ١.٣٢م، وهو يتكئ على ٢٠ دعامة خارجية، تبعد عن بعضها البعض بمسافة ٤.٥٠م من جهة الطول، وبمسافة ٤.٠٠م من جهة العرض.

لقد استفادت إذا البنايات الرومانية بعمليات ترميم وتطوير وتمديد على يد الأغالبة ثم الفاطميين من بعدهم. وقد تمّ ذلك بواسطة قنوات متطابقة ومتباينة، بنيت في كلتا الفترتين بهدف جذب المياه الجوفية والمياه النابعة.

أما قناة الأغالبة (١٧٠م طولا)، فترتكز على رصيف حجري أفقي الترتيب، يتخلله مجرى الماء. وأما قناة الفاطميين، فترتكز على بلاط كلسي، يحمل جدارين حجريين صغيرين مشدودين بلياط، وهما يشكلان غشاء لممر الماء، مقبب السقف ومنبطح القاعدة (الشكل).

تبدو التقنية البنائية المستعملة في تلك الفترة مشابهة للتقنية القديمة المستعملة في بناء أول القنوات المعروفة في التاريخ. وقد ظهر –ابتداء من أواخر الألفية الثانية– نوع من اللياط الممزوج بكسرة قرميد، يكسو جوانب الأحواض والقنوات الداخلية ويضمن مساكنهم. كذلك فعل الأغالبة حينما استبدلوا الحوض الروماني القديم.

أما صيغة القنوات المطمورة التي تسمح باجتياز المرتفعات المتزايدة، «الشكل» فهما تدبيران قديمان جداً، لعلهما أدخلا المغرب في عهد الأغالبة؟!.

كشفت لنا المراجع التاريخية التي عدنا إليها عن دراية حقيقية بتقنيات الماء متداولة عبر الأجيال. كذلك بالنسبة لتجاور حوضين، واحد كبير وآخر صغير، بقصد تخليص الماء من رواسبه، فهي عملية تبرهن على انشغال مهندسي الماء بتصفيته واهتمامهم بالنظافة الصحية العامة.

شهدت عملية تخزين ماء المطر تطوراً كبيراً خلال القرن ٩م، وقد بلغ عدد الأحواض المطمورة أو السطحية بمدينة القيروان حوالى (١٥). الواقع أنه تم استغلال جميع الموارد المائية، السطحية والجوفية، ثم تحويلها باتجاه المدينة وبساتينها عبر السدود المحولة والقنوات العامة، المكبّة في البرك الكبيرة والموزعة نحو المساجد والحمامات العامة.

مدينة فاس

تقرّ الروايات التاريخية بتأسيس مدينة فاس على يد «إدريس ابن عبد الله» الذي فرّ من المشرق ولجأ إلى المغرب في أواخر القرن ٨ م. فور توليته منصب الإمامة على رأس قبيلة «عوربة»، بدأ بشغل موقع «فوليبيليس» Volubilis الرومانية ثم عزم على إنشاء مدينة جديدة بالضفة اليمنى لواد «فاس». أما ابنه، الذي خلفه فيما بعد، فقد فضل إعمار الضفة اليسرى.

تكونت مدينة «فاس» التاريخية المعروفة اليوم نتيجة لتوأمة هاتين المعمورتين، حيث لم تطرح مشكلة نقص

الموارد المائية وقد جادت الطبيعة بها بوفرة غزيرة. وقد وقع الاختيار على هذا الموقع بالنظر لوفرة المياه الجارية على سطح الأرض أو النابعة منها. كذلك يبدو واضحا أنه تأثر نظام عمرانها والنشاط المدني بهذا العنصر الحيوي.

شرع المرابطون في إنجاز أول وأهم المنشآت المائية ما بين القرن ١١ والقرن ١٢م، حينها استغلت ووزعت مياه وادي فاس على السكان. أما الموحدون من بعدهم فقد بنوا قناة كبيرة لتموين «حارة الأندلسيين».

خلال القرن ١٣م (سنة ١٢٧٦ م)، أتى يعقوب بن منصور حاكم دولة بني مرين إلى إنجاز أشغال هندسية هامة لالتقاط مياه منبع مائي ثانٍ يسمى «عين عمير». ثم واصل ابنه هذا السياسة التنموية وكلّف مهندساً خبيراً بالأجهزة الميكانيكية بصنع آلة رافعة، أو ما يعرف بالناعورة، يبلغ محورها ٢٦م وعرضها متران، وهي تجر خلال دورتها عدّة أوانٍ خشبية، تغطس في المجرى فتمتلئ ثم ترفع الماء حتى مستوى القناة المجهزة أعلاه. تلك هي «الناعورة» أو «السانية» الشهيرة التي أدخلها المهندس وهو ذو أصل أندلسي إشبيلي إلى مدينة «فاس» المغربية.

تحمل وثيقة مؤرخة في القرن ١٧ م، وصف هيكل للتموين بالماء وهو يتشكل من ٣ شبكات متباينة: واحدة خاصة بالعيون النابعة، وواحدة لتصريف المياه الملوثة تعلوها أخرى للمياه الطاهرة. وضعت مختلف هذه الشبكات في تاريخ لاحق لتأسيس المدينة، فلقد انتظمت أحياء المدينة بفعلها ومن حولها (مثلما هو الأمر في مدينة الجزائر التاريخية)، إذ تمّ توزيع الوظائف المدنية، وبالخصوص الطواحين التي تستلزم قوة تساقط شلال مائي، وورش الدباغة والصباغة، والمذابح، التي لا تحتاج إلى كمية هائلة من الماء فحسب، بل وأيضا إلى إمكانية تصريف المياه الوسخة.

قلعة بني حماد

تحتل قلعة بني حماد موقعا استراتيجيا مميزا وهي تشغل منحدر «جبل المعاديد» على علو ٥٠٠م. أرادها مؤسسوها عاصمة لدولة مستقلة بعيدا عن صخب خصومها، فرجّحوا المعتبرات الدفاعية وباشروا في تحصينها وتعميرها. وهي لا تختلف عن باقي المدن الجديدة التي تم إنشاؤها في المغرب خلال تلك الفترة السياسية المضطربة، وقد بنيت جميعها في شكل مدن عسكرية احتماء من صراعات ومنافسات الحكام.

تمكنت المدينة من الاستجابة إلى متطلبات سكانها المتزايدة بمجيء جماعات من الطلبة والتجار الوافدين إليها بالخصوص في منتصف القرن ١١م. يحدّها شرقا «واد فرج» المنحدر من الشمال نحو الجنوب، وهو يعتبر خزانا مائيا طبيعيا يعزّز منابع المدينة ويمدّ قنواتها بالماء.

وسط هذه المدينة الزائلة، كانت ترتفع «دار البحر»، وقد سميت كذلك نسبة إلى الحوض الذي يتوسطها والذي كانت تمارس فيه الألعاب والرياضات المائية. وقد كانت «دار البحر» تضمّ مجموعة من البنايات، منها «قصر المُلك» وملحقاته، المخازن والأحواض لتخزين الماء والبساتين.

بعد أقل من قرنين من تاريخ تأسيسها (بداية القرن ١١م إلى أواخر القرن ١٢م)، اضمحلّت واختفت هذه المدينة وقد عاشت فترات ازدهار متفاوتة من حيث الأهمية والشهرة، لكنها على ما يبدو لم تشك نقصاً فادحاً في الموارد المائية كما تشهد به آثار المنجزات الهندسية الخاصة بالماء الموجودة على موقعها إلى حدّ اليوم. هناك عدّة قنوات تجلب الماء من المرتفعات المجاورة نحو أحواض القلعة. البعض من هذه القنوات كان نصفه محفورا في الصخر (مطمورا) ونصفه فوق الأرض. أما الأحواض (أين يخزن الماء) فهي موزعة عبر أحياء المدينة. زيادة على بركة «دار البحر»، توجد داخل القصر عدّة أحواض خاصة بالتصفية وخزانات للتموين المباشر، إضافة إلى خزان مقبّب وسط فناء المسجد. هناك خزان آخر معروف في القلعة يعرف بـ «عين السلطان»، شكله مستطيل، يبلغ ٩ أمتار طولا و٦ أمتار عرضا، تحيطه جدران حجرية غليظة، وتشده أربع دعامات نصف دائرية. يذكر شكل هذه الدعامات بأحواض الأغالبة الموجودة في منطقة الريف القيرواني. انطلاقا من هذا الخزان يسيل الماء عبر أنبوب نحو فسقية مرمرية مفصّصة إلى ثمانية قويسات دائرية.

لقد انتفعت القلعة بخبرة سكان مدينة القيروان اللاجئين إليها الذين أدخلوا تقاليدهم الحضرية، إضافة إلى درايتهم الهندسية الموروثة منذ عهد أسلافهم الأغالبة، وقد شهدت تطوراً ملحوظاً خلال قرنين من فترة ازدهارها.

٥ - عنصر الماء في المدن المغربية التاريخية:

على غرار هذه المدن الجديدة، هناك معمورات عديدة أخرى ارتبط نموها ودوامها بطبيعة الماء ووفرته في محل إنشائها. نذكر هنا البعض من هذه المدن الإقليمية (في منطقة التلّ المغربي) التي ازدهرت ما بين القرن٧ والقرن ١١م:

اسم المدينة	منبع الماء والمنشآت الهندسية المنجزة فيها
- عجار	- يستخرج ماء الشرب من الآبار.
- عرقو	- موقع غني بالموارد المائية.
- عين العصافير	- منبع مائي.
- عزبة	- سدود، وديان ومنابع مائية عديدة.
- باجة	- ماء صاف وافر، عدد لا يحصى من الوديان والمنابع.
- بجاية	- يزودها واد «توجة»، تجلبها قناة رومانية باتجاه أحواض التخزين.
- بغاية	- آبار للماء العذب وسواق تنحدر من جبل «الأوراس».
- بلازمة	- مدينة محاطة بالوديان.
- بالطا	- يمونها «وادي جدي».
- البرادوان	- منبع مائي.
- باسلي	- منبع مائي.
- بسكرة	- آبار وسط المدينة وقنوات للتموين تجلب مياه «وادي بسكرة». منشآت للري.
- البلّ	- آبار عديدة، أحواض، سدود وقنوات لتوزيع الماء.
- بونة	- يمونها «وادي الجمعة» و«بير النثرة».
- قرطاج	- ماء وافر، ناعورة، منشآت للري.
- قسنطينة	- منطقة مروية بوفرة.
- دكامة	- آبار وسواق عديدة.
- دار مللول	- منبع مائي محلي.
- جبولة	- منبع مائي داخل المدينة.
- جامونيس	- آبار للماء العذب وبركة مائية.
- جيجل	- عدة منابع مائية تنحدر من الجبال المجاورة.
- الغدير	- منابع عديدة تسمح بتشغيل الطواحين.
- إكجان	- عدة منابع مائية أخرى، إضافة إلى «وادي النجاس».

٦ـ الجوانب الفكرية والصحية والتقنية والقانونية المتصلة بالماء:

فيما يخص ميدان الهندسة، استفادت المدن المغربية كثيراً من التقاليد الفنية المحلية إضافة إلى المنشآت السابقة التي تمّ تطوير فعاليتها في بعض الأحيان. وقد أملت طبيعة هذا الموطن استغلال كل أصناف الموارد المائية، الجوفية والسطحية، بهدف تأمين حاجة السكان إليها.

أما بعد القرن ٧م والفتح الإسلامي، فقد شهد شمال إفريقيا تطوراً حضرياً جديداً دعمه تقارب وتبادل التقاليد المغربية والمشرقية في ميادين البناء والفنون المختلفة، لذلك قد يصعب –بل لا داعي له– تعيين أول مخترع لهذه المنشآت التي تعد اليوم تراثاً يخص الإنسانية جمعاء بعد أن تم إيصالها إلى أوروبا وأمريكا. بيد أنه بإمكاننا التعرف على جديد ما أضافه علماء ومشرّعو وفلاسفة الإسلام إلى مجال الماء بالمغرب. علما بأنه يتصل بعدّة ميادين بدءاً بالجغرافيا إلى الطب، مروراً بعلم المناخ وظواهره، وعلم المياه وظواهرها وتوزيعها، وتقنية المحركات بالماء. فكيف يمكن إهمال ذكر الجانب الروحي والأخلاقي أو القيمة المميزة التي خصها الإسلام بالماء والعديد من الآيات القرآنية تذكر وتؤكد توقف الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية على وجودها:

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء). آية ٩٩، سورة الأنعام.

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر). آية ١٠، سورة النحل.

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها). آية ٦٥، سورة النحل.

(وجعلنا من الماء كل شيء حي). آية ٣٠، سورة الأنبياء.

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى). آية ٥٣، سورة طه.

(والله خلق كل دابة من ماء). آية ٤٥، سورة النور.

أما شفافيتها وصفاؤها فيرمزان إلى قدرتها المطهّرة وهي لا تتصل بنظافة الجسم فحسب، بل وبنظافة الفكر والقلب . كذلك شعائر الوضوء التي يزاولها المسلمون قبل كل صلاة وهي أسمى تعبير إنساني لعملية التزكية والتطهير والتنظيف.

(وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به). آية ١١، سورة الأنفال.

(وأنزلنا من السماء ماء طهورا). آية ٤٨، سورة الفرقان.

(فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق). آية ٦، سورة المائدة.

الماء هبة مباركة من عند الله تعالى. وهو ضروري ومشروط لحفظ توازن الطبيعة، لذلك لا يتسنى لأحد أن يصبح مالكا له، ولكنه مسؤول عنها بناء على مبدأ الأمانة المدرجة في إطار الخلافة التي عرضها الله تبارك على الإنسان فقبلها.

(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين). آية ٣٠، سورة الملك.

(أفرأيتم الماء الذي تشربون). آية ٦٨، سورة الواقعة.

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض). آية ٢١، سورة الزمر.

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد). أية ٩، سورة ق.

(وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر). آية ١٢، سورة القمر.

وأما فيما يخص التقنيات المستخدمة بداية من القرن ٧م، فلقد حصلنا على وصف للمنشآت التي أنجزها المسلمون. أولئك، من بين السكان الأصليين الذين اعتنقوا الدين حديثا أم الآتين من الشرق، قرنوا مهاراتهم في منشآت مبتكرة نموذجية ومميزة لمنطقة شمال إفريقيا. ولقد لاحظنا بالفعل، تباينا واضحا ما بين المباني الرومانية الأصلية وبعض أجزائها التي أدخل عليها الأغالبة أو الفاطميون تعديلات وتطورات جديدة.

يؤكد المهندس التونسي حمزة مكي، في بحث خصّه بـ «أحواض الأغالبة» بـ «القيروان»، درس في الهندسة ما يلي: أما قناة واد «موتا»، التي تبلغ ١٧٠م طولا، وهي تتشكل من جدار سميك يبلغ ٢م ارتفاعا، تعلوه أقواس ليصبح ارتفاعه ١٠م، وهو لا يتبع قوانين العمارة الرومانية. مع أنه يبدو أن الرومان أنفسهم كانوا يضعون الأقواس على مثل هذا الارتفاع!. لكن من جهة أخرى، يتأكد أن عادة تعدد الأحواض والبرك تعود بالفعل إلى أصل مشرقي –وبالخصوص فارسي– أعاد الأغالبة استخدامها بمهارة في المغرب.

أما مزج وإشراك اختراعات الميكانيكا بفن الهندسة المائية فهو بدون شك ابتكار العلماء المسلمين. توجد

في «كتاب الحيل» مجموعة ثرية من الآليات التي تعمل بفعل حركة الماء مثل الساعات المائية والطواحين والآبار والهياكل الموزعة للماء. دخلت هذه الإبداعات المغرب مرورا بالأندلس. حقيقة هناك تشابه كبير بين أشكال النواعير الحالية التي لا تزال تستعمل بأسبانيا وتلك الموجودة بالشرق الأوسط والمغرب، من المرجح أن تكون قد اخترعت النواعير بالشرق الأوسط. هناك تقنيات أخرى أدخلت إلى المغرب مثل «القناة» وهي تخص ميدان الري تلك أساليب قديمة جدا، اكتشفت آثارها في منطقة الشمال الغربي لبلاد فارس وقد أعيد تاريخها إلى الألفية الثالثة (٣٠٠٠ سنة ق.م). وأما على مستوى المعرفة العلمية والطبية وتدقيق كيفية تكرار حلقة الماء الطبيعية، فلا تقل المؤلفات المشيدة بتطورها إذ يشهد التاريخ بفضل العلماء المسلمين في ترجمة ونقل التراث العلمي والفلسفي والثقافي للحضارات العتيقة السابقة، ثم تطويره وتجديد منهجية عرض المسائل وتنظيمها (دراسات تمهيدية عامة وخاصة) وتوضيح علاقتها مع مختلف ظواهر الحياة والمحيط بصفة عامة وبالتالي بالعمران الحضري حيث تزيد أهميتها الصحية. في كتابه عن الطبيعة، يوصي «هيبوقراط» الأطباء الوافدين إلى مدينة غير معروفة لديهم، الإلمام بمعلومات دقيقة جدا عن طبيعة المياه التي يستعملها السكان، إذا كانت بحيرية ومسترخية، أم صلبة ونابعة من مناطق مرتفعة حجرية، أم أجاجة. ثم يأتي إلى الإدلاء بوفرة من التفاصيل حول نوعية الماء حسب الفصول، وحسب موقع المدينة بالنسبة إلى الرياح، وإلى ذكر الأمراض التي قد تصيب السكان بفعل طبيعتها (سطحية أم جوفية)، وملوحتها، وكثافتها.

بعده دقّق ابن سينا معايير ضبط نوعية الماء، كما قام بدراسة مقارنة للمياه النابعة من العيون مع ماء المطر، وماء الآبار والقنوات، والمياه الملتقطة من ذوبان الثلوج، والمياه المعدنية، والمياه الراكدة، من جانب آخر، ذكر مجموعة من الأمراض المتنقلة عن طريق المياه الملوثة، وأساليب تطهير الماء مثل: التقطير والترسيب والترشيح والغليان. أما طهارة الماء فتقدّر من الناحية الطبية ومن الناحية الدينية، منهما يعينان قيمتها العالية والمقدسة لكونها مطهرة أساسا. ولقد شارك العلماء المسلمون بشكل مميز في إثراء الميدان التشريعي المتعلق بمختلف أساليب وأهداف استعمال الماء. وقد كان لهذا الجانب أهمية اجتماعية واقتصادية معروفة لدى الحضارات القديمة، حتى سمي البعض منها «حضارات مائية» لكونها مسندة على امتلاك هذه الثروة والتحكم فيها، مثل الحضارة المصرية (الفرعونية)، وآشور ومملكة سبأ.

يتبين من الوثائق التشريعية القديمة أن الماء ثروة عامة بالرغم من خضوعها إلى قوانين ومحاسبات محددة. فلقد عملت بابل ومصر والهند والصين واليونان والروم على إصدار «قانون الماء» لتنظيم استخدامها في المدن والأرياف. يجدر هنا التركيز على ما كان يعمل به في اليونان حيث ظهرت قوانين جديدة في مختلف المدن اليونانية، تخص النظافة العامة ببنود متعلقة بنظافة الطرق والعيون والآبار والخزانات والمراحيض. كما كان يفرض تغطية القنوات الخاصة بتصريف المياه الملوثة، فيحق على مرتكبي المخالفات دفع غرامة مالية يعاد إيداعها إلى خزينة خاصة بوظيفة التنظيف والكنس التي يسهر عليها موظف عمومي.

تتشابه قائمة الوظائف والمهمات التي كان يتكلف بها هذا الموظف اليوناني تلك التي كانت تودع على عاتق قائد العيون في الجزائر خلال العصر العثماني. و هو الذي كان يسهر على نظافة العيون وحسن تشغيل قنوات التوزيع والتصريف، وصيانتها، ومراقبة المطهرات العامة، كما كان ملزما بضبط قائمة الخزانات المهيأة داخل المنازل، ومراقبة مساكتها. أدخل الرومان بنوداً جديدة على قانون الماء، وقد كانت تصنف حقوق المياه حسب كونها صادرة عن المطر أم جارية. أما توزيعها فقد كان يتم مجانا وبطريقة عادلة عبر قنوات التوزيع العامة المكبة في خزان يتفرع إلى ٣ قنوات متساوية من حيث الكمية الموصلة إلى الحمامات من جهة أولى والأحواض والعيون العامة من جهة ثانية، والمساكن الخاصة من جهة ثالثة.

تبنّى المسلمون البعض من هذه القوانين لكونها تناسب القيم والتعاليم الدينية التي يحث عليها الإسلام. وقد صمموا على إدراجها ضمن مبدأ ضمان العدالة والتضامن بين السكان، واحترام ميزان البيئة الطبيعية العامة. من بين أهم التدابير التي اتخذها المشرعون المسلمون والتي نحتاج إليها اليوم لا بد من ذكر نظام الوقف. فلقد كان لهذه الأداة القانونية دور معتبر في تنظيم الحياة المدنية وبالخصوص

مصلحة توفير وتوزيع الماء. لا سيما وأن توفير الماء الصالح للشرب للسكان وإمكانهم من أداء فريضة الوضوء في المساجد والحمامات يعدّ عملا صالحا للغاية.

وأما إذا حصل خلاف بمناسبة توسع المدينة وبالتالي فيما يخص أسلوب توزيع الماء، فقد يحق للقاضي (بمساعدة أعوانه، مثل المحتسب وقائد العيون) النظر والحكم في الحصص الموزعة على مختلف الأحياء.

يذكر الباحث الفرنسي «لو تورنو». ترجمة لفتوى صدرت بمناسبة وقوع خلاف متعلق بعملية توزيع الماء في مدينة فاس المغربية. وقد حصل هذا الخلاف بين سكان حارتين واقعتين على ضفتي وادي فاس، كانت تمونهما قناة واحدة يتوسطها جدار فيقسمها إلى فرعين، فإذا بشق يظهر على الحائط مؤديا بذلك إلى تذبذب عملية التوزيع وعدم الإنصاف في حق كل حارة. حينها دعا القاضي كلاً من الطرفين وبعض علماء الشريعة إلى مرافقته حتى موقع الخلاف.

وقد علمنا من مصدر آخر، أنها جرت عادة استماع القاضي إلى تقارير التقنيين والمهندسين في مثل هذه المسائل، لذلك فهو يستدعي أمناء الطوائف المهنية المتخصصة في هذا الميدان بالذات. ذلك ما تأكدنا منه عند قراءة نص الفتوى الصادرة آنذاك: «قام التقنيون بفحص معمق وتحقيقات كلية وشاملة، أولئك أناس أكفاء لهم دراية كاملة بمسألة المياه وتوزيعها، وبتاريخ بناء تلك المنشآت وإقامتها، لذلك يستعان بهم لتوضيح كل هذا.... فتبين لهم أن الشقة المذكورة ليست بفعل البناء بل بدا لهم أنها قديمة».

اتضح في الأخير أن المشكلة متعلقة باختلاف طبيعي في مستوى الماء ما بين الضفتين، فأتى القاضي إلى فرض حل وسط: في المرحلة الأولى، سدّ نصف الشقة حتى يتمكن المتنازعون من تعويض ما فاتهم، ثم في المرحلة الثانية، تعديل ما كان متلفا. بعد مناقشته لمحتوى الفتوى، أتى المؤلف (لو تورنو) إلى ذكر حدث معلل آخر. لقد كان الفرعان المذكوران يمونان حارتين غير متساويتين من حيث النشاط ومن حيث الحاجة إلى الماء:

يخص أول (الفرعين) للاستعمال المدني (داخل المدينة)، بينما ينقسم الفرع الثاني إلى عدة فروع يختص البعض منها بسقي البساتين وتحريك الطواحين. نلاحظ هنا صعوبة الحكم والفصل في المسائل المتعلقة بالماء وبالخصوص في منطقة المغرب المعروفة بندرة الموارد المائية. بقدر ما يسهر القاضي على فرض أحكام عادلة ومنصفة، فهو يلجأ أحيانا إلى الاستدلال برأي التقنيين المختصين في مختلف الميادين المتعلقة بالماء. وقد كان لنظام الوقف أهمية معتبرة في تموين تلك الإنجازات وصيانتها وتسييرها. كما كان له دور هام للغاية في بعث روح المسؤولية لدى السكان واعتنائهم بمختلف ظواهر الحياة المدنية ومشاركتهم الفعالة في الحفاظ على اتزانها وصحتها.

خاتمة:

ختاما لهذا البحث، يجدر بنا تفنيد الأطروحات التي تجعل من المدن الإسلامية مجمعا سكنيا فوضويا، جامدا وزائلا لا صلة له بفن العمران وصحة البيئة العامة. بينما يوضح تاريخ المدن التي تم تطويرها أو إنشاؤها في ظل الحضارة الإسلامية تنوعا فنيا وتقنيا في الشكل والزخرفة ضمن برنامج حضاري موحد يهدف إلى تحسين الظروف المعيشية العامة وتطهير الفرد من الناحية الجسدية والروحية. وقد ظل العالم الإسلامي يفخر بهذه القيم المتقدمة الراقية طالما سهر علماؤه على ترجمة الاستعارات الخارجية عبرها، وطالما بقيت ابتكاراته العلمية والتقنية والتنظيمية تطمح إلى تحقيق هذه القصدية السامية. أما اليوم فهو يعاني مثل باقي أقاليم العالم من «أزمة العمران» و«أزمة الماء» التي انتشرت فيها بصورة خطيرة وهي لا تملك الوسائل أو الإرادة الكافية للتخلص منها.

وسط هذه الظروف المتفشية ظهر شعار «النمو المستدام» ليذكر الفرد والمجتمعات المعاصرة بمسؤوليتهم أمام الأجيال القادمة. فلعلنا نجد اليوم في هذا التراث الإنساني الثري ما يحلّ كليا أو جزئيا هذه المشاكل التي سببها الإنسان جهلا أو غروراً بقوته ونفوذه في الأرض والسماوات.■

المراجع

نعتذر عن نشر المراجع لضيق المساحة.

القيم العلمية والأخلاقية في الحضارة الإسلامية

■ الدكتور عبدالرحمن علي الحَجّي

تَعَسّف البعضُ من المُحْدَثين -على أي مستوى- في تبني فكرة والأخذ بنظرة مجانبة لكلّ الحقائق مُتَجاهلةً الواقعَ والوقائع. نشأ لديهم -كلٌّ في تخصصه- أنّ العلماء في الحضارة الإسلامية بعيدون عن أمور الحياة التي تحتاج إلى التصرّف واللباقة واللياقة. فوصفوهم بالتحيز والجمود والإهمال. ولكن الحقيقةَ المؤكدةَ غيرُها بل وعكسُها هاهنا وهناك،إذ نجد الوعي والجرأة والإقدام والدراية السياسية والتوجيه الحكيم وقوة الإرادة الشرعية وحسن التعبير والمرونة في التصرّف كانت من وعند العلماء. لأنّه أيضا- بجانب هذه الصفات ومع العلم والذكاء والبديهة - كانت هي مقومات العلم والعلماء، ولأنّ العلم الإسلامي يحتاج إلى هذه المواصفات مجتمعة. لقد كان العلماءُ وجهَ المجتمع وملجأه وكانوا هم الطليعة.

استاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي



وكان العلمُ شائعاً ومتاحاً ومنفتحاً للنساء والرجال والأطفال كافة. ولدينا الكثير والكثير جداً من النساء اللواتي ظهر منهن عالمات ومعلمات وشاعرات وراعيات ومربيات وطبيبات بل وحتى فارسات ومحاربات ابتداءً من أيام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وما تلاها كخولة بنت الأزْوَر وغزالة وجميلة الأندلسيتين. كما ظهر منهن متخصصات في ميادين عِدّة حسب ما تؤهله لهن طبيعة تكوينهن ودورهن ووظائفهن ومنها تربية الأولاد ورعاية الأُسرة ومشاركة الزوج بل ونصحه والتشاور معه أو حتى توجيهه والأمثلة لذلك وفيرة في أمصار العالم الإسلامي وأعصاره. وكم من الرجال العلماء تلقوا العلم عن عالمات عُرفْن بمكانتهن العلمية العالية وأُستاذيتهن المشهود لها من أمثال شَهْدَة الإبَرية البغدادية المُعَمِّرة (٥٧٤هـ) الكاتبة ذات الخط الجيد مُسْنِدة العراق فخر النساء التي سَمِعت من العلماء الرجال وأسمعتهم واشتهر ذكرها وبَعُدَ صيتُها (وفيات الأعيان ابن خِلِّكان٢ / ٤٧٧ سير أعلام النبلاء٢٠ / ٥٤٢معجم الأُدباء،ياقوت الحموي (٣ / ١٤٢٢).ولكن الجميع كانوا يسعون في ذلك وهم بالسمت الإسلامي. وحين ينشأ الإنسان على الدين ويبنى به ويحيا بمعانيه، إيماناً وفقهاً والتزاماً ممارساً أطلقه ولا تَخْشَ عليه أو عليها.وهكذا يقوم المجتمع المسلم الذي يحرص عليه وعلى بنائه وشموخه أهلُه كافة ويحرصهم ويرعاهم بكل فئاتهم.

وبجانب تلك الصفات العلمية الشاملة كانوا من أهل الصفات الإنسانية. وهذه وتلك كلُّها يستدعيها العِلْمُ الإسلامي ويرتضيها انتماؤهم للإسلام يقيمها و يربيها ويعليها. حيث كان التعليم الشرعي أساساً ثم يأتي التخصص. ولذلك فإن أيَّ تخصص تظهر فيه آثارُ هذا العلم الشرعي سلوكاً وأُسلوباً وتأليفاً في الميادين الأُخرى كافة. فالعالم: النحوي واللغوي والشاعر والأديب والطبيب والصيدلي والمهندس والكيميائي والفلكي والنباتي والزراعي والفيزيائي والقائد والمجاهد والإداري والدبلوماسي والسياسي والمربي والموجه والمدرس والتقني والمخترع والمؤرخ والجغرافي والرحالة وأهل الوِراقة العلماء كانوا جميعاً بهذه المثابة. ومن شذ ربما كان في دينه ضعف أو لعله كان مدسوساً أو شاذاً عرف بذلك. ترى ذلك السمت الرفيع والنفح العبق والفيح الفواح كله عند هؤلاء العلماء واضحاً في حياة أحدهم ونِتاجه وعمله.



وخلال دراساتي أُتابع وأبحث وأجمع المادة العلمية لكثير من الموضوعات منها:العلماء (والعالمات) الشهداء والعلماء السفراء والعلماء الشعراء وموضوعاتهم الأُخرى وهي جدُّ كثيرة.

وكان العلماء يتسامَوْن رفعةً وتراهم قادةً وقدوة. وتلك من واجبات ومتطلبات مكانتهم، بها كانوا وفيها تنافسوا، وهي عدتهم. وإنّ تلك المواصفات لا يُغْني عنها طول الباع العلمي وعمق التبحر فيه، لأنّ العلم إيمان وعمل بل هو للعمل.

عَرَفَ المجتمعُ الإسلامي-لاسيما العلماء- قيمة العلم ،فاحتملوا تكاليف السعي له مهما كانت من أجل تَلَقّيه وحَرَصوا على تحصيله بكل سبيل مُتلائم متناغم مُتوائم مع بنائهم الإسلامي. فهم يُقْبِلون على تلقيه وبَذْله وبَثّه دِيناً للناس جميعاً ودواماً حِسْبَةً وقُرْبى.

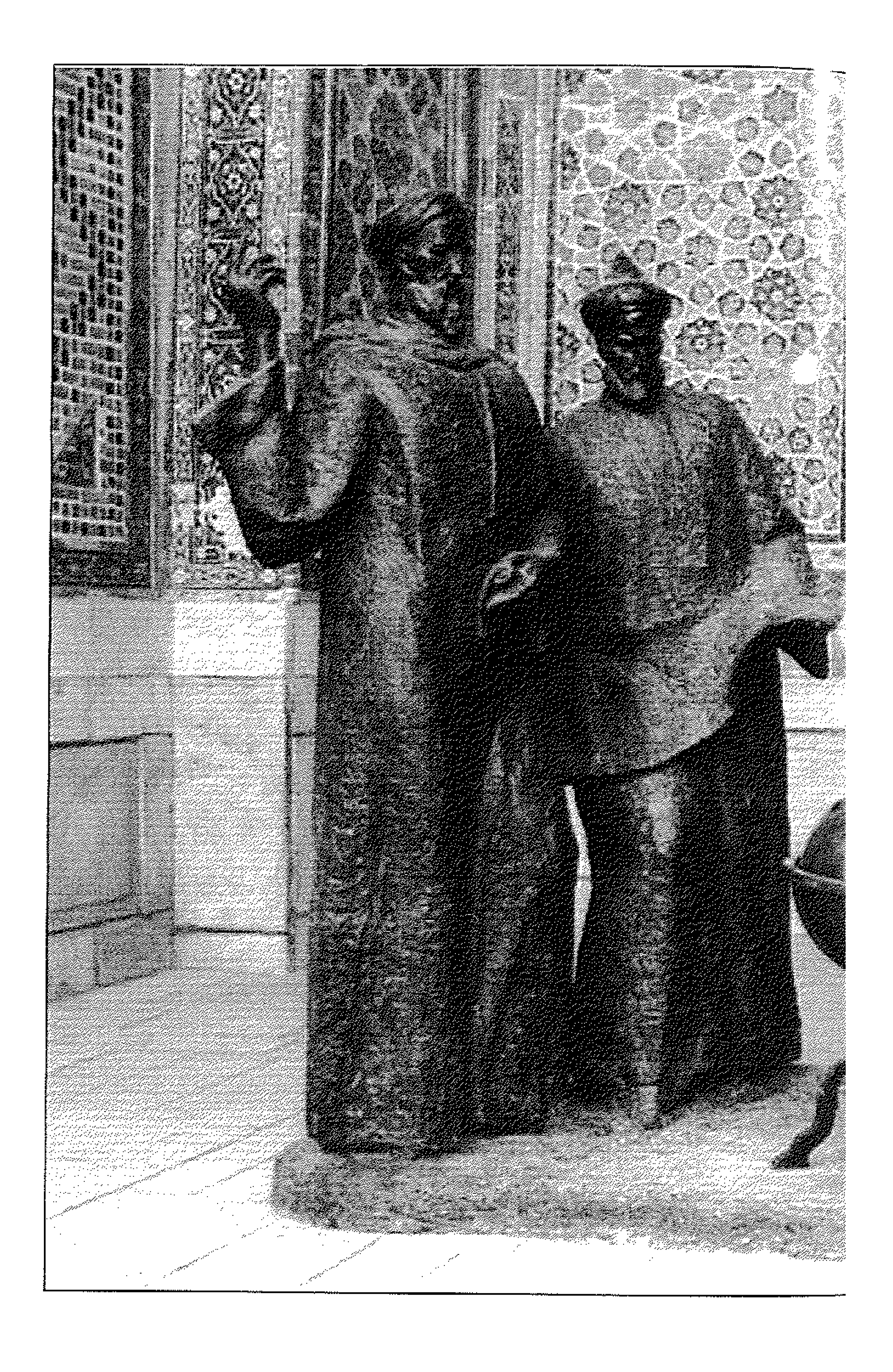
وانظر الى هذه الحكاية الطريفة التي يرويها المَقّري (١٠٤١هـ) في كتابه نَفْح الطِّيب (٢ / ٧٣) عن أبو علي

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْراً أنتَ آكِلُه
لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبِرا

وما دام الحديث عن العلم وأهله (نساءً ورجالاً) وسمتهم فيه واهتمامهم به وإعطائهم حقه وصدقهم فيه تلقياً وبذلاً مع الله أولاً ثم مع الناس وتقديره وتقديم أهله والإقبال عليه وعليهم من قِبَل الجميع حُكّاماً ومحكومين وأُمراءً وذلك الى جانب البناء العلمي للمجتمع وهو الأساس والموئل والمنطلق نلتقط قصةً مُعَبِّرة عن هذا المعنى تمام التعبير وبأجلى صورة وأروع نموذج. ذلك أن العالم: اللغوي المعروف بالديانة والفقه والورع تَمَّام بن غالب التَّيَّاني (٤٣٦هـ) المُرْسِي (من مدينة مُرْسِيَة الأندلسية) صَنَّف كتاباً جليلاً. ولَمَّا وقف على ذلك الأمير أبو الجيش: مجاهد العامري (٤٣٦هـ) أرسل إلى التياني ألف دينار وكِسْوة وراجيا إياه أن يزيد في الكتاب عبارة: مما أَلَّفَهُ التياني لأبي الجيش مجاهد. لكن التياني رَدَّ عليه هَدِيَّته!! قائلاً: كتابٌ صَنَّفْتُه لله ولطلبة العلم أصرفه إليه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً!! فكان أن زاد التياني في عين مجاهد وعَظُمَ في صدور الناس.

وكم من العلماء تقدموا وقادوا المجتمع في أشد الأوقات وأصعبها وبذلوا لرعاية المجتمع ورفعة شأنه و حمايته وتطوعوا لرفع راية الجهاد والدفع للأعداء فكانوا أولَ الشهداء. وهؤلاء كثيرون جداً في أنحاء العالم الإسلامي كافة وعلى مدار تاريخه وامتداد أحواله وتنوعها. ومن أمثالهم في الأندلس استُشْهِد: ابن رُمَيْلة القُرْطُبي في معركة الزَّلَّاقة (٤٧٩هـ) والقاضي الأمير الفقيه ابن جَحَّاف في بَلَنْسِيَة (٤٨٨هـ) والإمام الجَزولي (٥٠١هـ) والقاضي ابن الفَرَّاء والقاضي الفقيه أبو علي الصَّدَفي استُشْهِدوا في معركة قَتُنْدة شَمالي الأندلس (٥١٤هـ) وأبوالربيع سليمان بن سالم الكَلاعي عالِمُ ومُحَدِّث وشاعر بلنسية (٦٣٤هـ) (التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة .(٣٧٢،٤٠٧،٤٢٥،٤٢٩،٤٧٤،٤٩٤ ساروا في ذلك الطريق وهم مُقَدَّماً على عِلْم تام بمؤداه بل تَراهم طالبين لمعناه راغبين فيما يأتي به مستعدين لكل التزاماته وحريصين وحاثين ومسارعين وبغيرذلك يكون حامله مُنْزَوياً مَحروماً مُبْعَداً.

مثل ذلك جرى لأدبهم –لاسيما شعرهم– أُغْمِض عنه وغُمِطَ حقُهم فيه . بينما كم كان منهم الأديب شعراً ونثراً والخطيب قولاً وفكراً والمُفَوَّه بديهةً وارتجالاً. ومن هؤلاء قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد





القالي (قُرْطُبة ٣٥٦هـ) اللغوي الأديب الشاعر الذي كان يُمْلي بعض كتبه من حِفْظه ككتابَيْ النوادر والأماني. ولقد كان موصوفاً منذ صباه بالحَذْق والذكاء (نفح٣ / ٧٠ وبعدها). والقالي وافد الأندلس من بغداد أيام الخليفة عبدالرحمن الثالث (٣٥٠ هـ) الناصر لدين الله. وحكاية القالي هذه: أن طلبته كانوا ينتابون مجلسه. ثم في يوم كان ممطراً وموحلاً لم يحضر منهم سوى واحد فلما رأى الشيخُ حرصَه على الإشتغال وإتيانه في تلك الحال –وكان لديه بعض الشيوخ أو أحدهم أبو الوليد الباجي– أنشده لنفسه ربما مُرْتَجِلاً:

دَبَبْتَ للمَجْدِ والساعُونَ قد بَلَغوا
حَدَّ النُّفوس وألْقَوْا دُونَهُ الأُزُرا
وكابَدُوا المَجْدَ حتى مَلَّ أكْثَرُهمْ
وعانَقَ المَجْدَ مَنْ وافى ومَنْ صَبَرا

البلوطي (٣٥٥هـ) العالم الفقيه الدبلوماسي الخطيب الأديب الشاعر يرتجل الكلام والشعر والخطب روية وبديهة وكأنه يقرأ كُلَّ ذلك من ورق (انظر: نفح الطيب ٣٦٤ / ١ بعدها ١٦ / ٢ وبعدها. تاريخ قضاة الأندلس ٦٦ وبعدها. سير أعلام النبلاء الذهبي١٧٣ / ١٦ وبعدها).

وفي الطلائع الاجتماعية كانوا وجهاً فاخراً ولامعاً متنوراً وفي المفاوضات والسفارات حازوا حكمة وبراعة وإبداعاً وفي سوح الجهاد كانوا مقدمة وهم في كلّ ذلك أمناء أقوياء أذكياء. وكلما زاد علم أحدهم زاد التزامه وإقدامه واهتمامه «إنما يَخْشى اللهَ من عِبادِهِ العلماءُ» (سورة فاطر٢٨). وما دامت دوافعهم النهوضَ للإسلام وبه فقد ظلوا مسلمين في كلّ أحوالهم بل إنّ تلك الوظائف -بجانب أنّها ميدان لإظهار كل تلك الصفات ونعوتها- كانت مقوماتها من المتطلبات والمؤهلات. يضاف إلى ذلك القضاء والتدريس. فكلها مواصفات لابد لها من ذكاء ومرونة وحيوية متفتحة لبقة ذكية نَضِرَة. وبالإمكان -لمعرفة كل ذلك- تسليط الضوء على أي من الدروب التي سلكها العلماء في الاستشهاد والسفارات والقضاء والأدب والتدريس والقيادة الاجتماعية وغيرها وكلّها موضوعات غنية بالأمثلة وذكية وعالية. ومن أطرفها الدبلوماسية التي تولاّها علماء بدت لهم فيها مهارة أخرى بجانب ما اعتادوه من أصل فنونهم وحقول أعمالهم وميادين تخصصاتهم. وكل ذلك مستمدٌ من تلك المواصفات البارَّة المنيرة المشرقة الضاربة الجذور في أعماق البناء المقيم و القائم على أُسس راكزة ركيزة «أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذن ربها» تأصيلاً وتفعيلاً وتدليلاً لا تمد يدها ولا عينها الى غير هذا هذا المنهج الرباني الكريم وهي بالأخذ فيه مؤتسية بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِر وذَكَرَ اللهَ كثيراً».

كان هؤلاء العلماء يَحنون على المجتمع ويَحنون الى رعايته كأُسْرَتهم في كل أحواله وأحوالهم ويَبْذُلون له أغلى ما لديهم. فهذا أبو بكر الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) حافظ المشرق الإمام خطيب بغداد علم الفقهاء الشاعر الأديب له المؤلفات الكثيرة تَصَدَّق بكل ماله-عند وفاته- ووَقَفَ جميع كتبه الفخمة الكثيرة النوادر (وفيات الأعيان إبن خِلكان١ / ٩٢ وبعدها. سير أعلام النبلاء الذهبي١٨ / ٢٨٦ وبعدها. الوافي بالوفيات الصفدي ٧ / ١٩٠ وبعدها). وظاهرة الوقف متميزة فريدة مهمة في الحضارة الإسلامية وتُعَدُّ إحدى مؤسساتها الكثيرة.

ولابد هنا - بجانب ما مَرَّ من الشواهد المُعَبِّرة- من ضرب الأمثلة نماذجَ لهذه المهمات المتنوعة الميادين القوية المواقف الجذابة القوام شرقاً و غرباً حتى لقد كان ذلك أعرافاً بارة كريمة واضحة موسومة مرسومة محسومة.

ههنا يجري التعرف على هذا الإمام العلاَّمة القاضي أبو بكر الباقِلاَّني محمد بن الطيب (٤٠٣هـ) البصري ثم البغدادي له المؤلفات الكثيرة الوفيرة الرائقة. كان سيف السُنَّة ولسان الأُمَّة المتكلِّم على لسان أهل الحديث كان يُضْرَب به المَثَل بفهمه وذكائه وسرعة وقوة بديهته الغلاَّبة. كان في علمه أوحد زمنه موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب. اختاره عضد الدولة البويهي (بغداد٣٧٢هـ) سفيراً إلى باسليوس الثاني ملك الروم في القُسْطَنْطِينِيَّة نحو سنة ٣٧١ هـ للمفاوضة حول أُمور وهناك ناظر علماءَهم بحضور المَلِك فغلبهم وقد سار القاضي رسولاً عن أمير المؤمنين الى طاغية الروم وجرت له أُمور منها أن المَلكَ أدخله عليه من باب خَوْخَةٍ (باب صغير ضمن باب كبير لا يتمكن الإنسان من دخوله إلا أن يَحْني رأسَه) ليَدخُلَ راكعاً للملك ففَطِنَ لها القاضي ودخل



بظهره (سِيَر أعلام النبلاء، الذهبي ١٧ / ١٩١ كذالك: وفيات الأعيان، ابن خلِّكان ٤ / ٢٦٩ تاريخ الأدب العربي عمر فَرُّوخ ٣ / ٥١).

كذلك تَعَجَّب ما شئتَ من هذا العالم الفقيه المقدام أبو الوليد الباجي من مدينة باجة الأندلسية: سليمان بن خلف (٤٧٤هـ) الذي تولى -مع غيره من علماء الأندلس- أيام الطوائف فيها، العمل على تجاوز حالة الفرقة والتشتت والضعف لديها التى أحاطت بالأندلس في القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي. فوَهَبَ ونَدَبَ نفسَه لهذه المهمة لِلَمِّ شَعَث المجتمع الأندلسي وأمراءَهُ واستمر على ذلك يعمل على تجديد المعاني الإسلامية في النفوس لمدة ٣٣ عاماً!! حتى وفاته في مدينة المَرِيَّة ذاهباً اليها لنفس القضية رحمه الله تعالى. قائماً بذلك يزور مدن الأندلس عاملاً على إقالته من كَبْوَته حتى استقام الحال وارتقت البلاد فَلَمَّت شملها وعادت الى الوحدة والقوة والالتئام. فواجهت مشاكلها واعْتَلَتْ أمواجَها وواجهت عَدوَّها منتصرة. (انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام الشنتريني ٢ / ٧٦ وبعدها. نفح الطيب المَقري ٢ / ٦٧-٧٦ وبعدها. التاريخ الأندلسي ٣٣٦ وبعدها).

وأخيراً وليس آخراً لك أن تتمعن ما شئت أمام ماتقدَّم له وبادر وتجشم من أجله الإمام العلاَّمة قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رُشْد الجَد (٥٢٠هـ) وكان من أهل الرئاسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن والهدي الصالح والإقدام والتقدم المبادر صاحب «البيان والتحصيل» وغيره من المؤلفات. وكان أفقهَ أهل الأندلس سار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة. كان الناس يُعَوِّلون عليه ويلجأون إليه. كان حسنَ الخلق سهلَ اللقاء كثيرَ النفع لخاصته جميلَ العشرة لهم باراًّ بهم. وهو جد ابن رُشد الحفيد(٥٩٥هـ). وهو الذي ندب نفسَه للتوجه الى المغرب أيام المرابطين مبيناً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين(٥٣٧هـ) الأحوالَ وشارحاً إياها ومقترحاً عليه إجراءآت بشأنها أخذ الأميرُ بها جميعاً ونفذها حالاً (سير أعلام النبلاء ١٩ / ٥٠١ تاريخ قضاة الأندلس النباهي ٩٨ / ٩٩ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ / ١١٣-١١٤).

وشبيه بهذا ما فعله القاضي الإشبيلي العالم المفسر الفقيه الدبلوماسي الأديب الشاعر الذي كان يرتجل الشعر ويجيزه أبو بكر بن العربي (٥٤٣هـ) صاحب كتاب «العواصم من القواصم» وعشرات المؤلفات غيرها الذي رأس وفداً من علماء الأندلس يمثلون أهله ذهبوا إلى فاس بالمغرب لإبلاغ الموحدين وتقديم بيعة أهل الأندلس لهم (نفح الطيب ٢ / ٢٥ وبعدها. تاريخ قضاة الأندلس ١٠٥ سير أعلام النبلاء ١٩ / ٦٣٠).

وقُلْ مثلَه عن الفقيه الأديب الشاعر الذي كان كذلك يُجيز الشعر ويرتجل أحياناً القصيدة المديدة أبو محمد علي ابن حَزْم الأندلسي (٤٥٦هـ) الذي حاول لم شمل المجتمع ،الأندلسي بدايات فترة الطوائف.

وهذا وأمثاله الكثير الكثير مما تتفرَّد به الحضارة الإسلامية ومجتمعها لاسيما علماؤها الأفذاذ أهل العفة والاستقامة. وهو تفرد مستمد من الإسلام نفسه،الذي قام عليه بناؤها آخذةً تعاليمه الربانية الفاضلة المجيدة المتفردة.

غير بعيد لو قيل إنَّ المعرفة والمدنية الحالية -بكلّ ما فيها من انحراف وهبوط الى جانب ما فيها من علم وتقنية - استخدمته أحياناً أجيالٌ لتأكيد الانحراف وأن إمكانيتها أظهرت جانباً من طبيعة هذه المدنية التي كثيراً ما تجردت من الدين الحق. ولو قلنا إنها - بهذا النهج المتخلف- لا تخدم الحياة لما كنا مجانبين الصواب.

لكن لا خوف بحال على الحقيقة من أي وضع مهما كان. فهي باقية تحمل الخير الذي أودعها الله فيها والقوة التي وضعها لها. وهل من حقيقة أقوى من عقيدة الإسلام وما من خير يداني شريعته التي تأتي بالمعجزات لأنَّها معجزة. وكلّ ما في الكون يؤكد ذلك ويقويه ويعليه. لكن سنة الله جارية حيث إنه لابد للحقيقة مَن يحملها و(عجباً لأمر المؤمن فإن أمرَه كلَّه له خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن) بمعناه. وهذا دليل على أن كل حال يواجهه المؤمنُ يحمل في طياته له الخير والحياة البارَّة.

وكم من أحداث -ملأت المُدَوَّنات الإسلامية - في حياة المسلمين كانت منذرة بالإهلاك لكنها غدت خيراً لهم: صلح الحديبية وفتح الأندلس والحروب الصليبية. وحين لايكون الأمر كذلك فإن مثل هذه الأحداث قد تكون قاضية ولكن الانتفاع بها وتحولها إلى الخير يتحقق تماماً إذا هبت ريح الإيمان.■



في حياة الشعوب وقائع وأحداث كبيرة.. شكلت بصمات لا تنمحي من ذاكرتها.. ولأهميتها ولتأثيرها اتخذتها الشعوب تأريخاً لها.. فيقال: فلان ولد في سنة الجراد.. وفلان توفي في سنة السيل، وفلان تزوج في سنة الزلزال.

ولأهمية تلك الأحداث ومغزى اتخاذها تأريخاً.. قررنا أن نفتح صفحاتها لنتعرف عليها.. لأنها جزء من التاريخ.

عام الجراد باليمن

■ صنعاء- محمد السيد

لايزال اليمنيون يتذكرون (عام الجراد) إلى يومنا هذا، حيث أرّخوا لبعض الحوادث التي مروا بها نسبة لهذا العام، فيُقال (هذا تزوَّج في عام الجراد.. وفلان مات بعد سنة الجراد، وآخر ولد قبل عام الجراد، وفُلانة طُلقت عام غزو الجراد وو..)!.

وعلى الرغم من اختلاف الروايات حول التاريخ الحقيقي لعام الجراد باليوم والشهر والعام، إلاَّ أن تلك الروايات تتفق حول شيء واحد وهو: إن ذلك العام لم يكن عاماً سيئاً عند جميع اليمنيين، فالجرادة التي قطعت مسافات طويلة قادمة من وراء البحار عاقدة العزم على التهام الأخضر واليابس في اليمن، لم تكن تُدرك بأن قرارها هذا يقودها إلى الإنتحار، ووجدت آلاف اليمنيين في استقبالها على غير العادة على أحر من الجمر، حيث التهموها بعد أن نالت من محاصيلهم الزراعية وقضت على كل ما هو أخضر!

يقول الحاج مسعد السالمي (٧٠عاماً)، لقد كنتُ شاباً عندما غزا الجراد الأراضي اليمنية قادماً من افريقيا مروراً بالمناطق الساحلية، وذلك كونها مناطق زراعية، فحلول الجراد ضيفاً عليها كان بمثابة كارثة على السكان الذين خسروا محاصيلهم الزراعية، لأن أسراب الجراد هاجمتها قبل حصادها بشهر واحد، فأتت على كل شيء، ولم تترك سوى التراب، وفجأة ماتت وظلت لأسابيع تغطي الأرض الزراعية بعد أن جمع الناس منها ما يكفيهم لعدة شهور من طعام بدلاً عما فقدوه من محاصيل زراعية!

ويضيف علي الرحبي (٨٥ عاماً): عندما وصل الجراد إلى اليمن عام ١٩٥٤م، كان الإمام أحمد حميد الدين هو الذي يحكم الشطر الشمالي من اليمن الذي كان يعيش في عزلة عن العالم الخارجي، فقد كان الناس يجهلون كل شيء خلف الحدود اليمنية، ولم يكونوا يمتلكون المذياع أو أية وسيلة إتصال أخرى،

لذلك لم يعرفوا بقدوم الجراد إلاَّ قبل ساعات قليلة من وصوله.

وكان السكان يتناقلون أخبار قدوم الجراد من بلدان ما وراء البحار أو على حد قول الرحبي (الديار الداخلية)، هكذا كانوا يطلقون على عالم ما وراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، اللتين كانتا أقصى مكان يعرفه المزارعون اليمنيون وساكنو الجبال.

ويشير بعض المسنين اليمنيين إلى أن اجتياح الجراد لليمن كان عام ١٩٥٤م مُستندين في ذلك إلى الحادثة الشهيرة لموت الجراد في الأراضي الزراعية من المناطق الوسطى والتي ذاع صيتها، حيث كانت قبل انقلاب ١٩٥٥م الذي قام به مجموعة من ضباط الجيش لإسقاط نظام الإمام أحمد وتولية أخيه عبدالله خلفاً له، وقد ردد بعض رجال الحكم آنذاك عندما فشل الإنقلاب، بأن غزو الجراد لليمن عام ١٩٥٤م كان نذير شؤم للإمام!!

ووصل الأمر بحاكم محافظة إب (٢٢٠ كم من صنعاء) إلى مطالبة السكان بدفع زكاة إلى خزينة الدولة على ما أصابوا وغنموا من صيد الجراد!!

صيد ثمين!

وعلى الرغم من اختلاف البعض حول التاريخ الدقيق لعام الجراد، إلاَّ أن معظم الكتابات التاريخية تشير إلى أنه كان في سنة ١٩٥٥م، حيث قدمت أعداد ضخمة من أسراب الجرا د لم يسبق للسكان أن شاهدوها أو عايشوها من قبل، فقد حجبت ضوء الشمس وحولت لون السماء إلى الأحمر، قادمة من أفريقيا عابرة البحر إلى تهامة، ومن ثم إلى المناطق اليمنية الأخرى، ولم تمر على أخضر إلاَّ التهمته، ما عدا (شجرة القات)! مما تسبب في حدوث مجاعة حيث لم يجد السكان أمامهم سوى التهام الجراد نفسه والحرص على تجميع أكبر كمية ممكنة منه داخل أكياس كبيرة لتناولها خلال العام!

وإذا كان قدوم الجراد يمثل للعديد من البلدان نذير شؤم وجرس إنذار بحلول الجوع، فإنه عند بعض شرائح المجتمع اليمني ولا سيما سكان المناطق الجبلية مُبشر بصيد ثمين، حيث تشير التقارير إلى أن عادة أكل الجراد في اليمن تعود لعصور قديمة، فمعظم الأسر اليمنية تعتبره من الوجبات الغذائية، معتقدين بأنه يمثل علاجاً فعالاً للعديد من الأمراض.

ولعل هذا ما يُفسر سر الترحيب الكبير الذي تحظى به أسراب الجراد عند قدومها إلى اليمن، ففي الوقت الذي تُستنفر فية معظم الدول طاقاتها لمواجهة هجوم الجراد، نجد العديد من سكان اليمن يحرصون على الظفر بكميات كبيرة منه، حيث تُسابق النساء الرجال في حمل الفوانيس مُرددات الأهازيج والأغاني الشعبية لاستقبال الضيف الذي ينبذه ويخافه الجميع، ترفع يد مشعلاً وأخرى تحمل ما استطاعت من الأكياس حتى بلوغ مكان تجمع الجراد، فينتشر الأطفال والنساء والرجال وتُفتح الأكياس ويباشر الجميع بالتقاط ما استطاعوا، عائدين محملين بما جمعوا لا يوقفهم سوى طلوع الفجر!

ويفضل معظم الناس هُنا أكل الجراد بعد تحميصه بالأفران، أو بتمليحه وتركه معرضاً للشمس حتى يجف ليتم تخزينه لأطول فترة ممكنة، وهناك من يقوم بطهيه في الماء المغلي لتناوله في اليوم نفسه!

حكايات من الواقع

ذكريات الناس وحكاياتهم عن عام الجراد تكاد لاتنتهي، ففي منطقة القفر (٢٢٠جنوب صنعاء) لايزال كبار السن يتذكرون قصة محمد عبد الله الشغدري الذي تزَّوج في الليلة التي غزا الجراد فيها المنطقة، وكان يمتلك قطعتي أرض مزروعتين بالقمح، ولم يكن له إخوة أو أقارب ماضطره وعروسه إلى حمل (المحمي) وهي عصا تربط بطرفها قطعة قماش تُستخدم لطرد الجراد ومنعه من أن يحط في المكان حيث تكفل هو بحماية إحدى قطعتي الأرض فيما تولت عروسه حماية القطعة الأخرى، وهما الوحيدان اللذان استطاعا حماية أرضهما من خطر الجراد بينما قضت الأسراب على محاصيل الآخرين، ما جعلهم يعيشون حالة فقر مدقع حيث كان اليمني يعتمد اعتماداً كليا في حياته على المحاصيل الزراعية.

حينها نجح محمد الشغدري وعروسه في الحصول على غلة جيدة من محصول القمح، وقايض الناس شعيراً مقابل أراض زراعية ليصبح خلال عام واحد من كبار ملاك الأراضَي.. ورغم أن الفضل كان يعود لعروسه التي ساعدت في ذلك، إلا أنه تزوج من ثلاث نساء، أنجبن له ستة أولاد وخمس فتيات وأصبح لكل واحد منهم أسرة مستقلة، وما يزال الناس في المنطقة يطلقون على هذه الأسرة إلى اليوم (أولاد الجراد)! نسبة إلى مصدر ثراء هذه العائلة واكتسابها لهذه الأراضي الكثيرة، بفضل الجراد.



ويتحدث المسنون عن الصيد في عام الجراد بأنه كان الأوفر، حيث تراكمت أسراب الجراد في مناطقهم بكميات كبيرة ثم ماتت. فلم يصبحوا مضطرين إلى الخروج فجراً أو في منتصف الليل لصيدها. حيث اعتاد الناس الخروج لإلتقاط الجراد في تلك الأوقات لأن الجراد مع البرد يعجز عن الطيران والحركة.

ومن الحوادث الطريفة أن جماعة من سكان قرية (ذي مجصنة) قطعوا مسافة طويلة مشياً على الأقدام في مناطق جبلية وعرة ليصلوا إلى الجبل الذي باتت فيه أسراب الجراد، وقد وجدوها فعلاً، واسصطادوا منها الكثير، وعند الفجر أنهكهم التعب فناموا دون أن يحكموا إغلاق فتحات (الغراير) - أكياس مصنوعة من الجلد، وعندما أشرقت الشمس واشتد حرها استعاد الجراد نشاطه وبدأ يطير من الأكياس الجلدية، ولم يستيقظ الرجال إلاّ ومعظم الجراد قد أفلت من الفخ وأصبح يشكل سحابة حمراء فوق رؤوسهم!

يقول الحاج علي الرحبي (في عام الجراد المشهور، جاء الجراد على دُفعات، ففي اليوم الأول غطت أسراب الجراد السماء وضربت المناطق الزراعية والجبلية ظهراً، وكان الناس يقولون: إنها جاءت من رمال تهامة وباتت في نفس المنطقة، وفي اليوم الثاني لم تغادر أسراب الجراد الأرض رغم أن المألوف أنها لا تبقى في الأرض سوى يوم أو ليلة، لكنها في ذلك العام لم تغادر مكانها، وعند الظهيرة في اليوم الثاني جاءت أسراب جراد جديدة وحطت في نفس المنطقة وتكرر الحادث، وهكذا في اليوم الثالث حتى تساوت المساحات الزراعية وتغطت الحواجز الترابية بين المساحات ودفنت ممرات المياه والسواقي)

ويصف الرحبي ذلك المشهد بقوله: (لقد أصبح الوادي مثل السجادة الحمراء، وقد ماتت حينها بعض الحيوانات لعدم وجود أي عشب لإطعامها، كما أن الناس في ذلك العام لم يصبحوا مضطرين للذهاب للصيد، فقد كانو يجدون صيدهم من الجراد على أسطح المنازل وفي الأزقة والشعاب القريبة. واستمرت أسراب الجراد التي أكلت الأخضرواليابس- ما عدا شجرة القات- حتى ماتت وظلت في الأرض لأكثر من ثمانية أشهر حتى جرفتها الأمطار والسيول! وفي ذلك العام كانت المناطق الوسطى مأوى للطيور والحيوانات والحشرات والزواحف التي وجدت في الجراد وجبة دسمة!

لقد مضى أكثر من نصف قرن ومازالت مشاهد صور الجراد المتكوّمة في الوديان والجبال عالقة في أذهان المواطنين الذين شهدوا ذلك العام، ولا يتمنون بالطبع تكرار ما حدث وقد أكد جميع من تحدثنا إليهم أن السنة التي تلت الجراد كانت سنة خير وفير حصد الناس خلالها غلة كبيرة من الشعير والقمح والذرة

الشامية والعدس والفاصوليا والبازيلاء والفول.

يقول عبد الرحمن مرزوق (٧٧عاماً) أنه دائماً ما ينمو الزرع بعد الجراد نمواً قوياً وتكون ثمرته كبيرة، وربما كان هذا تعويضاً إلهياً، فالناس شهدوا في ذلك العام حالة جوع وفقر إلى حد العدم.

الجراد في الأمثال

ولأن عام الجراد لم يكن عاماً عادياً عند اليمنيين، فقد ارتبط بذاكرتهم وتغلغل إلى ثقافتهم الشعبية من حكم وأمثال الزُراع التي لايزال يرددها اليمنيون إلى اليوم، كقول حكيم اليمن علي بن زايد: (عندي تقوم القيامة، ولا حنين المجارد)، وحنين: يعني الصوت الذي يحدثه الجراد الكثير اثناء تحليقه، والمجارد: يعني الجراد، والمعنى العام: يُعبر فيه حكيم اليمن عن شؤم غزو الجراد للثمار والمحاصيل الزراعية، وهو يُفضل الموت عن غزو الجراد. وفي المناطق الوسطى يقولون بصيغة المبالغة: (إذا طرحت الجراد فوق الصفاء تشّل ساع قَرْنها) وساع: أي مثل.. وقرنها: رأسها.. والمعنى العام أنه إذا غزا الجراد الثمار، فإنه يترك ضرراً بالغاً فيها.

ومثل آخر: (ثنتين جراد قطعين غرارة) والغرارة: هي كيس مصنوع من الجلد، والمثل يكشف حجم ارتباط الجراد بالمصائب، فمعناه العام يشير إلى أنه بإمكان اثنتين من الجراد أو عدد قليل جداً منها أن يقطعن غرارة.

وتقطيع الغرارة بالنسبة للمزارع في ذلك الزمن يعد كارثه، لأنه لا يحصل عليها إلاّ بعد جهد ومراحل من الاعداد.

ومن أمثالهم: (ياعلا علي وطاره والجراد بعده مطاره)، وهي أيضاً من الأهازيج التي تقال عند محاولة طرد الجراد من الأراضي الزراعية، ومنها أيضا: (يارب بمجرود وإلاّ بمبرود قبلما يجزع العود) والمجرود: الجراد، والمبرود: البرد، وهي إحدى الأهازيج التي يتغنى بها المزارع اليمني إلى يومنا، حيث يدعو المزارع ربه بأن يرسل الجراد أو البرد على مزارعه وأشجاره قبل أن تخضر وتورق أغصانا وعيدانا.

ومن أقوالهم: (الهواء ياجند الله)، فبعض المناطق في اليمن تعتبر الجراد من جند الله يرسله على العباد الذين يماطلون في دفع الزكاة أو يمتنعون عن تسديدها، وهذه المناطق تقع في الجنوب الغربي من اليمن، وحين يأتي الجراد لا يصطادون منها ولا يؤذونها، بل يرددون هذا القول فقط (الهواء ياجند الله)، وغالباً ما يجمع الفقهاء الناس بعد الجراد ويوعظونهم ويحثونهم على دفع الزكاة من خير أموالهم حتى يجنبهم الله هذا الغزو.

ويقول مؤرخ اليمن إسماعيل بن علي الأكوع: (جرادة في يدك ولا عشرة طيارات) أي جرادة واحدة في اليد خيرٌ من عشر جرادات تطير في الهواء.

و(جرادة علي مشفري، ولا بربري في الصَّرابْ) والمشفر: الشَّفة، والبربري: الخروف. والصَّراب: الحصاد. وهو مثل يضرب في تفضيل الحقير العاجل على العظيم الآجل. وقولهم: (الجراد ما تِعْرِفْش أرْضَ الوَقْفْ) وهو يضرب لمن لا يفرق بين الحرام والحلال. و(جَرَادْ ومَاء، جي ياعَمَى)، أي إذا قامت حياة المرء على أكل الجراد والماء وحدهما، فبئست تلك الحياة وأصبحت عمى وظلمة، وهو يقال لمن اجتمعت عليه أسباب التعاسة والبؤس.


ومن أمثال محافظة حضرموت: (الجراد يرخص اللحم) وهو يُضرب لما يكون وجوده سبباً في رخص غيره.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك فحسب بل إن الشعر الشعبي وصف المعاناه من الجراد ، فها هو الشاعر الشعبي عبد الله بن علي العلوي يتحدث عن الجراد منشداً:

الـهـنــا أدرك ســريــع
مــن ذا الـجـراد الـفـظـيـع
دبــاعــلـيـنــا يــريــع
فــي زرعــنــا والـحـويــر
جــراد جــاة الــغــرام
شــدد عــلـيـنــا الــخـصـام
أفــنــى عــلـيـنـا الـطـعـام
أيضــاً وجــنــدة كــثــيــر

وأخذ يصف:

جــراد فــيــه الــوحش
ذيــلــه شــبـيـه الـحـنـش
أرقش مــنــقِّــش جش
فــخــذة كــفــخــذ الــبـعـيــر
وجــهــه كــوجــه الــفـرس
والــنــاس لــه كــالــحـرس■


16 JUNE 1976
IN MEMORY OF
HECTOR
PETERSON
AND ALL OTHER
YOUNG HEROES
AND HEROINES
OF OUR STRUGGLE
WHO LAID DOWN
THEIR LIVES FOR
REEDOM, PEACE
ND DEMOCRACY
DR. NELSON ROLIHLAHLA MANDELA ON 16 JUNE 1992
PRESIDENT OF THE ANC
ERECTED BY ANC YOUTH LEAGUE


من نسيج التاريخ في سويتو:

دكتوراة فخرية بسبب.. صورة!

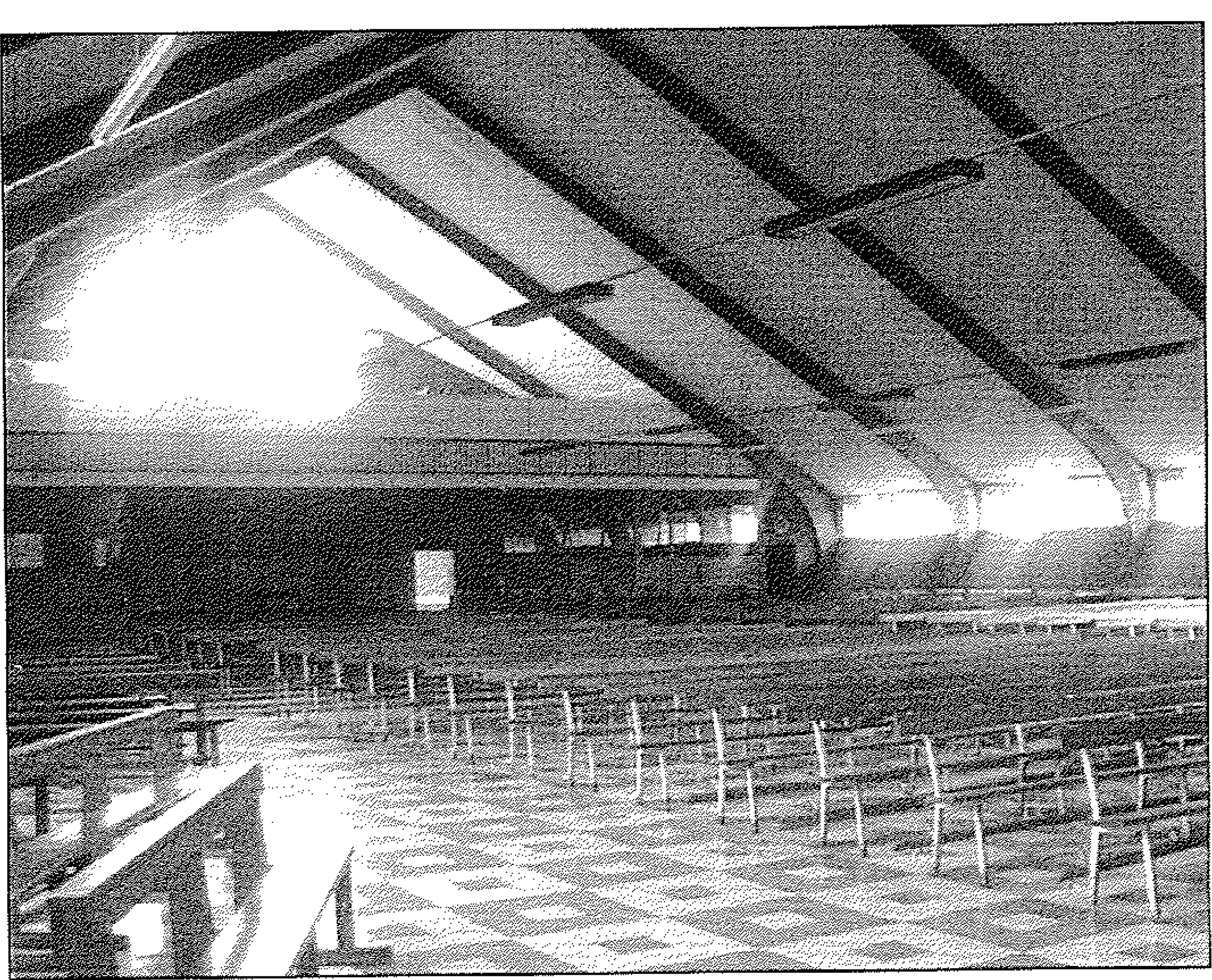
■ جنوب أفريقيا: مندوب تراث

«سويتو».. مقاطعة أو ولاية شكلت رقما صعبا في تاريخ نضال الأغلبية من الملونين في جنوب أفريقيا ضد التمييز العنصري.. الذي فرض عليهم لفترة طويلة من الزمن.

ففي كتاب التاريخ الحديث.. وفي صفحة جنوب أفريقيا تحديدا أحداث لا يمكن أن تنسى، أبرزها بالطبع أحداث مكافحة التمييز العنصري والتحول بالمجتمع هناك من العبودية والدكتاتورية إلى الحرية والديمقراطية. وفي هذه الصفحة نقرأ الكثير والكثير من الأسماء لزعماء ومناضلين ووقائع ومواقع، كل منها هو قصة في حد ذاته.






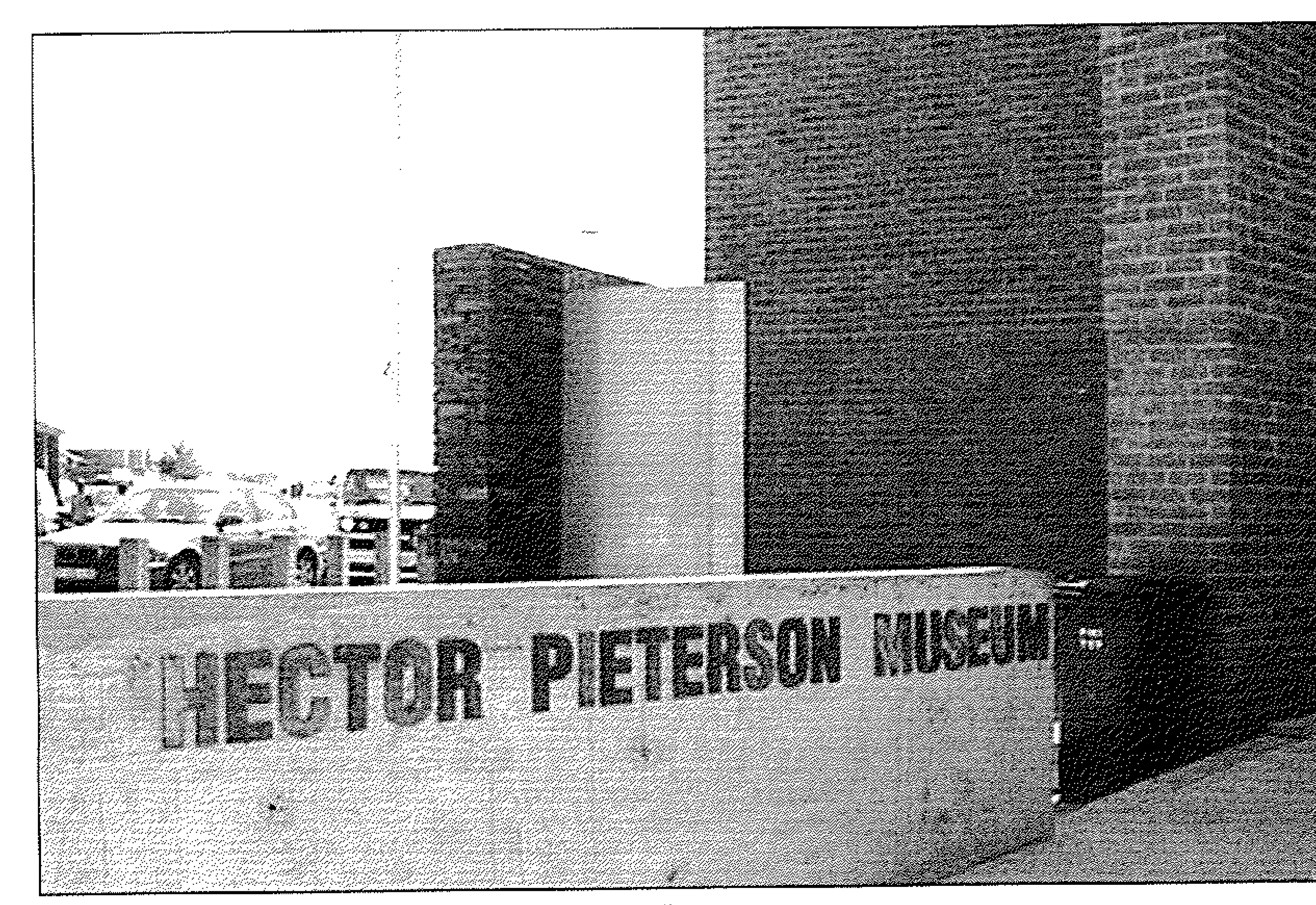
مظاهرات ١٦/٦/١٩٧٦ في سويتو.. وإلى اليسار قاعة الكنيسة التي احتمى بها الطلاب

ويلخص تاريخ سويتو تاريخ جنوب أفريقيا المليء بالصراع لتحويل الدولة والمجتمع من مجتمع عنصري إلى مجتمع ديموقراطي، ويشكل يوم السادس عشر من يونيو لعام ١٩٧٦ معلماً هو الأهم والأبرز في تاريخ هذه المقاطعة التي انطلقت منها شرارة التحرر فأشعلت الثورة ضد التمييز العنصري. ففي ذلك اليوم تحديداً لقي هيكتور بيترسون مصرعه على أيدي قوات البوليس والأمن الحكومية في سويتو خلال مشاركته مع زملائه طلاب المدرسة في مظاهرة سلمية احتجاجاً على قرار الحكومة حظر التدريس باللغة الأفريقية، لتتحول المظاهرة السلمية إلى اشتباكات بين قوات البوليس المسلحة، والطلاب العزل، وليسقط الطالب بيترسون كأول ضحية لهذه المظاهرات والاحتجاجات. وبيترسون هذا هو أحد أبناء قبيلة الزولو، التي هي واحدة من أكبر القبائل في جنوب أفريقيا، وكان لقب عائلته في الأصل «بيستو» ثم تغير لاحقاً إلى بيترسون، وقد كان وقتها طالباً بالمدرسة الثانوية الوحيدة في المقاطعة، وقد تسرب نبأ مقتله مع صورة له محمولا ومصروعا إلى كافة أنحاء البلاد، وتسربت مع النبأ والصورة أنباء العنف الذي يمارس ضد السود، وكان لهذه الصورة مفعول السحر، حيث بدأت ردود الأفعال تتوالى وكلها كانت مؤيدة للسود ولحقهم في الحصول على حريتهم والانعتاق من أسر الاستعباد والتخلص من الذل والهوان، كما سارعت بقية المقاطعات التي يعاني فيها الملونون من التمييز العنصري في الثورة والانضمام إلى أهالي سويتو في المطالبة بحريتهم. الصورة التاريخية مع صور أخرى عن ذلك اليوم وأحداثه الدامية التقطها مصور صحافي يدعى بيتر ميجوبان، وقد دخل بها التاريخ كما حصل بسببها وبعدها على عدة جوائز، وأهدته الحكومة مؤخراً درجة الدكتوراة الفخرية تقديراً منها لمساهمته الإيجابية في مسيرة كفاح شعب جنوب أفريقيا ضد العنصرية.

اليوم الوطني للشباب

ولأنها أمة تعتز بتاريخها، وتقدر أهميته، فقد قررت الحكومة تحويل ذكرى مصرع هيكتور ورفاقه إلى ما يعرف بـ «اليوم الوطني للشباب في جنوب أفريقيا» ويتم الاحتفال به في كل عام رسمياً وشعبياً على مستوى الدولة بأكملها، كما أقامت نصباً تذكارياً لضحايا هذا اليوم من الطلاب أمام متحف أنشئ خصيصاً للغرض نفسه. النصب التذكاري افتتحه الزعيم نيلسون مانديلا في اليوم السادس عشر من يونيو لعام ١٩٩٢، وكتبت عليه عبارة «أقيم هذا النصب على شرف الشبان الصغار من طلاب المدارس الذين قدموا أرواحهم في سبيل الحرية» ووصفتهم لوحة أخرى بأنهم رمز للشجاعة والتضحية، ويقع النصب المذكور أمام مبنى الكنيسة القديمة في البلدة، والتي تدافع إلى داخلها الطلاب طلباً للحماية وهرباً من نيران قوات البوليس، لكن تلك القوات لم تراع لا صغر





متحف هيكتور بيترسون من الخارج



ومن الداخل

سن الطلاب ولا حرمة الكنيسة، فاقتحمتها وأطلقت النيران على من كانوا فيها، فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت دون شفقة ولا رحمة. وما زالت حتى اليوم آثار الأعيرة النارية موجودة على سقف وجدران ونوافذ الكنيسة التي تحطم بعض زجاجها، وأعادت الحكومة تركيبه، كما تبرع أناس من دول أخرى بتركيب البعض الآخر، ومنهم سيدة بولندية أهدت إحدى النوافذ زجاجاً معشقاً ملوناً ومزخرفاً لإصلاح المعطوب منها، كما كسرت قطعة من رخام المذبح ذي اللون الأسود، تقع على الطرف الأيمن من جهة الداخل، وأنت مواجه لهذا المذبح وذلك من جراء تزاحم الطلاب وتدافعهم للاحتماء به، وثمة لوحة مثبتة على جدار من جدران الكنيسة موصوف عليها أحداث ووقائع ذلك اليوم.

تاريخ بكل اللغات

أما النصب نفسه فعبارة عن ساحة مساحتها حوالى ١٥٠ إلى ٢٠٠ مترمربع وبها بناء من الرخام البني اللون، يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أمتار، تنساب من جوانبه المياه لتتجمع أمامه ثم تعود لدورتها مرة أخرى، وهكذا. وعلي يسار المبنى الصورة الشهيرة التي التقطها المصور ميجوبان بالأبيض والأسود لشاب صغير يحمل بين يديه الطالب هيكتور بيترسون مصاباً بأعيرة نارية، ودماؤه تنزف وتغطي وجهه وملابسه، وتظهر شابة صغيرة (أخت بيترسون) وهي تمشي إلى يمين الشاب الصريع ومن يحمله، وبعد الصورة بمسافة قليلة يقف شاهد من الجرانيت الأسود مثبتة عليه لوحات نحاسية تروي كل لوحة منها قصة ما حدث بإحدى اللغات المستعملة في جنوب أفريقيا مثل لغات الزولو، والسوتو، والبادي، وتسوانا، والسوازن، واللغة الانجليزية بالطبع. وعلى يمين المبنى توجد صخرة طبيعية يبلغ وزنها أكثر من طنين حفرت عليها أسماء القتلى، ومختصر لما حدث أيضاً، بينما انتشرت على أرضية الساحة من جهة الأطراف الخارجية قطع رخامية مستطيلة كتب عليها ذوو الضحايا عبارات موجزة لكنها معبرة في ذكرى أولادهم الذين قضوا في ذلك اليوم.

شخص يستطيع تغيير مجتمع

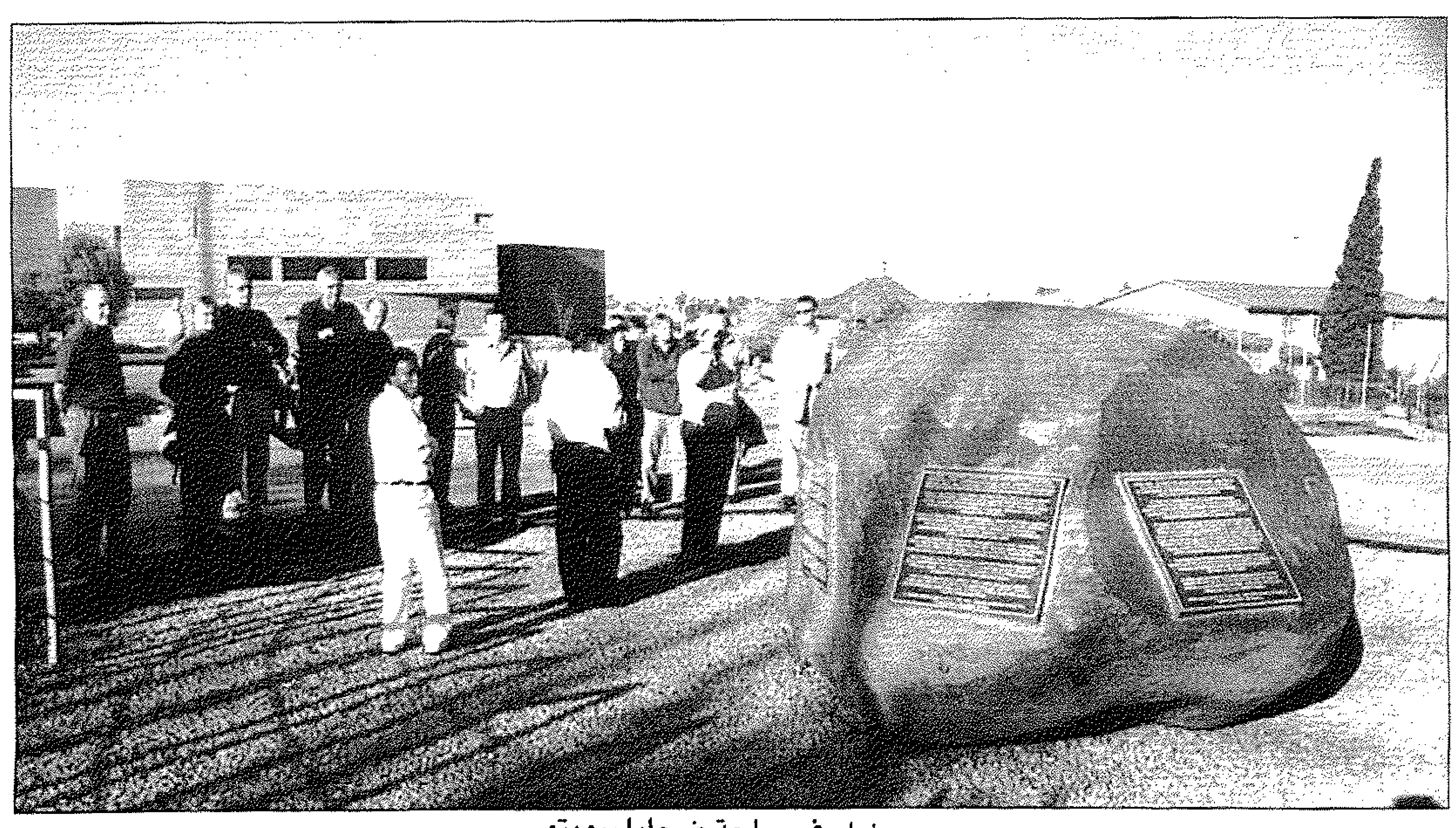
وأما المتحف فهو بناء حديث مكون من طبقتين يصل بينهما ممر صاعد من أسفل إلى أعلى، في طبقته السفلية علقت الصورة الشهيرة التي التقطها المصور الشهير ميجوبان للمظاهرات والاشتباكات والاعتداءات، وصور لزعماء المقاومة في جنوب أفريقيا ومنهم نيلسون مانديلا وزيف موتو بينج، وأنتون ليمبيد، ووالتر سيسيلو، مع ملخص للبداية الرسمية لظهور وانتشار التفرقة العنصرية في البلاد، بعد توقيع الدكتور هـ. فيزويد وزير شئون المستوطنات على إعلان رسمي (قرار) ينص على أنه لا مكان لـ «باتو»، وهم الملونون من أبناء البلاد وسكانها في المجتمع الأوروبي مجتمع البيض، وقد أفرز تطبيق هذا الإعلان القرار مشاكل لا حصر لها،

حيث فرضت قيود شديدة على تحركات الأفارقة السود والملونين، وكان يتم القبض على المئات منهم يومياً وإيداعهم السجون والمعتقلات في ظروف غير آدمية ولا إنسانية، وكان غير مسموح لهم بدخول الأماكن المخصصة للبيض ومن بينها المدارس أو المطاعم أو المحال التجارية ودور العبادة، بل ومناطق وشوارع بأكملها، وكان لابد من حمل تصاريح خاصة للمرور لكل من يرغب من هؤلاء الملونين في المرور أو الدخول إلى هذه المناطق أو الأماكن. كما توجد بالقاعة نفسها أجهزة عرض أفلام وثائقية عن تلك الفترة البغيضة من تاريخ البلاد، وتعرض بعض اللافتات التي كان يرفعها المتظاهرون للتنديد بالتفرقة العنصرية والمطالبة بالحرية والديموقراطية، ومعظمها من الكارتون أو الورق المقوى، والعبارات التي عليها كتبت بخطوط عشوائية لكنها صادقة حيث تستشعر في الخطوط القوة والإصرار، كما تستشعر في البعض منها رعشة خوف، أو السرعة والعجلة في تجهيز اللافتة. كما توجد حمامات ومكتبة لبيع الكتب والأشرطة والصور والقمصان والتذكارات الأخرى الخاصة بالحدث، أو الخاصة بزيارة جنوب أفريقيا.

وفي الطبقة العلوية من المتحف توجد قاعة عرض تسع حوالى ١٢ إلى ١٥ شخصاً وبها شاشة عرض كبيرة تشاهد وتسمع من خلالها لقصة التفرقة العنصرية ومعاناة الملونين منها يرويها زعماء النضال والمقاومة الأربعة الذين سبق وأن ذكرت أسماؤهم، كما تنتشر أجهزة مشاهدة واستماع أخرى يبث كل منها شهادات حية لأشخاص عاصروا فترة التفرقة العنصرية وعانوا ويلاتها. وفي مكان آخر عرض مدفع رشاش ومسدس كبير استخدما ضد المتظاهرين السود، واحتفظ بهما الأهالي منذ أيام المقاومة، وأربع سماعات للهاتف الأسود التقليدي القديم، تسمع من خلالهما أصوات قادة المقاومة وأوامرهم ومخابراتهم مع معاونيهم وزملائهم، وأصوات محادثات تمت بينهم عن الأوضاع التي كانت سائدة خلال فترة النضال، ولكن العبارة الأبرز بين محتويات المتحف هي لوحة كتب عليها: حياة شخص تستطيع أن تغير مجتمعاً فهل توافق عزيزي القارئ على ذلك؟.

كفاح من نوع آخر

بقيت الإشارة إلى أن سويتو كما كافحت ضد التفرقة العنصرية والقمع والاضطهاد، ونجحت في ذلك وسطرت أحرفاً مضيئة في تاريخ جنوب أفريقيا، فهي الآن تكافح أيضاً ولكنه كفاح من نوع آخر، ضد الفقر والتخلف والجريمة والعشوائيات التي هي نتيجة لعصور بائدة من الاستعمار والتمييز العنصري، وبالتأكيد ستنجح في هذه المعركة، لأن آثار النجاح واضحة بالفعل للعيان لكل من يزور المقاطعة ويتجول



زوار في ساحة ضحايا سويتو



خارج المتحف تباع تذكارات للزيارة

في أنحائها، فليست كل المقاطعة على هذا المستوى من الفقر، ولكن فقط مناطق محدودة هي التي لا تزال تعاني ذلك، وتستطيع أن ترى المساكن الجديدة وقد بنيت لإسكان المواطنين، وتشاهد المرافق تزحف نحو الأماكن الفقيرة من المقاطعة بكل جد، والحكومة تعمل ما بوسعها لإزالة المظاهر العشوائية لكنها في الوقت ذاته تعمل على الاحتفاظ بهذا الجزء من تاريخ سويتو الذي هو كما ألمحنا جزء من تاريخ جنوب أفريقيا.

كلام مسؤول

وتقول مديرة العلاقات السياحية الدولية في دائرة البيئة والسياحة بحكومة جنوب أفريقيا السيدة باشنس مولوكوزا: إننا نعمل جاهدين وبجد وبوعي وإدراك شديدين للحفاظ على تاريخنا وعلى فترة خصبة من نضال أمتنا، كما نعمل في الوقت نفسه على نقل هذا التاريخ للأجيال القادمة، ليحفظوه أيضاً ثم لينقلوه بدورهم إلى أجيال قادمة أخرى، ونحن نقدر وبشدة أهمية المساعدات الدولية التي تقدم لجنوب أفريقيا في كل المجالات، لكن في مجالي التاريخ والتراث لابد أن نقدم نحن الجهد الأكبر والقيمة الأغلى، وهما الإحساس بقيمة كل من هذا التاريخ وذلك التراث، وبعظمتهما، والقناعة بأنهما جزء من كيان عظيم شكل ويشكل وطنا اسمه جنوب أفريقيا، لأن ذلك الإحساس وتلك القناعة لا يملك أحد سوانا أن يهبهما لنا.

وتضيف السيدة مولوكوزا قائلة: وعلى الرغم من أهمية الإحساس والقناعة، فلابد من التأكيد على أنهما ليسا كافيين لوحدهما، بل يجب بذل كل الجهود الممكنة لإبقاء أبنائنا وبناتنا على اتصال دائم بتاريخهم وتراثهم، وفي هذا الصدد أستطيع أن أقول أن الجهود تتكاتف في هذا الاتجاه، فالحكومة تعمل بقوة والأهالي كذلك يعملون بقوة، ولا تفوت أية عائلة الفرصة دون أن تصحب أولادها لزيارة سويتو والتعرف على التفاصيل الصغيرة التي تجمعت لتنتج هذا النسيج الجميل من التاريخ وتشكل ذلك الجزء الأجمل من التراث في جنوب أفريقيا. وأنا شخصياً في الأساس من سويتو ودائمة القيام بزيارات لها مع ابني الوحيد كلما سمحت ظروف العمل لي بذلك.

وأنت أيها القارئ العزيز، إن قدر لك في يوم من الأيام زيارة سويتو فلا يمكن أن تفوت هذه الزيارة دون زيارة متحف فيكتور بيترسون أو النصب التذكاري لقتلى السادس عشر من يونيو لعام ١٩٧٦، كما لن تمر الزيارة كذلك بالطبع دون زيارة بيت الزعيم الأسطورة مانديلا، الذي زارته «تراث» ويسرها أن تصفه لك، ولكن في عدد قادم بمشيئة الله تعالى.■



انطباعات الرحالة عن روسيا في التراث العربي

■ أ.د خليل حسن الزركاني *

التفت الرحالة العرب إلى دراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى الجغرافية والطبيعية عن روسيا، ويبدو أنه كانت لديهم معلومات عن الروس منذ بدء ظهورهم في شرقي أوروبا، وسنقدم في هذا البحث معلوماتهم حسب تسلسلها الزمني، لأن ذلك يساعد على فهم تطور الروس، مع ملاحظة أساسية هي أن البعض من هؤلاء الرحالة كان يكتفي بإيراد معلومات سابقة مشتركاً مع غيره في الأخذ من المصدر نفسه. والرحالة العرب كانوا في طريقهم إلى تلك البلاد يسلكون سبيلاً من اثنين: أولهما سبيل البر من الأندلس أو أرض الفرنجة مروراً بشمال أفريقيا ومصر وفلسطين (الرملة)، ثم إلى دمشق فالكوفة

فبغداد فالبصرة، ومنها إلى الأهواز وفارس وكرمان إلى السند ثم الهند ثم الصين، وثانيهما عبر الأراضي السلافية وراء روما (الشرقية) إلى خليج مدينة الخزر، ثم في بحر جرجان، ثم بلخ إلى ما وراء النهر وأواسط آسيا إلى الصين.

* جامعة بغداد

ويبدو أن الطريق الثاني كان هو طريق التجار من اليهود (الرادانية)[١].

ونلاحظ أن ابن خرداذبة كان يميز بين الصقالبة والروس، وبين أن موطن الروس في أقاصي أرض الصقالبة وراء نهر الدون، أو أنهم يأتون عن طريق الأندلس، وهذه المعلومات تشير بوضوح إلى الشماليين.

ابن الفقيه (٢٨٩ هـ/٩٠٢م)

أما ابن الفقيه فقد أخذ من مصدر ابن خرداذبة ويكاد يورد النص نفسه، إلا أنه يتحدث عن التجار الصقالبة بدلاً عن التجار الروس[٢]. ولكننا نلاحظ أنه يدخل الروس وحتى الشماليين ضمن الصقالبة في نص آخر[٣]. وأن معلومات ابن الفقيه لاتبرر رأي باسكفيج بأن ما ورد في ابن خرداذبة قوله: إن الروس (جنس من الصقالبة) هي إضافة مدخولة عليه، بل يؤخذ هذا بالمفهوم العام للفظ الصقالبة[٤]. ويبدو لي أن رأي لفجكي أقرب للقبول هنا حين يرى أن كلمة (صقالبة) تعني السلاف أو الذين يتكلمون بالسلافية[٥].

وبعد هذا نلاحظ أن ابن خرداذبة لا يشير إلى أرض روسية، ويسمى نهر تنيس (نهر الصقالبة)[٦]، ويبدو لي أنه يصف الوضع قبل وجود أي كيان سياسي للروس في شرق أوروبا.

لكن ابن الفقيه يورد ملاحظة أخرى حين يقول: (أو يأخذون (أي التجار الصقالبة) في هذا النهر الذي يقال له نهر الصقالبة حتى يجيئوا إلى خليج الخزر فيعشرهم صاحب الخزر، ثم يصيرون إلى البحر الخراساني (أي بحر قزوين)، فربما خرجوا بجرجان فباعوا جميع ما معهم فيقع جميع ذلك إلى الري)[٧]. فهو يذكر نهر الصقالبة أي نهر تنيس أو الدون، ويبين أنهم يخرجون من بحر الصقالبة إلى هذا النهر، وهذا يعني بوضوح أنهم يخرجون من بحر أزوف الذي يصب نهر الدون فيه. وهذه أول إشارة إلى أن التجار كانوا يأتون من بحر أزوف.

ابن رسته (٣٠٠هـ/٩١٢م)

لقد أورد ابن رسته بعض المعلومات الجديدة عن الروس، ولعله أخذها عن مسلم بن أبي مسلم الجرمي[٨]، فهو يميز بين الروس والصقالبة، ويذكر أن الروسية يعيشون في جزيرة وسط بحيرة. وتبلغ سعة الجزيرة مسيرة ثلاثة أيام «مشاجر وغياض»، وهي غير صحية ومرطبة.

وهنا تجابهنا مشكلة تحديد محل إقامتهم. فيرى مينورسكي أن نص ابن رسته يشير إلى إقامة شيوخ النورمان (الشماليين) في منطقة البحيرات الروسية الكبرى، وأن مدينتهم هي نوفكرود، وأن هذه الكلمة تعني في الاسكندنافية (مدينة البحيرة)[٩].

ويبين فرنادسكي أن أوصاف ابن رسته تنطبق على مدينة تموتور، وكانت في شبه جزيرة تمان في القرم، إذ يحفها البحر الأسود من الجنوب، ومضيق كرج من الغرب، وبحر أزوف من الشمال، وهي في الواقع جزيرة لأنها مفصولة عن البحر بأذرع دلتا نهر كوبان. كما أن المشاجر والفياض التي يذكرها ابن رسته تكثر على ضفاف الأقسام السفلى من نهر كوبان[١٠].

ويبدو لي أن الرأي الثاني أقرب إلى القبول. فغريزي (الذي أخذ من مصدر ابن رسته) يبين أن روس جزيرة تقع في البحر، ويبين أن ملكهم يأخذ العشر من التجار[١١] ويقول البيروني في حديثه عن بحر نيطس (وحوله الأرمن وطوايف من الأتراك والروس والصقلب)[١٢]، ويذكر الوطواط (محمد بن إبراهيم الوراق) أن الروس يعيشون في جزيرة في بحر ميوطس، أي الأزوف، وهو إنما ينقل من مصادر سابقة ويعطي مبارك شاه (فخر الدين) في تاريخه معلومات مماثلة[١٣].

ويذكر ابن رسته أن الروس لهم مدن كثيرة، ويلقب ملكهم بـ «خاقان»، ويبدو أن هذا يشير إلى مطلع القرن التاسع للميلاد حين أصبحت لديهم دولة هي (خاقانية أزوف)[١٤].

السيف هدية المولود

وكان الروس يقومون بغارات في قواربهم على الصقالبة ويسبون بعضهم ليبيعوهم للخزر والبلغار، ولم تكن لديهم زراعة بل كانوا يأكلون مما يحملونه من أراضي السلاف[١٥]. وهم يعتمدون على سيوفهم، وإذا ولد الرجل منهم مولوداً قدم إلى المولود سيفاً مسلولاً فألقاه بين يديه وقال له: لا أورثك مالاً وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك[١٦].

ويضيف إلى ذلك: بأنه ليس لهم عقار ولاقرى ولا مزارع، بل أن مهنتهم المتاجرة بالسمور والسنجاب وأنواع أخرى من الفراء يبيعونها نقداً بالدنانير والدراهم. ولابد أن نلاحظ التضارب بين إشارته إلى أن لهم مدناً كثيرة وبين قوله أن لاقرى لهم، وهذا يعني

أن معلوماته تشير إلى فترتين مختلفتين.

ويبين ابن رسته أن للروس سيوفاً ممتازة هي السيوف السليمانية. وقد تحدث البيروني عن طريق معالجة حديد السيوف الروسية وعن مصدرها[١٧]. وأشار مسكويه إلى روعة هذه السيوف وإلى مضائها وجودتها[١٨]. وتحدث ابن رسته عن تماسكهم، فإذا استنفرت طائفة منهم خرجوا جميعا مقاتلين وقاتلوا متحدين العدو. وإذا اختصم اثنان ولم يوافق أحدهم على حكم الملك في الخلاف احتكما إلى السيف ولجأت قبيلتهما إلى القتال. وهم يكرمون ضيوفهم ويحسنون إلى من يلوذ بهم. ولا يسمحون لأحد أن يسئ معاملتهم ويعتدي عليهم. وإذا استغاث بهم أحد في مكروه أو ظلم أعانوه ودفعوا عنه. وهم يحملون سيوفهم دائما لأن أحداً لا يثق بالآخر. وقد عرفوا ببسالتهم وبقسوتهم المتناهية في الحرب، وكانت غزواتهم عادة في القوارب والسفن.

دفن الزوجة مع الميت

وإذا مات أحد كبرائهم حفروا له قبراً كبيراً مثل البيت الواسع ووضعوا فيه ملابسه وأسورته وكثيراً من الطعام والشراب وقدراً من النقود الذهبية والفضية، وجعلوا امرأته المفضلة معه في القبر وهي حية، ثم يسد عليها القبر فتموت هناك. ويورد مسكويه معلومات مباشرة عنهم في سنة ٣٣٢هـ في معرض حديثه عن موتاهم فيقول: (فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه وثيابه وآلته وزوجته أوغيرها من النساء وغلامه إن كان يحبه على سنة لهم[١٩]. ويذكر ابن رسته أن الروس كانوا يرتدون الثياب النظيفة ويتأنقون بملابسهم ويتزينون بالأسورة الذهبية. ولهم سراويل واسعة يتخذ الواحد منها في مائة ذراع «إذا لبسها اللابس منهم جمعها على ركبتيه وشدها عندهما»[٢٠].

الطبيب أمره نافذ

ويذكر ابن رسته عن دور الأطباء بينهم فيقول: (ولهم أطباء منهم يحكمون على ملكهم شبه أرباب لهم، واذا حكم الأطباء لم يجدوا بداً من الانتهاء إلى أمرهم). وهؤلاء يأمرونهم بتقديم الضحايا من البشر والكراع[٢١]. ويرى البعض في هذا النص إشارة إلى مجلس الحكم لدى الروس[٢٢]، نلاحظ أن ابن رسته يميز بين الروس والصقالبة (السلاف)، ويشير إلى أن أول دولة لهم «الخاقانية»، التي تبدو دولة عسكرية وتجارية. وهم يتاجرون بانتظام مع شعوب الفولجا، وكانت سمكرز محطة لهم على دلتا نهر كوبان[٢٣]، وليس لهؤلاء الروس زرع، بل تجهزهم القبائل السلافية التابعة لهم بالمواد الغذائية الأخرى، ويفهم من غرد بزي إنهم كانوا يجمعون الضريبة من السلاف بصورة منتظمة، وترد الإشارة إلى عاداتهم وبعضها غريب مثل تقديم الضحايا البشرية، ودفن الأحياء مع الموتى، وفي ابن رسته بعض التناقض، فهو يذكر أن الروس ليست لهم قرى، ثم يرجع ويقول: إن (لهم مدائن كثيرة)، ولعل ذلك ناشئ عن اتصال المعلومات بفترتين مختلفتين، بداية وتوسع[٢٤].

المقدسي (٣٥٠هـ/٩٦٦م)

لقد اخذ المقدسي صاحب كتاب البدء والتاريخ من المصدر الرئيسي لابن رسته، وأورد معلومات متسقة، إذ يقول: (وأما الروس فإنهم في جزيرة وبيئة تحيط بها بحيرة، وهي حصن لهم ممن أرادهم وجملتهم في التقدير زهاء مائة ألف إنسان، وليس لهم زرع ولا ضرع، يتاخم بلدهم الصقالبة فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم ويسبونهم. قالوا وإذا ولد لأحد منهم مولود ألقى إليه سيفا وقال له: ليس لك إلا ماتكسبه بسيفك. ولهم ملك إذا حكم بين الخصمين بشئ فلم يرضيا به قال تحاكما بسيفكما فأي السيفين كان أحد.. كانت الغلبة له[٢٥].

هنا يعتبر المقدسي الجزيرة حصنا للروس من الطامعين، ويبين أنهم يغيرون على جيرانهم الصقالبة فيأخذون منهم المواد الغذائية والسبي. وهو يجعل عددهم مائة ألف[٢٦] ليس لهم زرع ولا ضرع، واعتمادهم على السيف.

الاصطخري (٣١٨-٣٢١هـ/٩٣٠-٩٣٣م)

ويورد الاصطخري في الأساس معلومات البلخي (ت ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) الذي كتب قبل ابن فضلان بقليل وهو يذكر أن الروس يسكنون بسن البلغار (على الفولجا)، والصقالبة[٢٦]، ويتاجرون مع الخزر والروم (البيزنطيين)، ومع البلغار. وهم كثيرون جداً بلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على مايلي بلادهم من بلاد الروم وعلى بلاد بلغار الداخل[٢٧]، ويميز الاصطخري ثلاثة أصناف من الروس، فيبدأ بالقريبين من البلغار ومقر ملكهم في كويابة (كييف)، وهي مدينة أكبر من بلغار. ويليهم الصلاوية، وأقصى هذه الجماعات هم

الارثانية وعاصمتهم إرثا أو ارتاب أو إربا[٢٨].

ويصل التجار (من المسلمين كما يبدو) إلى مدينة كويابة، ولكن لم يذكر أن أحداً دخل أرثا لأن أهلها يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء. وينزل الارثانية بتجارتهم في قوارب، ولا يخبرون أحداً بشئ من أمورهم ومتاجرهم، ولا يسمحون لأحد أن يصاحبهم أو يدخل بلادهم. ويحمل من إرثا فرو السمور الأسود والرصاص[٢٩]، وتجلب جلود الخز والشمع والعسل من الأراضي الروسية[٣٠]. ويتحدث الاصطخري عن بعض عوائدهم فيذكر أن الروس يحرقون الموتى، ومتى كانوا من المياسر أحرقوا معهم الجواري بمحض اختيارهن. ويحلق البعض لحيته بينما يسرح البعض الآخر لحيته فيمشطها ويجدلها في ذوائب[٣١]. ولباسهم قصير وهو القرطاق القصار[٣٢]، ويلاحظ الاصطخري أن (روس) اسم للمملكة لا للمدينة ولا للناس، وأن لهم لساناً خاصاً يختلف عن لسان الخزر وبرطاس[٣٣].

ويتتابع ابن حوقل الاصطخري مع إضافات محدودة. فيذكر أن الصلاوية اتخذوا (صلا) عاصمة لهم[٣٤]، وأن إرثا تقع على نهر الروس (الدون)[٣٥].

ويؤكد ابن حوقل إن التجارة الروسية تأتي دوماً إلى الخزر حيث يدفع التجار العشر، كما أن التجار الروس يواصلون تجارتهم مع الروم[٣٦].

إن الإشارة إلى الأصناف الثلاثة إنما هي كيانات قبلية سبقت تكوين روسيا القديمة وهي دولة كييف. فالاصطخري يذكر الاتحاد القبلي ومركزه كييف، ويبدو أن القبيلة الرئيسية هي يوليانة، والمجموعة القبلية الثانية هم السكان السلوفيون في أرض نوفكرود وهي مركز المدينة. والمجموعة الثالثة ارثانية وهي كما يبدو تشير إلى الروس حول بحر أزوف والبحر الأسود[٣٧]

ابن حوقل(٣٦٧هـ /٩٧٧م)

لقد بيّن ابن حوقل أن التجارة الروسية تأتي دوما إلى الخزر، وكان على التجار فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم. ويبين أن الذي يحمل من الخزر من العسل والشمع والوبر (الفرو) إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار، وكذلك جلود الخزر[٣٨].

كما أن الروس كانوا يتاجرون مع الروم وبلغار الأعظم. ويحمل من إرثا السمور السود والثعالب السود والرصاص وبعض الزنبق[٣٩].

ويشير ابن حوقل إلى مآثرهم الحربية في زمنه وسنرجع إلى ذلك. ويبين أنهم أخرجوا بلغار والخزر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م. ومن دلائل توسعهم في زمنه أنه يذكر الأراضي التي توسعوا إليها ويسميها بلاد الروس. ثم يذكر من عوائدهم ولباسهم ما أورده الاصطخري[٤٠].

ابن فضلان (٣٠٩ - ٣١٠هـ/ ٩٢١-٩٢٢م)

لقد أعطى ابن فضلان معلومات مباشرة عن التجار الروس الذين رآهم لدى بلغار، وبيّن أن مدينة البلغار على بعد فرسخ من اتل[٤١]، ثم بين بعدئذ أنه يقصد بأتل النهر العظيم الذي يصب إلى بلاد الخزر وهو نهر (الفولجا)، إذ أنه وجد ملك البلغار في منطقة قريبة من النهر المذكور على بعد فرسخ[٤٢]. وكان البلغار في أعالي الفولجا قرب خط عرض من ٥٣[٤٣].

وتحدث ابن فضلان عن الروس، وجلب انتباهه صحة أبدانهم إذ قال: (فلهم أبدان كأنهم النخل شقر خمر). وهم لا يلبسون القرط ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمك به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه[٤٤]. ويحمل كل رجل سيفاً وسكيناً وفأساً (وهي الفأس النورسية). وسيوفهم عريضة (صفائح مشطبة إفرنجية). وهم يزينون أجسامهم بالوشم من العنق إلى أظفار القدمين فيرسمون الأشجار والصور وغير ذلك[٤٥].

تعطر السيدات

وتحمل كل امرأة حقة (للعطور) مشدودة على ثديها، وتصنع من الحديد والنحاس وفضة أو ذهب (على قدر مال زوجها وقدره)، وفي كل حقة حلقة تربط إليها سكينة وتشد على الثدي أيضا. وهن يزين أعناقهن بأطواق من الفضة والذهب، وعددها يتناسب مع ثروة زوجها، فكل عشرة آلاف درهم يملكها الرجل يقابلها طوق يصوغه لامرأته، ولذا فربما كان في عنق المرأة الواحدة أطواق كثيرة. وينتقد ابن فضلان التجار الروس لقلة نظافتهم ولعدم اعتنائهم بالاغتسال. وهم يكثرون من شرب النبيذ صباح مساء[٤٦].

ويأتي هؤلاء التجار في سفنهم ويرسون في نهر اتل ويبنون على شطه بيوتاً كبيرة من الخشب، ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ومعهم الجواري (للبيع) ولكل منهم سرير.

ثم يصف احترامهم للصور الخشبية وتقديسهم لها

وتقديمهم الهدايا ليتيسر لهم بيع تجاراتهم، ومتى باعوها ضحوا الاضحيات لهذه الصور[47]. ومن الواضح أن هؤلاء وثنيون. فإذا مرض أحدهم أقاموا له خيمة من ناحية ووضعوا معه شيئاً من الطعام من خبز وماء ويتركونه وحده، وخاصة إذا كان فقيراً أو عبداً، فإذا شفي عاد إليهم وإذا مات أحرقوه، وأما العبد فيترك للكلاب والجوارح[48].

ويشير إلى كرههم للسرقة، فإذا أمسكوا بلص أو سارق شدوا حبلاً في عنقه وعلقوه على شجرة وتركوه عليها حتى يتلف[49].

الأعداء يلاحقونهم حتى بعد الموت

ويسهب ابن فضلان في وصف مراسيم حرق الموتى وما يترك من مؤنة ومتاع مع الميت. إذا مات أحد رؤسائهم أحرقوه مع من يرغب من عبيده رجالاً ونساء وأكثر ما يفعل ذلك الجواري. ويصف مشهد سفينة أحرق عليها ميت مع الأضاحي حوله وطريقة قتل من يرغب أن يُحرق معه بالخنق والطعن. وكانت العادة أن يشعل النار أقرب الناس إلى الميت، فإذا تعالى الدخان فإن مصير الميت أسعد، والجنة بنظرهم (حسنة خضراء)[50]، ويعتقد الروس أن أرواح أعدائهم الموتى تلاحقهم إلى العالم الأخر، ولذا فإنهم يقتلون أنفسهم حين يحسون بخطر تعرضهم للأسر، ويؤيد ذلك مسكويه[51]. ويحيط بملك الروس أربعمائة رجل من (صناديد أصحابه)، وهم يموتون بموته ويقتلون دونه. ولكل منهم جاريتان واحدة للخدمة والأخرى للفراش. وهم يحيطون بسرير الملك، وهو سرير عظيم مرصع بنفيس الجواهر. وللملك خليفة (يسوس الجيوش ويدافع الأعداء ويخلفه في رعيته[52]. ونلاحظ أن ابن فضلان يتحدث عن ملك الروس، ويبدو أن هذا يتصل بانتهاء فترة الخاقانية ككيان متميز بعد قيام دولة كييف. وبهذه المناسبة نذكر أن ابن فضلان يسمي ملك البلغار (ملك الصقالبة) وهو محق في ذلك فالمسعودي يقول عن البلغار «وهم نوع من الصقالبة»[53].

المسعودي (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م)

يعطي المسعودي- وهو مؤرخ وجغرافي- في مروج الذهب وفي التنبيه والإشراف معلومات جديدة مستقلة. يبين المسعودي أن (بحر نيطس هو بحر البرغر والروس وغيرهم من الأمم). ثم يقول في محل أخر: (أن بحر مايطس (الأزوف) ونيطس (الأسود) هو بحر البرغر والروس)[54]، ولكن فكرته عن مايطس غير دقيقة إذ يقول: ويتصل «نيطس» ببحيرة مايطس وطولها ثلاثمائة ميل، وهي في طرف العمارة من الشمال، وبعضها تحت القطب الشمالي، وواضح أن فكرته ليست واضحة عن مايطس «الأزوف» من ناحية السعة والامتداد، فهو يسميه مرة بحراً ومرة بحيرة، ويراه يمتد إلى تحت القطب الشمالي. ولعل هذا الغموض يساعد على فهم نص آخر له يبدو عليه الارتباك. يقول المسعودي: (وفي أعالي نهر الخزر «الفولجا» مصب يتصل بخليج من بحر نيطس وهو بحر الروس لا يسكنه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله[55]. فلا يمكن أن يكون بحر الروس هو بحر نيطس لأن المسعودي نفسه أوضح أنه بحر لهم ولغيرهم. ثم أن نهر الخزر يصب في بحر الخزر «بحر قزوين»، فلابد أن تكون الإشارة لنهر آخر، والعرب يعرفون نهر تنيس «الدون» الذي يقرب من أعاليه نهر الفولجا. كل هذا يعني أن المسعودي يقصد نهر الدون الذي يصب في بحر أزوف ويمكنه أن يسميه بحر الروس، والذي سماه ابن الفقيه بحر الصقالبة، إشارة لفترة أسبق. وإذن فبحر الروس عند المسعودي هو بحر أزوف وليس بحر البلطيق كما ظن بعض الباحثين)[56].

ويعطي المسعودي تفسيراً لكلمة روس فيقول: (والروم تسميهم روسيا بمعنى الحمر)، وهذه اشارة طريفة ينفرد بها[57]. ويبين أن الروس(أمة عظيمة لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة) ، ثم يوضح بأنهم: (أمم كثيرة ذات أنواع شتى، فيهم جنس يقال لهم اللوذعانة (الكوذكانه في التنبيه)، وهم الأكثر، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية والقسطنطينية والخزر[58]. وهذه إشارات شاملة للروس وللشماليين، وإلى أن هؤلاء لهم شيوخ وإمارات لاتنتظمها دولة واحدة. ويذكر المسعودي أن الروس يتاجرون مع بلاد البرغر (البلغار) وأن معدن الفضة كثير في بلاد الروس[59]. ويظهر من أخباره أن تجارة الروس كانت نشطة عبر بحر مايطس ونيطس إلى خليج القسطنطينية، أو إلى بلاد الخزر، وبالعكس عبر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس. كما أنه يشير إلى شعور البيزنطيين بخطرهم فيبين أنه يوجد في أعالي خليج القسطنطينية «بحر مرمرة»: (عمائر ومدينة للروم تدعى مسناة تمنع من يرد من ذلك البحر «ازوف والاسود» من مراكب

الروس وغيرها)، وفي نص آخر: «من مراكب الكوذكانة وغيرهم من أجناس الروس»[٦٠]. ويبدو أنه يشير إلى ما بعد القرن التاسع للميلاد.

ثم يتحدث المسعودي بتفصيل عن حملة الروس على الأراضي المجاورة لبحر قزوين وماسببوه من رعب وخراب[٦١] وما بعدها.

ويبين أنه يوجد سلاف وروس في مملكة الخزر، وإنهم (جند الملك وعبيده). وهم يسكنون في أحد جانبي مدينة أتل، ولهم قاض من بينهم (يحكم بحكم الجاهلية). ثم يتحدث عن عاداتهم في إحراق الموتى ويقول: (ويحرقون موتاهم ودوابهم وآلاته وحلية. وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي على قيد الحياة، وإذا ماتت المرآة لم يحرق الرجل، وإذا مات منهم عزب زوج بعد وفاته. والنساء يرغبن في حرق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهم الجنة[٦٢]، والمسعودي يجمع في إخباره بعض المعلومات التي استقاها من التجار والمسافرين الذين لا يعرفون الأراضي السلافية، والذين قابلهم في بغداد أو في الأراضي المجاورة لبحر قزوين[٦٣]، يقول المسعودي: فلم أر فيمن دخل بلاد الخزر من التجار ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس)، وجل معلوماته جديدة ومتينة.

الإدريسي

يعطي الإدريسي معلومات جديدة عن الروس، وقد وضع المعلومات القديمة جنب الجديدة كما فعل غيره، فهو يكرر المعلومات المألوفة عن حرق الموتى بين الروس وعن ملابسهم وأشكال لحاهم، وعن تقسيمهم على ثلاثة أصناف. ويبين أن روسيا تقع في الإقليم السابع في القسمين الرابع والعاشر ولكن الجزء الأهم منها يقع في القسم الثاني، وهو يشير إلى أراضي المراعي والى قرى مهجورة والى الثلج. ويتحدث عن مدن روسية مثل هلمجارد وهي مدينة كثيرة السكان تقع على جبل صعب المرتقى وأهلها يتسلحون خوفاً من اللصوص ويبين مدناً أخرى مثل سنبولي ومولينشقطة وهي على نهر ديسنا وهما مدينتان عامرتان. ثم يبين الإدريسي أن بلاد الروس شاسعة، وأن القسم الخامس من الإقليم السابع يحوي القسم الشمالي من بلاد الروس ويشمل الحوض الأعلى لنهر الدنيبر والخط الساحلي لشبه جزيرة كولا وهذا الجزء ضيق ومحصور بين جبليين[٦٤] واذا استثنينا الإدريسي فإننا لانجد أية معلومات جديدة بعد القرن الحادي عشر الميلادي.

ياقوت الحموي (٦٨٥هـ/ ١٢٢٩م)

يقدم في معجمه معلومات مقتبسة من أسلافه فيبدأ بفقرة من المسعودي، ويورد ما جاء في كتاب البدء والتاريخ للمقدسي بنصه، ثم يأخذ اقتباساً طويلاً من رحلة ابن فضلان[٦٥].

القزويني (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)

بورد القزويني في كتابه (آثار البلاد) بعض المعلومات عن الروس، ولكنها مرتبكة لا تجدي عدا ما أورده عن بحر ورنك «البلطيق»، وهو يسمى بحر نيطش بحر الروس[٦٦].

ابن سعيد المغربي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

يقدم في كتابه (بسط الأرض) معلومات قليلة. فيبين أن بحر مانيطش (الأزوف) فيه جزائر يسكنها الروس وهم الآن على دين النصرانية، ويبين أن هذا البحر يدعى بحر الروس، ويذكر أن الروس لهم مدن كثيرة على بحر نيطش وما نيطش. ثم إن ابن سعيد وصف مدينة (روسيا) ويسميها (قاعدة الروس)، وبين أنها على ضفة نهر يخرج من بحيرة طوما (بحيرة المن)، ويخلط بين نهر لوفات ونهر الدنيبر الذي يبدأ بتلال (فلداي) القريبة من نهر لوفات. ويعطي موقع مدينة روسيا بخطوط الطول والعرض. وأخيرا يقول عن الروس: (وهم خلق كثير من أشجع خلق الله وفي وجوههم طول)[٦٧].

الدمشقي (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

يقدم الدمشقي معلومات منقولة في الغالب ممن سبقوه ولكنه نسقها حسب اجتهاده. فبين أن الروس ينتسبون إلى مدينة اسمها (روسيا) على شمال بحر الروس. وهو أقل دقة من ابن سعيد في هذا، وأن مدينة ستاريا روسيا قريبة من بحيرة (المن) وإلى الجنوب منها[٦٨]، ويذكر أن نيطس أو البحر الأسود هو بحر الروس وبجزائر عامة تسمى الروسية، وإنهم نصارى. ولكنه غير واضح بالنسبة لموضع هذا البحر ويعكس الارتباك الحاصل في الروايات. فيذكر، على قول، إن بحر نيطس بحر مستقل بنفسه يخرج من خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم)، وهذا يصدق على البحر الأسود. ثم يعود ويورد قولاً آخر

هو: (ويقال أنه خليج يخرج من البلطيق على ظهر بلاد الصقالبة، وظهر بلاد البلطيق الخ)، وهذا يصدق على بحر البلطيق. وهو يعترف بأنه يردد أقوال المعنيين بعلم ذلك[٦٩]، ويبين الدمشقي أن الروس لهم جزائر في بحر مانيطس (الازوف) يسكنونها، ولهم مراكب حربية يقاتلون عليها الخزر، وهذا أقرب إلى الدقة مما أورده عن جزر في البحر الأسود.

ثم يتطرق إلى طريق تجارتهم وحملاتهم، فهم يسيرون في فرع للفولجا يجري إلى البحر الأسود، وعند وصولهم إلى النهر الرئيسي (الفولجا) ينزلون إلى بحر قزوين، وهذا يحتاج إلى توضيح، إذ يبدو أنه يعتبر نهر الدون فرعا لنهر الفولجا. ويبين أن الروس كانوا مجوساً ثم تنصروا، ويورد رواية ابن الأثير عن سبب تنصرهم عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[٧٠] إذ يقول ابن الأثير: (وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان ارمانوس وهما باسيل وقسطنطين، وضيق عليهما، فراسلا ملك الروسية واستنجداه وزوجاه بأخت لهما فامتنعت من تسليم نفسها إلى من يخالفها في الدين فتنصر، وكان هذا أول النصرانية بالروس[٧١]، ومن هذا يتضح أن الدمشقي جمع المعلومات المتيسرة بما فيها من اضطراب وقدمها بأمانة.

الأقطار، إلا أن العمارات بها متقطعة لا متصلة، وبين البلد والبلد مسافة بعيدة). ثم يصف أرضهم الرئيسية ويقول: (وأرضهم بين جبال محيطة بها وتخرج من هذه الجبال عيون كثيرة تقع كلها في بحيرة تعرف بطوهي[٧٢]، وهي بحيرة كبيرة في وسطها جبل عال فيه وعول كثيرة. ومن طرفها يخرج نهر دياتوس، وهذا الوصف ينطبق بوضوح على منطقة نوفكرود، منطقة البحيرات الوسطى، ويبدو أن البحيرة هي بحيرة المن التي تتصل بها أراض واطئة، ويبدو أنها تتسع في موسم الأمطار. وأما النهر المشار إليه فيحتمل أن يكون نهر دوينا الغربي، ولكن الأرجح بالنسبة لمعلومات الجغرافيين العرب يمكن اعتباره نهر الدنيبر[٧٣].

ويذكر ابن الوردي أن بحر نيطش (الأسود) هو بحر الروس، وأن الروسية على ساحله الشمالي[٧٤]. ويبين في محل آخر أن الروس بين بلغار وصقالبة، ويشير إلى قصر النهار عند الروس في الشتاء إلى ثلاث ساعات ونصف الساعة، ويستشهد على ذلك بقول الجوالقي الذي شهد ذلك في بلادهم[٧٥]. وهذا يعني أن ابن الوردي يتحدث

أبو الفداء (٧٢١ هـ/١٣٢١م)

لم يورد في كتابه (تقويم البلدان) من جديد يستحق الذكر، ولكن وجهته لها دلالتها، فهو يبين أن بلاد الروس شمالي العمارة، وأنهم شمال مدينة (بلغار)، ويشير إلى قوم شمالي الروس يتصلون بساحل البحر الشمالي. وقد أخذ معلوماته عن بعض من سافر إلى تلك البلاد[٧٦]. ثم يذكر مدينة (روسيا) ويبين أنها في شمال الإقليم السابع، وقد نقل معلوماته عنها من ابن سعيد.

ابن الوردي (ت٨٥٠هـ ١٤٢٦م)

إن محاولة ابن الوردي في جمع المعلومات عن روسيا هي آخر محاولة لجمعها وتنظيمها، فهو يتحدث عن أرض الروس ويبين: (إنها أرض واسعة



عن مراكز الروس شمال البلغار في منطقة نوفكرود، وفي منطقة كييف، وعلى ساحل البحر الأسود. وفي حين يورد معلومات المسعودي حين يقول عن الروس: (وهم أمم عظيمة لا ينقادون لاحد من الملوك ولا لشريعة من الشرايع)، ويشير أيضا إلى الطوائف الثلاث للروس كما جاء في الاصطخري. ويبين أخيراً أن الروس اكتسحوا بلغار وأتل (مدن الخزر) سنة ٣٥٨ وفق إشارات ابن حوقل.

الخاتمة

إن استعراض معلومات الجغرافيين العرب، يعطي فكرة عن بدايات الدولة في روسيا وعن التطور السياسي، وإن كان ذلك لايخلو من اضطراب. فقد عرف الجغرافيون العرب بدايات الفعاليات التجارية للصقالبة ومنهم الروس، كما ينعكس ذلك في ابن خرداذبة وابن الفقيه. كما تركزت معلوماتهم الأولى على نشاط الروس التجاري بين البحر الأسود وأزوف إلى الفولجا وبحر قزوين.

ويكشف الجغرافيون العرب عن تكوين أول دولة للروس وهي خاقانية ازوف، وهذا ما لم تذكره المصادر الروسية الأولى.

وقد انتبه الجغرافيون العرب إلى الطابع القبلي للروس في الفترة الاولى، وإلى أنهم اعتمدوا على التجارة والحرب في حياتهم العامة.

ثم تحدثوا عن الأصناف الثلاثة للروس، وهم يشيرون بذلك إلى اتحادات قبلية تتركز حول مدينة من المدن، وسموا ثلاثة مراكز لاتحادات ثلاثة هي نوفكر ودوكييف وارتا (قرب ازوف). ويبدو أنه كان لكل مدينة من تلك المدن كيانها الذاتي في تلك الفترة، ولها رئيس. ولم يميز العرب بين الشماليين (الورنكيين) وبين الروس، اذ أن الشماليين كانوا يجهزون المقاتلين الأجراء (المرتزقة)، ولم يعرفوا كيف توصل بعض هؤلاء إلى السيادة واصبحوا سادة بعض المدن.

وقد لاحظ الجغرافيون العرب انتقال الروس من المجوسية (عبادة الصور والأوثان) إلى النصرانية، وأشاروا إلى البدايات في القرن التاسع، وإلى تنصر ملكهم فلاديمير في أواخر القرن العاشر وشيوع النصرانية بينهم. وانتبه الكتاب العرب من جغرافيين ومؤرخين إلى حياتهم العسكرية وخاصة في منطقة بحر قزوين، وهذا مكنهم من تقديم معلومات مباشرة عن قبائلهم وأدوات قتالهم ومراكبهم وعاداتهم.

ويلاحظ أن الجغرافيين المتأخرين ركزوا معلوماتهم على منطقة نوفكرود وكييف، دون منطقة ازوف والبحر الاسود، فكثرت إشاراتهم إلى مدينة روسيا ومدينة كويافة (كييف)، وقد جاءت بعض معلوماتهم من تجار أو مسافرين بعد القرن العاشر وإن كانت قليلة. ويؤخذ على الجغرافيين العرب المتأخرين جمعهم للمعلومات من فترات مختلفة وإغفال التدرج التاريخي، وإن كان مظهراً «لأمانتهم العلمية».■

الحواشي

١- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك، ص ١٥٤.

٢- يقول ابن الفقيه: (فأما تجار الصقالبة فيجمعون جلود الثعالبة وجلود الخزر من أقصى صقلبة، فيجيئون إلى البحر، الرومي فيعشرهم صاحب الروم، ثم يجيئون في البحر إلى سمكوش اليهود، ثم يتحولون إلى الصقالبة).

٣- يقول: (أرض روم من إنطاكية إلى صقلبة ومن القسطنطينية إلى تولية والغالب عليهم رومي وصقلي والأندلس صقالبة) ابن الفقيه، المسالك والممالك، ص١٣٦.

٤- يرى جراكوف أن ابن خرداذبة يقصد بالروس، منطقة كييف، وبالصقالبة أهالي منطقة نوفكرود
Kiev rus p.597

5. H.paszkiewicz, the making of the Russion Nation p.148 (London 1963)

٦- ويشير ابن حوقل إلى نهر الروس ، صورة الأرض، ص٣٨٦.

٧- ابن الفقيه، المسالك والممالك، ص٢٧١.

8. art Rus,1V P.1182

9. Hudud al ALam p. 43

10. Ve rnad sky , Ancient R ussia p.284

11. Ve rnad sky,origins .p.190

١٢- البيروني ، صفة المعمورة، ص٤.

13- R Frye, m uslim World 1951 p.21.

14. Vernadsky,Ancient Russia p284

15. Vernadsky,Ancient Russia p 191

١٦- الاعلاق النفيسة ص١٤٥.

١٧- البيروني صفة المعمورة، ص٩٨ ص١٠٠.

١٨- مسكويه ، تجارب الامم، ج٢، ص٦٦.

١٩- مسكويه، تجارب الامم، ج٢، ص٦٦.

٢٠- الاعلاق النفيسة، ص١٤٦.

٢١- المصدر السابق، ص١٤٥-١٤٧.

22- VerNadsky,origins p191

23.Vernadsky,Ancient Russia p283

٢٤- ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص١٤٥.

٢٥- البدء والتاريخ ج٤ ص٦٦.
٢٦- مسالك الممالك ص١٠.
٢٧- نفس المصدر ص٢٢٧.
٢٨- الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٥٥.
٢٩- نفس المصدر ص٢٢٦.
٣٠- نفس المصدر، ص٢٢١.
٣١- نفس المصدر ص٢٢٧.
32- R.frye Muslim world,1951 p
٣٢- القراطق سراويل معروفة عند الشماليين وتسمى Kyrtilht
٣٣- الاصطخري ، ص١٣٠.
٣٤- صورة الأرض ص٢٩٧.
٣٥- نفس المصدر ص٣٨٦.
٣٦- نفس المصدر ص٢٩٧.
A .Gerkov- kiev Rus p.597 -37
٣٨- صورة الأرض، ص٣٩٢.
٣٩- نفس المصدر، ص٣٩٧.
٤٠- نفس المصدر، ص٣٨٦.
٤١- رحلة ابن فضلان ، طبعة طوغان، ص٢٦.
٤٢- نفس المصدر، ص٣١.
43-R. Frye opt.cit p3243
44- R. Frye opt.cit p32
٤٥- رحلة ابن فضلان، طبعة الدهان، ص١٤٩.
٤٦- نفس المصدر ، ص١٥١ ، ص١٥٢، ص١٥٦.
٤٧- نفس المصدر، ص١٥١، ص١٥٣، ص١٥٤.
٤٨- نفس المصدر، ص١٥٤، ص١٥٥.
٤٩- نفس المصدر، ص١٥٥.
٥٠- نفس المصدر، ص١٥٦.
٥١- تجارب الأمم ج٢ ص٦٧.
٥٢- الرحلة (ط. الدهان) ص١٦٥ وكذا ط. طوغان ص٤٢.
٥٣- المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤١.
٥٤- المسعودي، مروج الذهب، ج٢ ص٢٤.
٥٥- المسعودي، مروج الذهب، ج٢ ص٢٤.
٥٦- البيروني، صفة المعمورة ص٨٣ -٨٤
٥٧- التنبيه والإشراف ص١٤١.
٥٨- مروج الذهب ج٢ ص١٥، ١٨ والتنبيه والإشراف ص١٤١.
٥٩- المروج ، ج٢،
٦٠- التنبيه، ص١٤٠-١٤١.
٦١- المروج ج٢ص١٨.
٦٢- المروج، ج٢، ص٩، ص١١، ص١٢.
٦٣- المروج، ج٢، ص١٧
٦٤- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ج١ ص٢٧٩-٢٩٤.
٦٥- معجم البلدان ج٢ ص٨٣٤.
٦٦- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠، ص٦١٢، ٦١٧.
٦٧- ابن سعيد المغربي، ص١٣٦.
٦٨- الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٦١.
٦٩- المسعودي، ج١، ص٢٧٣.
٧٠- الدمشقي، ص٢٦١-٢٦٢.
٧١-الكامل، ج٩، ص٣١.
٧٢- تقويم البلدان، ص٢٠١.
٧٣- جريدة العجائب ص٢٢.
٧٤- نفس المصدر ص٨١.
٧٥- نفس المصدر، ص٨١.

المصادر والمراجع

١- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، باريس، ١٨٤٠.
٢- الاصطخري، مسالك الممالك باعتناء محمد عبدا لعال الحيني، القاهرة، ١٩٦١.
٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الطباعة، القاهرة، ١٢٩٠هـ.
٤- ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن ١٩٢٩.
٥- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩.
٦- ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩٧.
٧- ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض تطوان١٩٥٨.
٨- ابن فضلان، رسالة ابن فضلان باعتناء سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٦٠.
٩- ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن،١٨٨٥.
١٠- ابن النديم، الفهرست، ليبزج، ١٨٧١.
١١- ابن الوردي ابو الحفص عمر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، المكتبة التجارية، القاهرة بلا.
١٢- الدمشقي، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ١٨٦٦.
١٣- القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت،١٩٦٠.
١٤- ابو الفداء، تقويم البلدان، ١٨٤٠.
١٥- المسعودي، مروج الذهب، باريس،١٨٧٧.
١٦- المسعودي، التنبيه والأشراف، ليدن، ١٨٩١.
١٧- مسكويه، تجارب الامم، القاهرة، ١٩٢١.
١٨- المقدسي، شمس الدين ابي عبدالله، احسن التقاسيم، ليدن ١٨٨٥.
١٩- المقدسي، البدء والتاريخ، باريس، ١٩١٩.
٢٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ليبزك، ١٨٧٠.
كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ج١، ١٩٦٣،ج٢، ١٩٦٥.
21. R.Frye,ibnfadlan, muslim World, Gan 195
22. Florinsky, m.t., Russia, ahistory and an gnteretion, New York 1953.
23. H.paszkiewicz, the making of the Russion Nation (London 1963).
24. Vernadsky, Ancient Russia New Haven 1945.
25. Vernadsky, origins of Russia, oxford 1959.
26. V. Minorsk, Hudud al Alam, G.M.S.N.SV1 London 1937.

النبطي الفصيح



■ سالم الزمر
salzomr@hotmail.com

هذه الصفحات تقف على الشعر النبطي ثم تغوص في أعماقه لالتقاط كلمات يظنها البعض عامية غير عربية لكثرة ما وجدوها في الشعر النبطي غير الفصيح أو لبعدهم وبعدنا عن الفصاحة وأساليبها وألفاظها، أو لأن بعض تلك الألفاظ مع فصاحتها ما عادت مستخدمة في الفصحى لكنها بقيت مما بقي من الفصاحة في لغتنا اليومية وأشعارنا غير الفصيحة.

ونحن هنا نقتفي آثار تلك الألفاظ في الشعر النبطي ونردها إلى أصلها الفصيح ولنا من ذلك فوائد عدة:

الأولى قراءة الكثير من الشعر النبطي ومعاودة مطالعته.

والثانية الغوص في قواميس العربية للبحث عن أصول تلك الألفاظ المتناثرة في الشعر النبطي.

والثالثة مطالعة الشعر العربي للبحث عن تلك الألفاظ في أدبنا العربي.

والرابعة إثبات أن العامية والشعر النبطي عربي لا ينفك عن أصله العربي.

والخامسة إعادة الفرع إلى أصله برد الألفاظ النبطية إلى أصلها العربي.

والسادسة تحقيق أمنية بعودتنا إلى لغتنا الفصحى وأدبنا العربي عن طريق البحث في الشعر النبطي عن الفصحى من ألفاظه.

والسابعة العمل على دراسة شعرنا النبطي دراسة لغوية مفيدة.

والثامنة ربط الأجيال القادمة بتراثنا الشعري النبطي بطريق بحث أدبي يحمل الطرافة والجهد العلمي معاً لإيصال ذلك التراث إلى الأجيال القادمة بجهد موثق موثوق به.

وأخيراً أقول لو شئنا أن نعدد الفوائد من ذلك لما انتهينا، لكنني أقف هنا للبحث وراء النبطي الفصيح في شعرنا النبطي.

اخرص

قال الشيخ صقر بن خالد القاسمي

البارحة بَايتْ أخَرْص اليوابي
قلبٍ مْعَوّدْ بالوفا في عِشِيْره

يوم الخِلِيْ في سَكْرتِهْ ما درابي
أنا عيوني شاخِصاتٍ سِهِيره

تِرعَى الكواكب مِشْفِجِهْ بالحسابي
لين زُلفَتْ صوبْ المَغَارِبْ مْغِيْره

جَنّي مصوّبْ في الحَشا بالحَرَابي
والقلب يِقلاني بُواهي زِفيره

فلا كلّ من قال الشعر في صوابي
ولا كل مفتوحْ البصرْ له بصِيره

وقوله في البيت الأول بايت اخرص أي بت البارحة أخمن معنى الكلام فقوله اليواب أي الكلام لأن أهل الامارات يسمي كلام الانسان جواباً وإن لم يكن رداً

على سؤال فهو -أي الشاعر- بات ليل البارحة يقلب الأمر ومعنى الكلام ويحزر معناه بالظن لا باليقين والخرص كلمة فصيحة، فلقد جاء في اللسان (وأصل الخَرْص التَّظَني فيما لا تَسْتَيْقِنُه، ومنه خَرْصُ النخل والكَرْم إذا حَزَرْت التمر لأَن الحَزْرَ إنما هو تقديرٌ بظَنٍّ لا إِحاطة، والاسم الخِرْص، بالكسر، ثم قيل للكَذِب خَرْصٌ لما يدخله من الظُّنون الكاذبة. غيره: الخَرْصُ حَزْرُ ما على النخل من الرُّطَبِ تمراً. وقد خَرَصْتُ النخلَ والكرْمَ أَخْرُصُه خَرْصاً إذا حَزَرَ ما عليها من الرُّطب تمراً، ومن العنَب زبيباً، وهو من الظنّ لأَن الحَزْرَ إنما هو تقديرٌ بظَنٍّ. وخَرَصَ العددَ يَخْرُصُه ويَخْرِصُه خَرْصاً وخِرْصاً: حزَرَه.

*****

لجلج

قال سالم الجمري

لجلج الجمري على فنه وغنا
مولع ويشطبه عالي الغصون
من غرامه بلولع قلبه معنا
ما غطا بالنوم والقلب محزوني
والخلي مرتاح في نومه تهنا
والانا أنا بالنوم ما غطة عيوني
مستهين ودمعتي فرد وثنّا
فوق خدي مثل ما نف المزوني

قال الشاعر لجلج الجمري على فنه يريد أنه ارتفع صوت الجمري وتغريده على غصن الشجرة، والجمري هو القمري في الفصيح وهو طائر معروف.

وكلمة لجلج لها ذات المعنى الفصيح الذي أراده الشاعر، فلقد جاء في اللسان (ولَجَّةُ القوم: أَصواتهم. واللَّجةُ واللَّجْلَجَةُ: اختِلاطُ الأَصواتِ. والتجَّت الأَصوات: ارتفعت فاختلطت. وفي حديث عِكْرِمةَ: سمعت لهم لَجّةَ بآمِينَ، يعني أصوات المصلِّين. واللَّجَّةُ: الجلبَةُ. وأَلَجَّ القومُ إذا صاحوا.

*****

العدب

قال سعيد بن عتيج الهاملي

كوسٍ مهبّه بدّي
غبّا وطا ورمال
من كل عذب أو ندّي
شل إربعٍ يقّال
وأصبح هواه ىإمردّي
عنده شراحة بال

وانـــا اجســـدي مـــغـــتـــدّي
حـــانـــي شـــرى لـــهـــلال
عـــن وصـــلـــهـــم لا بـــدّي
فـــي ســـعـــود مـــن الـــلـــيـــال
عـــلـــى ابـــكـــراتٍ ضـــدّي
ومـــن الـــريـــح ذبّـــال
نـــيـــط الـــغـــوارب مـــدّي
حـــولٍ مـــهـــب هـــزال
كـــم أو ردن مـــن عـــدّي
فـــيـــه الـــرمـــل مـــهـــتـــال
مـــأخـــد شـــهـــر ومـــعـــدّي
قـــفـــرٍ مـــن الـــحـــوّال
والـــعـــنـــكـــبـــوت مســـدّي
بـــيـــن الـــيـــبـــا والـــيـــال

في البيتين الأوليين يعني الهاملي أن الكوس، وهو ريح تهب وقد هبت، وبدت أي شملت وغطت بالرمال، كل عدب أي ماكان قريباً من الأرض من الكثبان، وكل ند أي ماكان مرتفعاً من الكثبان، أعدب تعني في الفصحى ذات معنى الهاملي، حيث جاء في اللسان العَدَابُ من الرَّمْل كالأَوْعَس، وقيل: هو المُسْتَدِقُّ منه، حيث يَذْهبُ مُعظَمُه، ويَبْقَى شيء من لَيْنِه قبل أن يَنْقَطِعَ؛ وقيل: هو جانِبُ الرَّمْلِ الذي يَرِقُّ من أَسْفَل الرملة، ويَلي الجَدَدَ من الأَرض؛ قال ابن أحمر:

كثْوِر العَدَاب الفَرْدِ يَضْرِبُه النَّدَى، تَعَلَّى النَّدَى، في مَتْنِه، وتَحَدَّرا

*****

اليبا

ومعنى قوله في البيت الأخير أن العنكبوت مسدي أي ناسج بيوته بين الجبا أي الابار، ومفردها جب، وتسمى *يابية*، وبين *اليال أي الجال* وهو ماحول الآبار.

وقوله اليبا فصيحة أصلها الجب، فلقد جاء في اللسان (والجُبُّ: البِئرُ، مذكر. وقيل: هي البِئْر لم تُطْوَ. وقيل: هي الجَيِّدَةُ الموضع من الكَلإِ. وقيل: هي البِئر الكثيرة الماء البَعيدةُ القَعْرِ. قال:

فَـصَـبَّـحَـتْ، بَـيْـنَ الـمـلا وثَـبْـرَهْ،
جُـبّـاً، تَـرَى جِـمَـامَـه مُـخْـضَـرَّهْ،
فَـبَـرَدَتْ مـنـه لُـهـابُ الـحَـرَّهْ

وقيل: لا تكون جُبّاً حتى تكون ممّا وُجِدَ لا مِمَّا حفَرَه الناسُ. والجمع: أَجْبابٌ وجِبابٌ وجِبَبَةٌ، وفي بعض الحديث: جُبُّ طَلْعَةٍ مَكانَ جُفِّ طَلْعَةٍ، وهو أَنّ دَفِينَ سِحْرِ النبيِّ، صلى اللّه عليه وسلم، جُعِلَ في جُبِّ طَلْعَةٍ، *أَي في داخِلها، وهما معاً وِعاءُ طَلْعِ* النخل.

قال أَبو عبيد: جُبٍّ طَلْعةٍ ليس بمَعْرُوفٍ إِنما المَعْرُوفُ جُفُّ طَلْعةٍ، قال شمر: أَراد داخِلَها إِذا أُخْرِجَ منها الكُفُرَّى، كما يقال لداخل الرَّكِيَّة من أَسْفَلِها إِلى أَعْلاها جُبٌّ.

يقال إِنها لوَاسِعةُ الجُبِّ، مَطْويَّةً كانت أَو غير مَطْوِيَّةٍ. وسُمِّيَت البِئْر جُبّاً لأَنها قُطِعَتْ قَطْعاً، ولم يُحْدَثْ فيها غَيْر القَطْعِ من طَيٍّ وما أَشْبَهه. وقال الليث: الجُبّ البئر غيرُ البَعيدة. الفرَّاءُ: بِئْرٌ مُجَبَّبةُ الجَوْفِ إِذا كان وَسَطُها أَوْسَعَ شيء منها مُقَبَّبَةً. وقالت الكلابية: الجُبُّ القَلِيب الواسِعَةُ

*****

اليال

وقول الهاملي اليال في البيت الذي ذكرنا يعني الجال بعد قلب الجيم ياء وهو محيط البئر وماحوله وهي فصيحة لها ذات المعنى فلقد جاء في اللسان.

(والجُول والجالُ والجِيلُ؛ الأخيرة عن كراع: ناحيةُ البئرِ والقبرِ والبحر وجانبُها. والجُول، بالضم: جدار البئر؛ قال أبو عبيد: وهو كل ناحية من نواحي البئر إلى أعلاها من أسفلها؛ وأنشد:

رَمَانـي بـأَمـرٍ كـنـتُ مـنـه وَوَالِـدِي بَرِيّاً
ومِـن جُـولِ الـطَّـوِيِّ رَمـانـي

قال ابن بري: البيت لابن أحمر؛ وقيل هو للأزرق بن طرفة بن العَمَرَّد الفَراصِيّ، أي رماني بأمر عاد عليه قبحه لأن الذي يَرْمِي من جُول البئر يعود ما رَمَى به عليه، ويروى: ومن أَجْل الطَّوِيّ، قال: وهو الصحيح لأن الشاعر كان بينه وبين خصمه حُكُومة في بئر فقال خصمه: إنه لِصٌّ ابن لِصٍّ، فقال هذه القصيدة؛ وبعد البيت:

دَعَـانِـيَ لِـصّـاً فـي لُـصُـوص، ومـا دَعـا
بـهـا وَالِـدِي، فـيـمـا مَـضَـى، رَجُـلان
رُدَّتْ مَـعَـاوِلُـه خُـثْـمـاً مُـفَـلَّـلَـةً
وصـادَفَـتْ أَخْـضَـرَ الـجـالَـيـنِ صَـلَّالا

وقيل: جُولُ القبر ما حَوْله؛ وبه فسر قول أبي ذؤَيب:

حَدَرْناه بالأَثواب في قَـعْـرِ هُـوَّة، شَدِيدٍ
عـلـى ما ضُـمَّ فـي الـلَّـحْـدِ، جُولُها

*****

توه

قال ماجد بن علي النعيمي

رد لــه مســعــودتــوّه
قــال لــي تــبــغــيــه ســوه
انــتــه لــو تــايــد امــروه
جــان بــا تــفــزع عــلــيــه

وقوله في الشطر الأول توه يعني في ساعته وحينه، وهي فصيحة الأصل، فلقد جاء في اللسان (مضت تَوَّةٌ من الليل والنهار أَي ساعة؛ قال مُلَيح:

فَـفـاضَـتْ دُمـوعـي تَـوَّةً ثـم لـم تَـفِـضْ
عَـلَـيَّ، وقـد كـادت لـهـا الـعـيـن تَـمْـرَحُ

وفي حديث الشعبي: فما مضت إِلاَّ تَوَّةٌ حتى قام الأَحنفُ من مجلسه أَي ساعة واحدة. والتَّوَّة: الساعة من الزمان. ■

ابن خفاجة الأندلسي



ألوان من الحنين

هذه القصيدة المختارة من أجمل الشعر الوجداني في الشعر الأندلسي، ومن عيون قصائد ابن خفاجة، وهي نص وجداني يمثل ارتباط الشاعر بالأرض والوطن، مقروناً بالحياة الشخصية التي تستأنس بتلك الديار وتغرق في ظروفها وأحوالها، وتأسى لفراقها الأسى الذي لا تترجمه إلا الدموع الغزيرة.

وابن خفاجة صاحب النص: هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح الهواري الأندلسي (٤٥١-٥٣٣هـ) من أهل مدينة شقر الرائعة الحسن، ذات الجمال الطبيعي الأخاذ، القائمة عند نهر شقر، القريبة من بلنسية.

وهو شاعر ذواقة، مرهف الإحساس، رقيق العاطفة، من أبرز معالم شخصيته تعلقه ببلدته هذه، ونزوعه إليها وارتباطه بكل شيء فيها. وكان يطلق شعره الصدّاح في حب شقر، وفي وصف معالمها، وهو مقيم فيها، وهو مغترب عنها. وقد اشتد وجده بها حين سقطت المنطقة في يد العدو مدة من الزمن، حتى عادت إلى أهلها بمعونة دولة المرابطين فشكر لهم، واستقرت نفسه بالعودة إلى بلدته التي امتزج حبها بروحه (مع أنه لم يكن يتكسب بالمدائح، وكان يكتفي بدخل محدودٍ من قطعة أرض يستثمرها).

وقد كتبت في دراسة عن ابن خفاجة (ص٦٤ وما بعدها) أن الشاعر كان مشغولاً بدائرتين متشابكتين: دائرة المكان وإطارها شقر والأندلس ودائرة الزمان ويدور إطارها حول أيام الصبا وأيام الشباب. ومن هنا اشتبك هذان العنصران وانضم إليهما ما كان من تلك الأيام من ذكريات الأحباب والأصحاب. ويلمس القارئ لهفة حرّى من الشاعر في هذا الملمح «ورثه عنه» عدد من تلامذته وأتباع مذهبه الفني: المذهب الخفاجي.

فجو القصيدة يجمع بين حب الوطن (الصغير) وحنينه إليه مختلطاً بالحنين إلى الشبيبة، وصبوات الصبا، في عاطفة مشبوبة حزينة مفعمة بخلجاتٍ إنسانية، ويبرز من خلال ذلك ولوع الشاعر بالطبيعة وميله إلى وصفها أثناء سرد مشاعره وشرح خواطره. وترتفع نغمة التشوق إلى الوطن -وإن كان فيه- والتحبب إلى الماضي، والارتباط بالذكريات، وتشتد حتى تستدر من عين الشاعر دمعة حزن - على كل ما ماضى - ودمعة حنين. فعين الشاعر تبكي على كل ما فات، وقلبه يتمنى لو يستطيع أن يفتدي ذلك فيعود

ما لعيني تبكي عليها وقلبي
يتمنّى سوادُه لو فَداها؟

وقد استرسل الشاعر من ذكر ضياع الشباب، وذهاب أيام الصبا إلى الخوف من ذهاب العمر كله، وخرج من الأسى على مغادرة الأماكن المعهودة، وضياع أيام الشباب إلى الأسى على الحياة، وهي تذوب وتذبل:

فتعالي يا عينُ نَبْكِ عليها
من حياةٍ إن كان يغني بكاها

والقصيدة -وإن كانت في الحنين والذكريات في شقر وما حولها- داخلة في موضوع الطبيعة الذي أكثر منه ابن خفاجة، وجعله مبثوثاً في معظم قصائد ديوانه.

مدمع المزن (١)

قال ابن خفاجة «يتشوق إلى معاهده بجزيرة شقر ويندب ماضي زمانه»

بين شقر[٣] وملتقى نهريها[٤] ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها[٥]

ويغني المكاء[٦] في شاطئيها ... يستخف النهى فحلت حباها[٧]

عيشة أقبلت يشهى جناها ... وارف ظلها لذيذ كراها

لعبت بالعقول إلا قليلاً ... بين تأويبها وبين سراها[٨]

فانثنينا مع الغصون غصوناً ... مرحاً في بطاحها وربَاها[٩]

ثم ولت.. كأنها لم تكد تلـ ... ـبث إلا عشية أو ضحاها[١٠]

فاندب المرج فالكنيسة فالشط ... وقل: آه يا معيد هواها[١١]

آه من غربة ترقرق بثاً ... آه من رحلة تطول نواها[١٢]

آه من فرقة لغير تلاق ... آه من دار لا يجيب صداها

لست أدري ومدمع المزن رطب ... أبكاها صبابة أم سقاها؟[١٣]

فتعاليْ يا عين نبك عليها ... من حياة إن كان يغني بكاها

وشباب قد فات إلا تناسيـ ... ـه ونفس لم يبق إلا شجاها[١٤]

ما لعيني تبكي عليها وقلبي ... يتمنى سواده لو فداها؟[١٥]

*****

(١) القصيدة في ديوان ابن خفاجة: ٣٤٢ نقلاً عن الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (مادة شقر) ويغلب على الظن أن القصيدة مما نظمه الشاعر بعد تصنيف ديوانه فإنه قد رتبه بنفسه، وكتب له مقدّمته (ينظر الديوان بتحقيق د. سيد مصطفى غازي - منشأة المعارف - الاسكندرية ١٩٦١ -ط١)

- المزن جمع (مُزنة) السّحاب الممطر (وانظر شرح البيت العاشر)

(٢) معاهد جمع معهد وهو المنزل (الموقع، المكان) الذي يعود إليه الإنسان كلما ابتعد عنه (في معنى الموطن).

(٣) شقر هي اليومْ فكِّ مدينة صغيرة في حضن الطبيعة، كانت وطن ابن خفاجة الذي ارتبط به، تقع بين شاطبة وبلنسية، من أكثر بلدان الأندلس شجراً وخضرة وثمراً وجمالاً.

(٤) قوله ملتقى نهريها: يعني فرعي نهر شقر؛ فإنه ينقسم عند المدينة قسمين يلتقيان بعدها، قال في الروض المعطار المدخل إليها في الشتاء على المراكب وفي الصيف على مخاضة». قلت: وقد زرت المنطقة سنة ١٩٧٦م في آخر تموز وكان نهر شقر يملأ وادي النهر عن آخره فما بالك بمائه في سائر أوقات السنة؟

(٥) الأصل في معنى: ألقى عصاه أثبت أوتاده وخيّم (نصب الخيمة) يقول: هنا محَط أماني كلها.

(٦) المكاء: طائر من فصيلة القبريات، له تصعيد وهبوط في الجو، من الطيور المقيمة هناك سمي المكاء لأنه يمكو ويصفر.

(٧) يقال: احتبى إذا ضم ساقيه وهو جالس وطوقهما بيديه أو بثوب. وحل الحبوة كناية عن الاستقرار وإدامة الإقامة.

(٨) التأويب: سير النهار، والسرى: سير الليل.

(٩) البطاح: جمع الأبطح، والبطحاء: المكان المتسع (يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغيرة) والرّبا جمع الربوة؛ وهي الرابية أيضا: ما ارتفع من الأرض، يريد الشاعر الكلام عن بلدته في مناطقها المختلفة.

(١٠) في البيت اقتباس قرآني

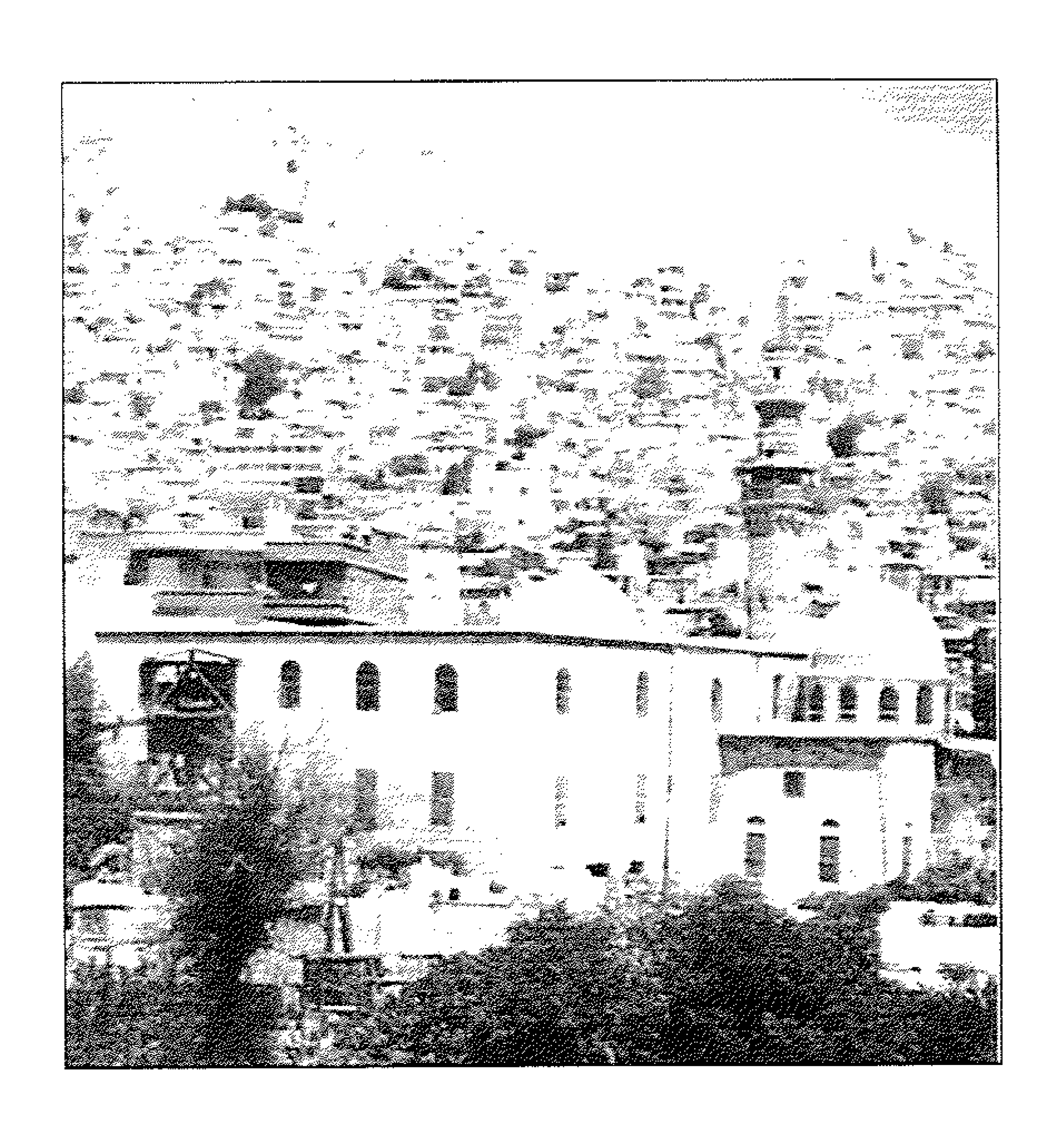
(١١) المرج، والكنسية، والشط، أسماء مواضع كانت في جزيرة شُقر.

(١٢) البث: أشد الحزن الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه. وترقرق: أصله بتاءين: تترقرق، ومعنى ترقرق الماء وغيره: تحرك واضطرب، وترقرقت عينه: دمعت وفي الكلام مجاز.

(١٣) جعل الدموع غزيرة (فهي تستمد من السحاب الممطر). والصبابة: الشوق أو حرارة الشوق.

(١٤) الشجا: أصله: ما اعترض ونشب في الحلق من عظم ونحوه. والكلام مجازي يريد بالشجا: الهم والحزن وما شابه.

(١٥) سواد القلب: حبة القلب، أو دمه.



الصالحية

مدينة المدارس والقباب

في البلاد العربية مواضع ومواقع ومدن سميت باسم الصالحية. وهي وإن اتفقت في الاسم فمصدر تسميتها أو سببه مختلف بين موقع وآخر، ويقع اسم الصالحية على عدد من الأحياء في أكثر من مدينة عربية من المدن الكبرى. وأكثر هذه المواقع والمدن يرتبط بالنسبة إلى رجل اسمه صالح، أو يرد في سلسلة نسبه اسم صالح: عُرِف هذا الرجل أو كان من غمار الناس لكن اسمه شاع من بستان كان يملكه أو شارع اشتهر به إلى غير ذلك من الأسباب.

(١)

في القديم ذكر ياقوت في معجمه أكثر من موضع باسم (الصالحية)، وفيه:

- الصالحية: قرية قرب الرُّها (نصيبين) اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمي.
- وبنى المهدي العباسي قصور الصالحية التي ذكرها الشعراء مثل منصور النميري:

قصور الصالحيّة كالعذارى
تقنّعها الرياض بكل روضٍ

لبسن حليّهنّ ليوم عُرْس
وتُضحكها مطالع كل شمسِ

والصالحية موضع كان معروفاً قرب حلب، وفيها قال الصنوبري:

إني طربت إلى زيتون بطياس
بالصالحيّة ذات الورد والآسِ

والصالحية محلة كانت مشهورة في بغداد تنسب إلى صالح بن المنصور المعروف بالمسكين.

قال ياقوت: والصالحية قرية كبيرة ذات أسواق

وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق.

(٢)

و«الصالحية» التي ذكرها ياقوت هي اليوم حي -بل أحياء متواصلة- من أحياء مدينة دمشق. لكنها حين أنشئت في القرن السادس الهجري كانت بلدة إلى جانب مدينة دمشق، ومع مرور الزمن اتصلت المباني، واتحدت مع المدينة الكبيرة، حاضرة الأمويين العريقة.

وقد ألفت كتب في تاريخ «الصالحية» منذ بدء البناء في موقعها منها تاريخ الصالحية، وتلخيصه: المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية لابن كنان، ومنها: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون الدمشقي.

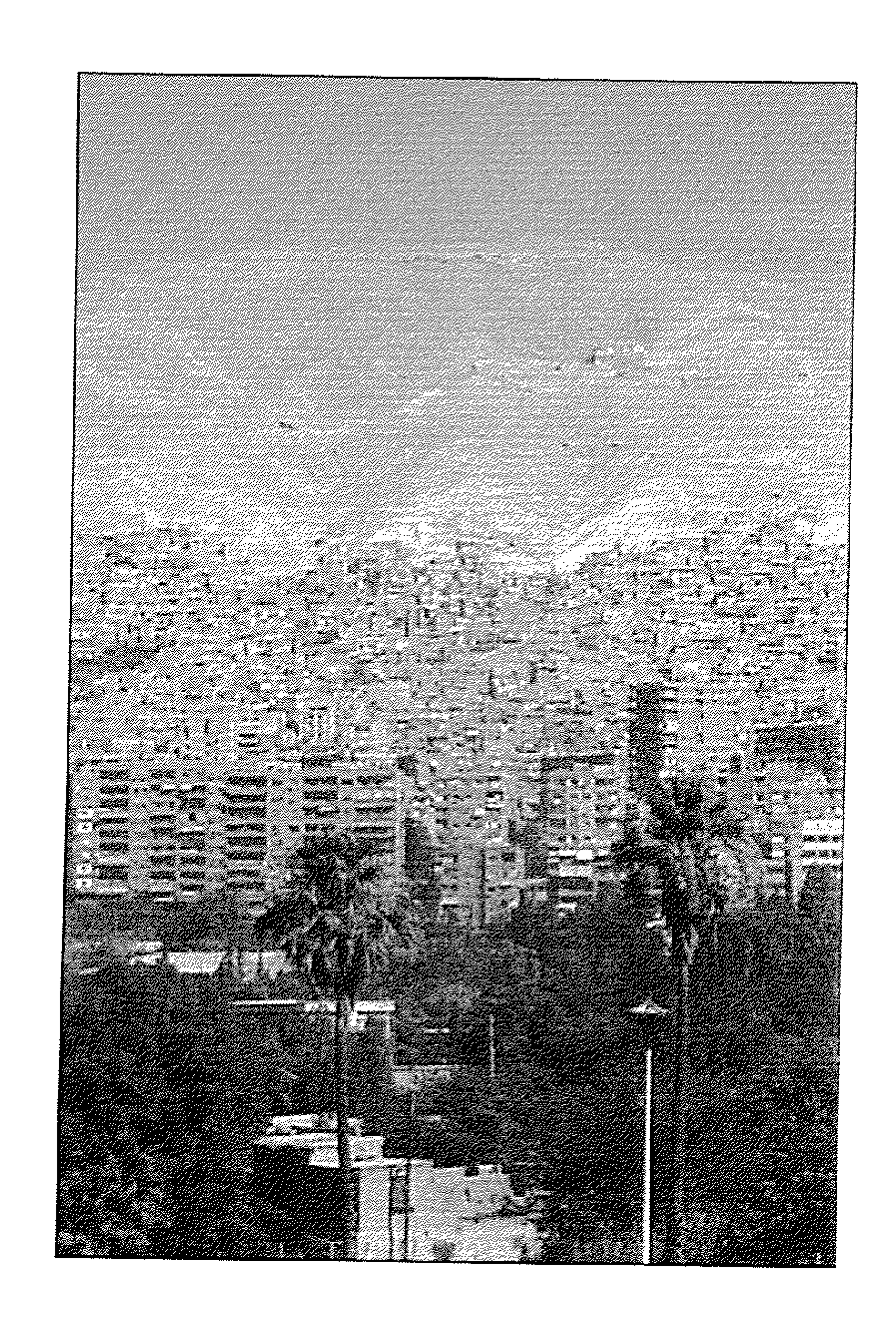
وكان تأسيس بلدة الصالحية حدثاً مهماً من النواحي الديموغرافية (السكانية) والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، يقول محقق كتاب القلائد الجوهرية في مقدمة الكتاب: كان تأسيس الصالحية على مقربة من دمشق حادثاً خطيراً في تاريخ دمشق العمراني والاجتماعي والعلمي، فقد ساعدت على انفراج الضيق عن مدينة دمشق، وأحدثت منطقة صحية جميلة زادت في دعم كيان دمشق، وأنشئ فيها من معاهد العلم والمصانع (المباني والمؤسسات) الجميلة ما يحقق لها أن تدعى مدينة المدارس والقباب، وإن انتشار البنيان العظيم في عصرنا هذا (القرن الماضي) وقيام القصور الفخمة في سفوح جبل قاسيون يرجع الفضل فيه إلى التأسيس الأول.

(٣)

وتقوم الصالحية على سفوح جبل قاسيون وامتدادها، وعرفت المنطقة بهذا الاسم: الصالحية أو جبل الصالحية منذ سنة ٤٥٤هـ بسبب نزول بني قدامة المقادسة (من أهل القدس) هناك، وعمرت عمراناً عظيماً بنزولهم.

وأسهم في عمران الصالحية أن فرعين من فروع بردى (هما نهر يزيد ونهر ثورى) يمران من سفوح قاسيون ويفيضان الحياة في تلك الربوع ويملآنها خضرة ونضرة وحيوية.

وقد نقل المؤرخون ما رواه أبو عمر المقدسي عن نزول قومه بالشام وسكناهم الصالحية، فقال إن أحمد بن قدامة المقدسي خرج من سطوة الفرنج الذين كانوا

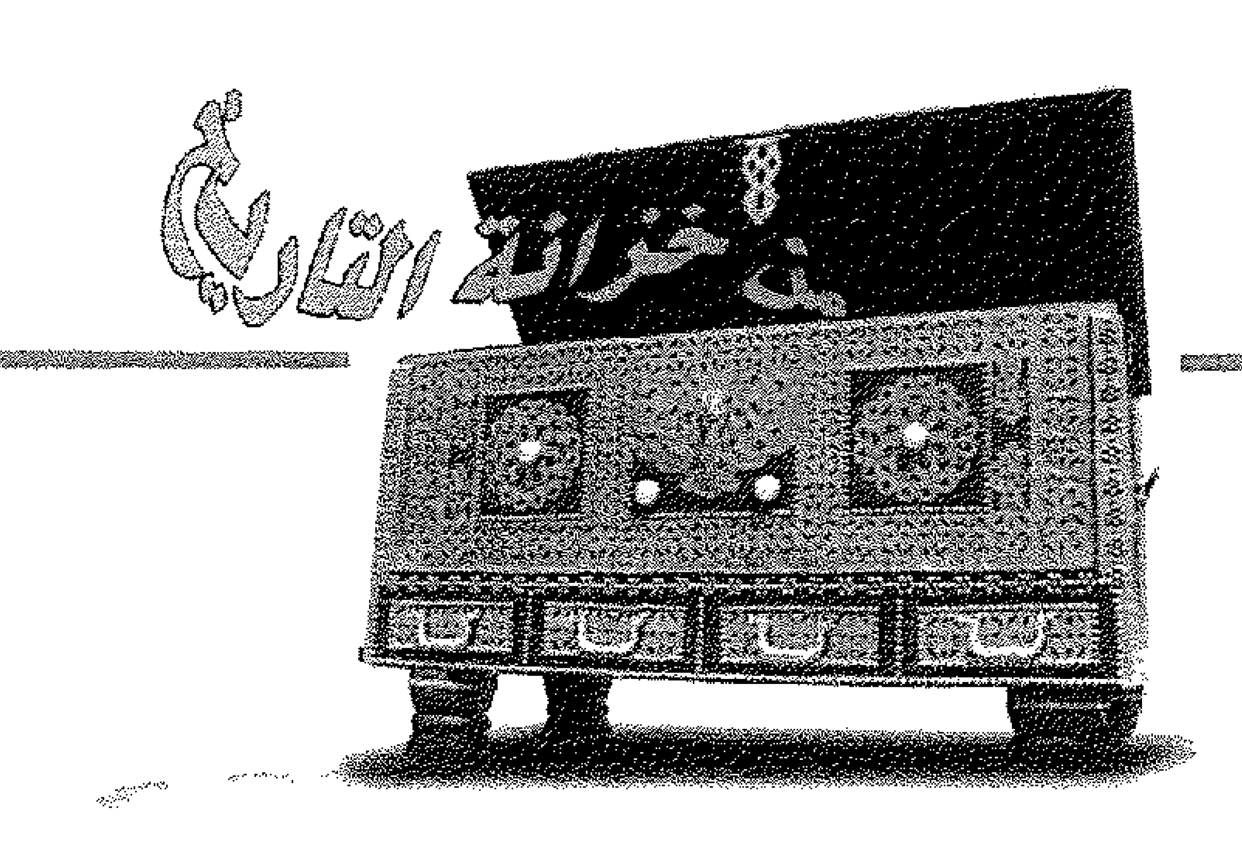


يستولون على مناطق كثيرة في الشام منها القدس، وارتحل إلى دمشق ثم استدعى أفراد أسرته، ونزل -مع من وفد إليه- في مسجد يعرف بمسجد أبي صالح، فلما كثر عددهم انتقلوا إلى سفح قاسيون، وبدأوا بالبناء. واشتهروا بالصالحية، وانطلقت الصالحية منذ ذلك الحين.

وقد قيل في تسمية المنطقة بالصالحية أسباب:

- إن الجبل معروف بجبل الصالحين. وقد حفّت بجبل قاسيون الأخبار والنقول القديمة، وربما دخلت الأساطير إليه أيضا.
- وقيل نسبة إلى الصالحين، لصلاح من كان ابتدأ وضعها.
- وقيل أن الذين وضعوها كانوا بمسجد أبي صالح فنسبت إليه.

وقد اشتهرت الصالحية بالعلم والعلماء والمدارس والمساجد وأنواع الزراعات والصنائع. وصارت جزءاً متمماً لدمشق، واشتهرت بكثرة الفقهاء وغزارة المؤلفات، وأسهم المقادسة في التأليف في المذهب الحنبلي إضافة إلى مؤلفات غزيرة في شتى العلوم والفنون. ■



القاضي الأمير الشهيد

كلُّ يوم يأتينا الدليلُ القاطع على أن الأعداء لا عهد لهم أبداً، إلا لمصلحة أو منفعة طمعاً، وإن كان في ذلك حتف أمتنا كاملة. وخير مصلحة هو إلحاق الأذى بها حتى يكون العداء لها سبباً في اجتماعهم علينا. على أن حِصْنَ الأمة وعزتها وسعادتها كلما كان إيواؤها إلى كتاب ربها والعمل بمنهجه والاعتصام بتعاليمه. فلا خوفَ عليها عند ذاك، لا من عدوٍ ولا من دخيل أو عميل. وهذا كله مشهود على الدوام، والتاريخ خير شاهد.

وتتفتق أو تتدفق على الأمة الويلاتُ والكوارث والنوازل حين تضعف في الأخذ بالمنهج، ولكن العلماء عليهم دوماً أكبر المسؤولية، وخلال التاريخ قاموا بها وأدَّوْا ما عليهم، ورعوها حق رعايتها، فعرفت الأُمَّة قَدْرَهم وكانوا لها أدلاء مخلصين، يقفون أمام الركب ويقودونه بالحق، اعتصاماً واحتساباً قائمين، بمثابة كهف أمين وموئل متين وملجأ حصين، وتاريخاً شاهداً ودليلاً. يبرز ذلك كلُّه بوضوح في عصر الطوائف في الأندلس، في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، حيث التمزق، والتشتت والتهتك، يوم مَالَ البعض عن الخط الخلقي الواضح الكريم[١]، استهانةً بالمهمة الملقاة عليهم.

كل ذلك تَشْهَدُهُ في هذه الحكاية ، ذلك أن مدينة بلنسية (Valencia) الأندلسية، نحو ٣٥٠ كيل شرقَ مدريد على البحر المتوسط، شَهدت على يد العدو المحارب (أيام الطوائف) ما قد لا يخطر على بال، على قدر ما فيها من الخير والخيرات والشهامات. كان ذلك رغم ما مضى لهم من المسلمين من التسامح والعفو والإنصاف.

وانظر ما قام به رُذْريق الفيفاري (Rodrigo Diaz Viviar) المعروف بالسِّيد الكَمْبيطور (El Cid Campeador, extremely Brave) أي الشجاع أو الباسل المغامر، الموصوف لدى مؤرخينا بالطاغية، الذي كوَّن جيشاً ينال به من مناطق ومدن أندلسية قتلاً ونهباً وهتكاً لا يرعوي عن جريمة مهما بلغت بشاعتُها ، وبروح عدوانية واضحة ، يؤيده عدد من القادة هناك.

ولما اضطربت الأحوال داخل مدينة بلنسية تولى أمر إدارتها والدفاع عنها قاضيها الفقيه أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جَحّاف، واستعد بما يلزم للدفاع عنها أمام هذا الغول الشرس، الذي قدم لدخول المدينة عَنْوة فحاصرها بإحكام وشدة، لمدة عشرين شهراً[٢] وعاث فيما حولها تخريباً وحرقاً، مانعاً عنها أقواتها وعاملاً على مقاتلة حُماتها وحرق مَن يخرج من المدينة ليلاً، كيلا تقوى على الوقوف والدفاع ضده، حتى بلغ بأهلها الجهد فأكلوا الحيوانات الميتة أحياناً.

وكان الفقيه مصراً على الدفاع عن المدينة ، منتظراً العون من مناطق أخرى كَتَبَ إليها، لكن أُناساً أجبروه على المفاوضة والتسليم (والصلح)، فتم لهم ذلك بشروط تأمين الناس والمسؤولين والقاضي على حياتهم وأهليهم وممتلكاتهم. فدخلها الطاغية بجنده جُمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ - أواسط ٦ / ١٠٩٤ م، وفي الحال احتل الأبراج وسكن القصر، خلافاً للمعاهدة الموقعة نفس اليوم، ومع ذلك جمع أشراف المدينة وتكلم عن سياسة العدل فيها وحمايتها! لكنهم مضوا يحتلون دُورها ومروجها. واستمر يَتَحيَّف عليهم ويتحيل حتى بلغ الأمر أن أحرق العديد من أعلامها وعلمائها، أولهم زعيمها القاضي ابن جَحّاف، مدعياً عليه ومتهماً إياه بقتل حاكمها السابق العميل وأخذ أمواله وحُليِّه، وهو وليه يطالب بدمه[٣] ! والقاضي هو الذي أبى الخضوع له.

وتم حرق القاضي في حفل ومشهد أمام الناس. وذلك بعد أن أمّنَه على نفسه وماله، فسجنه وأسرته وأذاقه العذاب الشديد وأعدمه حرقاً.

وروى بعضُ شهود العِيان ذلك، منهم المؤرخ البلنسي ابن علقمة (أبو عبد الله محمد بن خلف الصَّدَفي (بلنسية ٤٢٨ - ٥٠٩ هـ - ١٠٣٧ - ١١١٦ م)[٤] في كتابه «البيان الواضح في المُلِم الفادح» الذي شاهد تلك الحوادث، ودَوَّنها يوماً بيوم المشاهد المبكية الدامية[٥]، حيث أمر الطاغية بحرق القاضي الفقيه مع أهله وبنيه وأسرته كاملة، فضج كل الناس من ذلك حتى بعض أعوانه ومن أهل ملته (وربما حُذِّر منه)، فاكتفى بحرق القاضي الشهيد بأن حفر له حفرةً في ساحة (وَلْجَة) المدينة التي تُعرف اليوم في بلنسية برحبة القاضي RAHBA TOLCADI أمام كنيسة SANTACATLINA والتي أصلها مسجد رحبة القاضي[٦]، وأنزله فيها إلى حُجْزَته (وسطه)، محاطاً بالحطب وأشعله فيه، والقاضي الفقيه المجاهد يضم النار إليه بيديه ليكون أسرع لخروج روحه، وهو يقول: باسم الله الرحمن الرحيم، وقَبض على أقباسها وضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله، وذلك في جُمادى الأولى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥م). بعد سنة من معاهدة التسليم التي كانت منسلخ (آخر) جُمادى الأولى ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ / ٦ / ١٨ م[٧].

ثم أحرق هذا الطاغية أعلاماً آخرين منهم الشاعر الأديب الشهيد أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البَتِّي (البني) البلنسي[٨]. وهكذا أحرق العديد وهم يتصارخون أمام المحنة. كل ذلك لأنهم اجتهدوا للنصرة رجاء استمساك بلنسية وبقاء الكلمة فيها. ولقد اعتبره بعض الغربيين المنصفين رئيس عصابة مستخفاً بكل القيم الإنسانية حقوداً[٩] ■

المراجع

١- التاريخ الأندلسي٣٢٥.

٢- التاريخ الأندلسي لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، ١٠٣. نفح الطيب، ٤ / ٤٥٦. دول الطوائف عنان، ٢٤٣.

٣- الحلة السِّيَراء، ٢ / ١٣٠. دول الطوائف، ٢٤٢-٢٤٥.

٤- الحلة السيراء، ٢ / ١٦٨. دول الطوائف، ٢٥١ الأعلام، الزركلي ٦ / ١١٥.

٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٦١. الحلة، ٢ / ١٦٨.

٦- الحلة السيراء، ٢ / ١٢٦.

٧- الحلة، نفسه. كذلك: الذخيرة، ٣ / ٦٠.

٨- الحلة، ٢ / ١٢٧، نفح الطيب، ٤ / ٢١، ٤٥٦.

٩- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ٢٧٨. العرب في اسبانيا، لين بول، ١٦٤. التاريخ الأندلسي ٣٧٤.

صدى الأيام

الأوبرا

يرجع تاريخ بدء الأوبرا إلى سنة ١٥٩٧م، عندما حاول جماعة من الشعراء والموسيقيين إحياء تراث المسرحية اليونانية.

وكانوا يعتقدون أن الممثلين الإغريق ينغمون كلامهم أثناء التمثيل ولكن الأوبرا التي ابتكروها في الشعر والموسيقى بالتساوي تطورت تدريجاً لتصبح الأوبرات التي بسببها صار الغناء والموسيقى الشريكين الأساسيين.

وغناء القصة لدى الايطاليين والألمان طبيعة ثانية يتقبلونها كما يتقبل عشاق الشاعر الانجليزي شكسبير إلقاء التمثيلية بالشعر. ومن أهم المؤلفين الموسيقيين المشهورين موزارت وفيردي وفاغنر وبوتشيني وريتشارد شتراوس.

عظام

هل تصدق أن هناك ٢٠٦ عظمات في الجسم البشري، وعظمة الفخذ هي أطولها وتكون عادة ٢٧.٥ بالمائة من قامة الشخص، وقد تصل إلى ٥٠ سم لدى إنسان طوله ١٨٣سم، وأطول عظم فخذ سجّل كان للعملاق الألماني كونستانتين الذي توفي في مونس (بلجيكا) في ٣٠ مارس ١٩٠٢م وعمره ٣٠ سنة، فقد كان طول العظمة ٧٦ سم، أما أطول عظم إنسان فهو عظمة فخذ روبرت وادلو فقد قدرت بـ ٧٥سم.

فرديناند ماجلان

بحار برتغالي مات سنة ١٥٢١م، خدم ملك البرتغال بوصفه بحاراً لعدة سنوات، وفي سنة ١٥١٧م أراد أن يبحر في رحلة حول العالم فلم يسانده ملك البرتغال، فلجأ إلى ملك إسبانيا الذي أعطاه المال، فأبحر سنة ١٥١٧م وبخمس سفن نحو الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، ونجحت ثلاث منها في عبور المضيق في أسفل القارة، وهو الذي يحمل اليوم اسم ماجلان.

بعدها أبحر شرق الأنديز التي لم يكن يعرفها، وبعد ثلاثة أشهر من الإبحار الرهيب حيث أعوزته المؤونة فأكل الطاقم نشارة الخشب والجلود، وصل إلى جزر الفلبين التي عرفت وقتها بجزر التوابل.

ومات ماجلان بعد عدة أيام من رسّوه في الفلبين، إذ قتله أعداء له من أهل المنطقة فتابع بحارته الرحلة وأعادوا سفنه إلى الوطن الأم عبر المحيط الهندي وجنوب إفريقيا فالمحيط الأطلسي إلى إسبانيا، وكانت هذه الرحلة الأولى حول العالم.

اسم على غير مسمى

يدعى الملك بطليموس الثاني الذي حكم مصر سنة ٢٨٠ إلى ٢٤٦ ق.م،

تاريخياً، باسم فيلادلفوس، ويعني ذلك «من يحب إخوانه»، الغريب أنه قتل اثنين من اخوانه!

وعُرف الملك بطليموس الرابع الذي حكم مصر من ٢٢١ إلى ٢٠٣ ق.م باسم «فيلوباتو» ويعني ذلك «من يحب أباه» والغريب أنه هو الآخر قتل أباه.

الدهر يومان

انتخب الجنود الرومان قائدهم الجنرال بوستوموس امبراطوراً على روما سنة ٢٥٧ ق.م لأنه سمح لهم بأن ينهبوا المدن المغولية التي يستولون عليها. ولكنه منعهم من نهب مدينة مايانتس الألمانية بعد ذلك بعشر سنين، فاغتاله أولئك الجنود أنفسهم الذين نصّبوه على عرش الامبراطورية.

أشهر من تنازل عن العرش

هل تصدق أن هناك العديد ممن تنازلوا عن عروشهم عبر التاريخ وهم:

- ديوقليتانوس، الامبراطور الروماني عام ٣٠٥م
- المستعين بالله، الخليفة العباسي، في عام ٨٦٥م.
- المطيع، الخليفة العباسي، في عام ٩٧٤م.
- بايزيد الثاني، السلطان العثماني، في عام ١٦٨٧م.
- شارل الخامس، ملك اسبانيا، في عام ١٥٥٥م.
- محمد الرابع، السلطان العثماني، في عام ١٦٨٧م
- مصطفى الثاني، السلطان العثماني، في عام ١٧٠٣م.
- أحمد الثالث، السلطان العثماني، في عام ١٧٣٠م.
- نابليون الأول في عامي ١٨١٤ و١٨١٥م.
- شارل العاشر، ملك فرنسا، في عام ١٨٣٠م.
- لويس فيليب، ملك فرنسا، في عام ١٨٤٨م.
- غليوم الأول، ملك هولندا، في عام ١٨٤٠م.
- شارل ألبير، ملك سردينيا، في عام ١٨٨٩.
- إيزابيلا الثانية، ملكة إسبانيا، في عام ١٨٧٠م.
- غليوم الثاني، امبراطور ألمانيا، في عام ١٩١٨م.
- فرديناند، ملك بلغاريا، في عام ١٩١٨م.
- قسطنطين، ملك اليونان، في عام ١٩٢٢م.
- ألفونس الثالث عشر، ملك انجلترا، في عام ١٩٣١م.
- إدوارد الثامن، ملك انجلترا، في عام ١٩٣٦م.
- فيكتور عمنوائيل الثالث، ملك إيطاليا، في عام ١٩٤٦م.
- ميشيل، ملك رومانيا، في عام ١٩٤٨م.
- ولهلمينا، ملكة هولندا، في عام ١٩٤٨م.
- فاروق الأول، ملك مصر، في عام ١٩٥٢م.

المراجع :

١- كاميليا سلوم عكاوي: كشكول المعارف والعلوم، دار الحرف العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠٠م.
٢- محمد العايدي: موسوعة بنك المعلومات «١-٢»، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.
٣- حمدو طماس: أهم الأحداث التاريخية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
٤- سمير شيخاني: التاريخ الصغير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
٥- خليل البدوي: صدق أو لا تصدق، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.

أسماء الأوعيـ

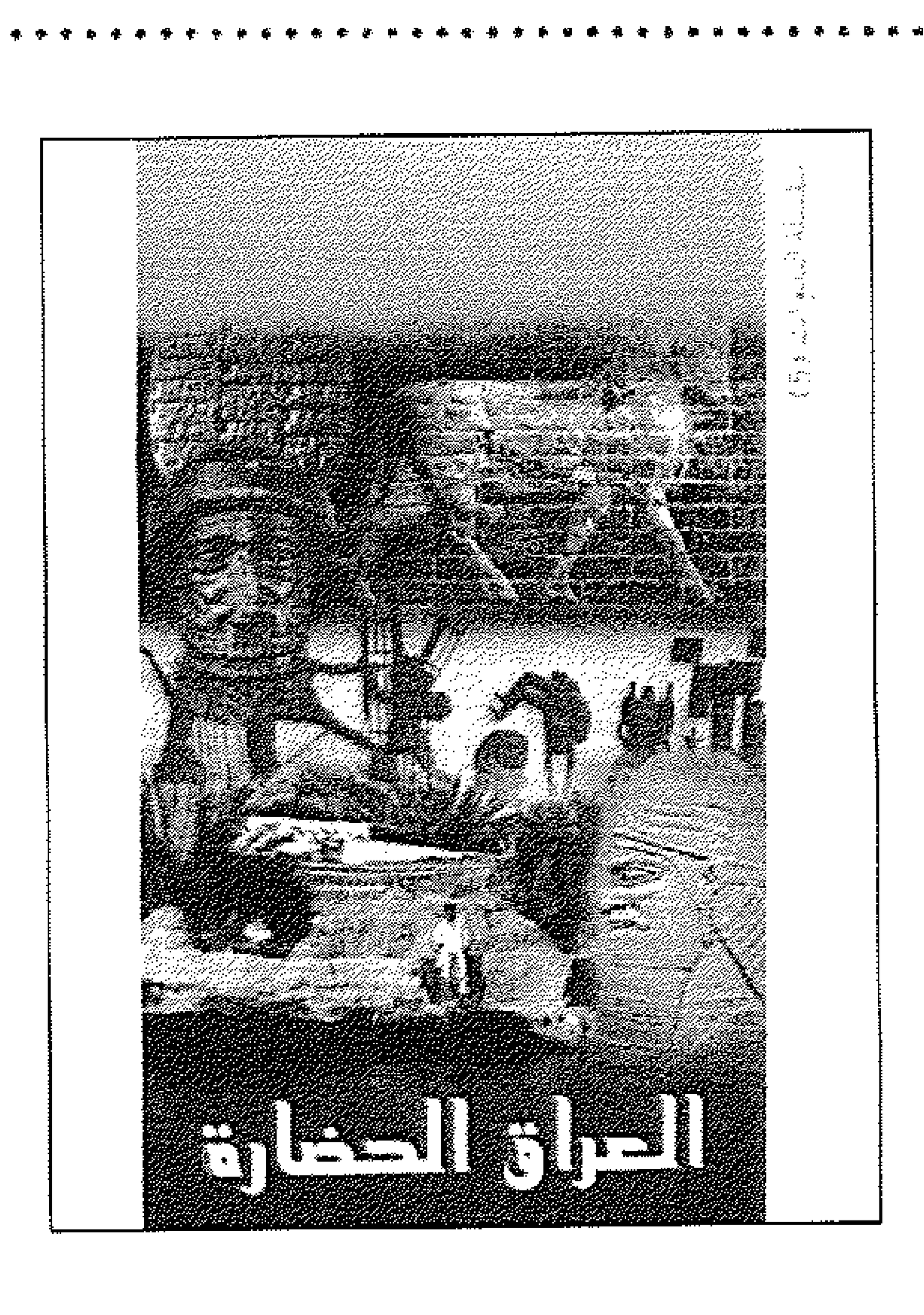
يدرس كتاب الدكتور محمّد عبدالرّحمن الثنيّان، الصادر ضمن سلسلة كتاب الدارة «الكتاب الثامن» في الرياض بالمملكة العربية السعودية أسماء الأوعية الجلديّة من خلال مُعْجَم لسان العرب: دراسة دلالية تأصيلية تهدف إلى جمع ما تشتت من الألفاظ الحضارية المُتعلقة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العربي الإسلامي مُمثلة في ألفاظ آنية الطعام والشراب المُصنَّعة من الجلود وأوعيتها.

وصنّف الثنيّان كتابه إلى عدّة موضوعات من خلال مُعْجَم لسان العرب لابن منظور، فبعد المُقدمة والتمهيد بدأ الثنيان كتابه بذكر صناعة الأوعية

العراق الحضارة

صدر ضمن سلسلة الندوات (٥) عن مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية في دبي كتاب «العراق الحضارة» لمجموعة من الكُتّاب العراقيين الذين ساهموا في أعمال الندوة الفكرية المصاحبة لمهرجان العراق الحضارة الذي أُقيم للفترة من ٩-١٣ أكتوبر ٢٠٠٥م في دبي.

وقدم أبحاث الندوة كل من د. صباح جاسم «العراق القديم أساس الحضارة ومنبع العلوم»، ود. عبدالستار العزاوي: «العمارة العربية الإسلامية في العراق منذ الفتح العربي الإسلامي حتى سقوط الدولة العباسية ٦٥٦هـ». وعرضت الباحثة دانا أحمد مصطفى: «الثقافة والوجود: دراسة مُقتضبة حول الثقافة الكردية المُعاصرة، الصورة الكردية في الشعر الكردي المُعاصر أنموذجاً»، بينما قدّم المسرحي يوسف العاني بحثه: «مسرح العراق الحضاري»، أعقبه د. سعدي الحديثي ببحثه: «تنوع الأجناس البشرية إزاء الأشكال الغنائية»، ود. عباس جاور: «الفن العراقي المعاصر: المرجعيات والاتجاهات الأسلوبية»، وشارك د. محسن الموسوي ببحث تحت عنوان: «ذاكرة المكان ومجازات السّرد في خصوصية الأدب العراقي»، وختم د. حيدر سعيد أبحاث الندوة ببحثه: «العراق كما نحلم به».■



- اسم الكتاب: **العراق الحضارة.**
- المؤلف: **مجموعة من الكُتّاب.**
- الناشر: **مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي.**
- الطبعة والسنة: **الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، دبي.**
- الصفحات: **١٧٤ صفحة من القطع المتوسط.**
- العنوان: **ص.ب ١٤٣٠٠، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.**

ـــة الجلديـــّة

الجلدية ووصفها، ثم أشار لأحد عشر مجالاً هي: مجالات ألفاظ الأوعية الجلدية المُوثّقة، ومجالات الأسقية والأزقاق، ومجالات الدِلاء، ومجال القِرَب، ومجال المِزْوَاد، ومجال العِلاب، ومجال الأجْرِبَة والخرائط، ومجال الأحواض والبُسُط، ومجال العِياب والكَنَف، ومجال المَطَاهِر، وأخيراً مجال الجَوَالِيق.

بعدها عرض مؤلف الكتاب للنتائج التي توصل إليها من خلال بحثه، مع ذكر مُلحقات عبارة عن جداول لذكر ألفاظ الأوعية في مجال الأسقية والأزقاق وفقاً للمصدر، ولكل المجالات التي ذكرها في موضوعات كتابه الجديد. ■

■ اسم الكتاب: **أسماء الأوعية الجلديّة من خلال مُعْجَم لسان العرب**

■ المؤلف: **د. محمّد عبدالرّحمن الثنيّان**

■ الناشر: **كتاب الدارة «الكتاب الثامن»، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.**

■ الطبعة والسنة: **الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ**

■ الصفحات: **٢٠٦ صفحات من القطع المتوسط.**

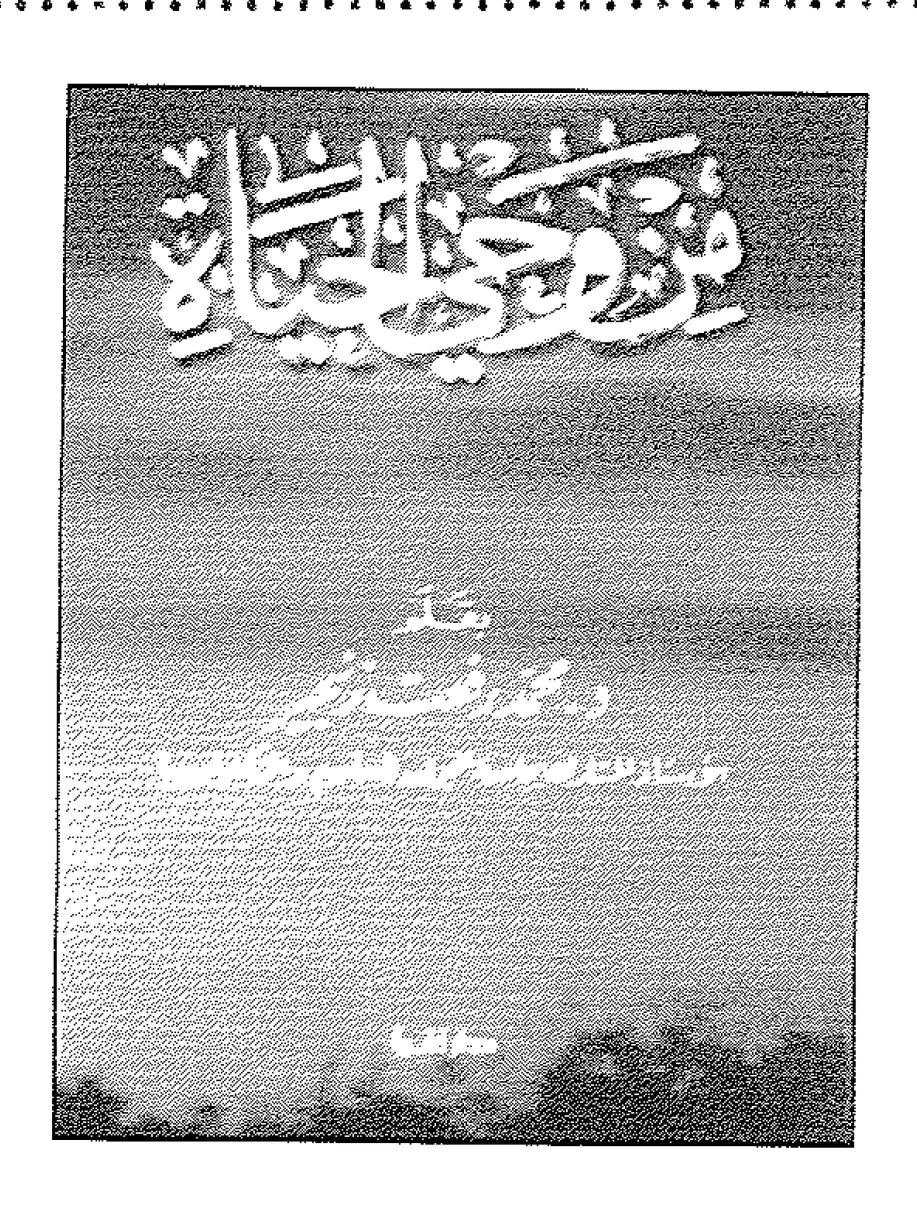
■ العنوان: **ص.ب: ٢٩٤٥- الرياض- ١١٤٦١- المملكة العربية السعودية.**

مِن وحيّ الحيـــاة

أودع الدكتور محمّد رفعت زنجير في كتابه الجديد «مِن وحيٍ الحياة» مجموعة من المقالات الفكرية والأدبية والاجتماعية المنوعة التي كتبها في فترات سابقة، وجُلّ غايته من ذلك كُلّه هو مساعدة الطلبة بصورة عامة، وطلبة المرحلة الثانوية على وجه الخصوص على تلمُس الطريق الصحيح في كتابه التعبير الجميل بأسلوب عربي رصين، وخارج حدود الموضوعات التقليدية لتساعدهم على تقويم ألسنتهم وتُعدِّل من أسلوبهم الكتابي مُسترشدين في ذلك الاستشهاد والنهل من مَعِين لغة الضاد والأدب العربي بعصوره المختلفة ليكون عوناً لهم في بلورة صياغة أفكارهم الإبداعية بأسلوب تعبيري جميل.

واحتوى كتاب الدكتور زنجير على واحد وأربعين موضوعاً من وحي الحياة، منها «الإنسان بين العقيدة والوطن، ومن أسرار أمّ الكتاب، ومرحباً بشهر الصيام، ومن آداب السفر والابتعاث، وبكاء الخنساء بين الجاهلية والإسلام، ونحو القمر».

ثم تناول المؤلف موضوعات أخرى منها: «خواطر في ذكرى المولد، وفضيلة القناعة، ومسؤولية الأديب التربوية والاجتماعية، وذروة سنام الإسلام، مسؤولية أهل العلم، وفتنة المال، وختم موضوعات كتابه: بأهمية الرأي الآخر في صناعة الحضارة». ■



اسم الكتاب: **مِن وحي الحياة.**

المؤلف: **د. محمّد رفعت زنجير.**

الناشر: **دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية.**

الطبعة والسنة: **الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.**

الصفحات: **١٦٤ صفحة من القطع الاعتيادي.**

العنوان: **ص.ب ٥٩٧٥، حلبوني، شارع مسلم البارودي، بناء فندق سلطان، دمشق، سورية.**

سوالف بوراشد

حكايات واقعية من الحياة يرويها:

■ خميس بن زعل الرميثي

«زيد.. وبا زيد»

قال الراوي خميس بن زعل الرميثي: في الماضي وكما تعلمون.. كانت الحياة صعبة وقاسية، ونحن هنا نروي حكايات عن تلك الحياة لنتذكر ماضينا كيف كنا ولنعرف كيف أصبحنا.. ولنشكر الله على النعمة التي أنعمها علينا، وشكر النعمة دائما يكون بالحرص عليها وحفظها وشكر المنعم، ونرويها أيضا ليتعلم الصغار من الكبار، وليعرفوا كيف كانت الحياة وكيف تصرف الآباء والأجداد تجاه المواقف الصعبة التي واجهوها، ثم كيف دبروا أمور حياتهم ليتعلموا منهم الخبرة ويستفيدوا من تراكم الدروس والعبر في حياة الكبار، فهم قاسوا وتعبوا لنتعلم نحن ونسجد ونشكر لله.

ومن بين قصص الماضي قصة محمد بن خلفان.. الذي كان رجلاً قوياً قادراً على تحمل الشدائد والصعاب، ومن أصحاب العزم والصبر، وكان محمد يعيش خلال فترة الأربعينات مع أهله في البزم الغربي.. والبزم هو الجزيرة كما تعلمون، وبالطبع.. من يعش في جزيرة يكن كل اعتماده في الحياة على صيد السمك والاتجار به، وصيد السمك له طرق تختلف حسب الحاجة، فإذا ذهب الصياد لجلب «ودام» (طعام) لأهله فإنه يستخدم الخيط أو وسيلة سهلة، وإذا ذهب لصيد كمية كبيرة تكفيه بعد تمليحها عدة أيام فيستخدم القراقير أو الشباك، وللتجارة يستخدم الشباك الطويلة التي تصل أطوالها إلى عدة كيلومترات، وهكذا، وذات يوم ذهب محمد خلفان لصيد سمك القرش الصغير الذي يسمونه ولد الولد، وكانوا لضحالة المياه التي تصل إلى ما دون الركبة يستخدمون النيزه أو المخواض، وهي عصا طويلة طرفها مدبب وتشبه الرمح حيث يطلقونها في أثر السمكة فتنشب فيها، ولأن المياه ضحلة وقعر البحر به طين فإنه مع حركة الأرجل والخوض في المياه تحدث «دلخة»، أي تعكر في منطقة من المياه يتوقف حجمها على مدى الحركة التي حدثت بها، وحدث أن طارد محمد القرش الصغير الذي كان مراوغاً جيداً فأتعبه ثم اختفى في «الدلخة»، ولما أحس محمد بالفشل والتعب.. أراد أن يستريح مستفيداً من برودة المياه فتمدد فيها ليبرد جسمه ويستعيد نشاطه، وكما قلت لكم كان القرش الصغير مراوغاً جيداً، وماكراً وغداراً، فما أن رأى ابن خلفان على هذا الوضع.. حتى انقض عليه مستغلا الفرصة لينشب أسنان فكه المفترس في زند محمد خلفان الذي فزع وقام محاولاً إبعاد القرش عنه من هذا الوضع المؤلم دون فائدة، فهداه تفكيره إلى فكرة غريبة، فقد انقض هو الآخر على جسم القرش الصغير ناشباً أسنانه القوية وهو يردد: «زيد وبازيد».. وظل يقاوم شراسة القرش الصغير بصبر وهو يردد العبارة نفسها.. إلى أن انتصر في النهاية، فترك القرش زند بن خلفان وهو يقطر دما، فما كان من ابن خلفان إلا أن رفع قبضة أسنانه عنه.. ورماه في البحر!!. ■



عدد خاص
اقرأ في العدد القادم:
غرائب وطرائف
العادات والتقاليد
عند شعوب العالم



الحداثة والأصالة

تصوير: مها حمدي نصر

تراث